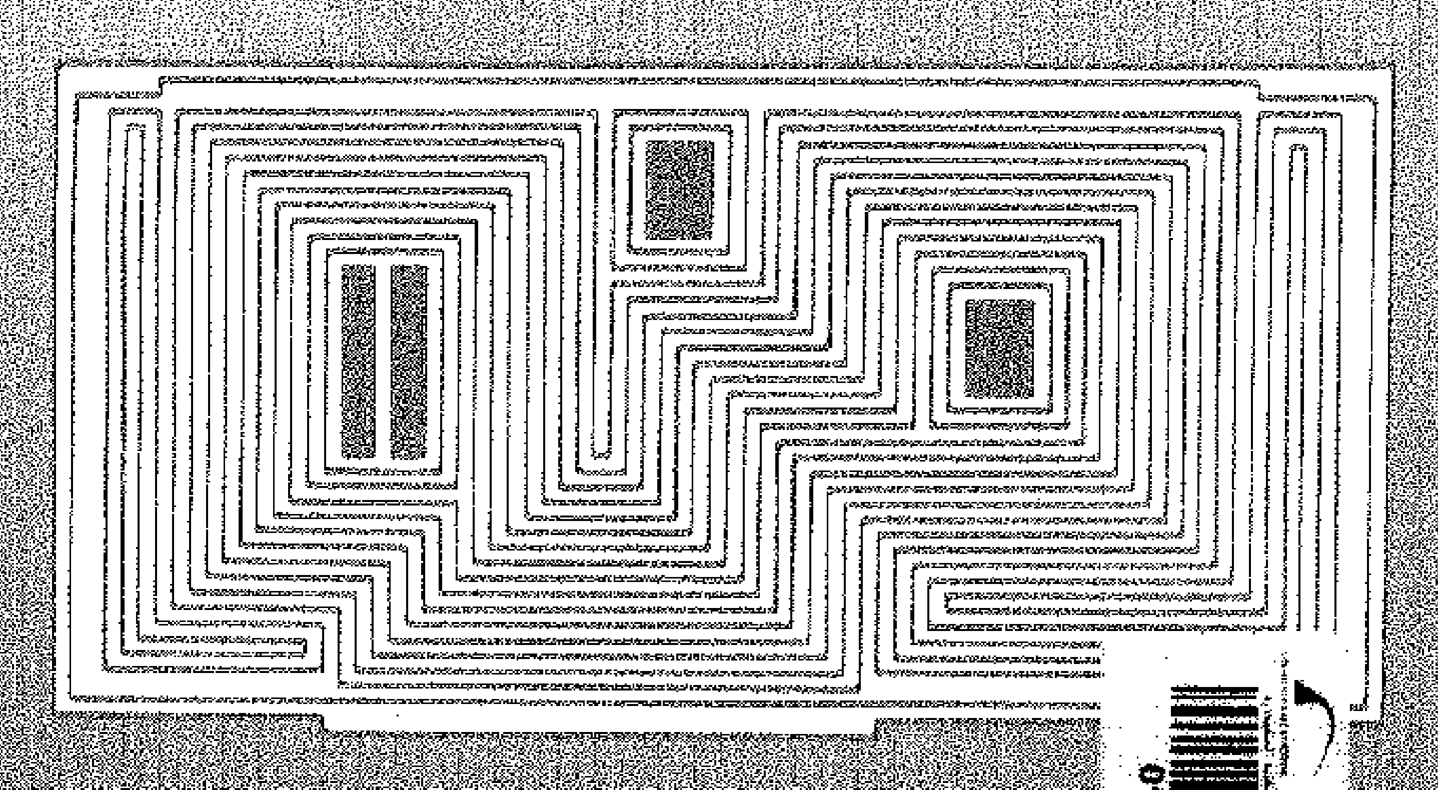
علم نفس

د. علي أفرفار

الطفل وجسم المرأة

تكون البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل





دار الطليعة - بيروت

الطفل وجسم المرأة

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠-١-٩٦١

الطبعة الأولى
تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٩٨

الطفل وجسم المرأة

تكوّن البنية الجسميّة لصورة المرأة عند الطفل

الدكتور علي أفرفار
شعبة علم النفس/كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس - المغرب

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

إهداء

إلى أم مصطفى ومروان،

أهدي هذا العمل المتواضع.

مدخل عام

بعد أن قدّمنا إلى القارىء الكريم كتابيْ: صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، وعلم نفس الصورة: مدخل نظري إلى تكوّن صورة المرأة لدى الطفل[1]، سنقدّم إليه في هذا الكتاب إجابة جزئية عن سؤالين محدّدين صغناهما على النحو التالي: ما هي مداخل تكوّن صورة المرأة عند الطفل؟ وما هي الإجراءات والضوابط المنهجية التي سنعتمدها لاستقصاء تلك المداخل؟ وقد استخدمنا عبارة «إجابة جزئية» بدل «إجابة كاملة» لكون الإحاطة بصورة المرأة ـ كما بيّنا ذلك في كتاب المدخل النظري. . . ـ ، تستوجب استحضار جوانب ثلاثة:

ـ يتحدد أولها في البنية الجسمية لصورة المرأة، حيث إننا سنعمل على استقصاء مراحل تكوّن صورتها لدى الطفل. ونعني بالبنية الجسمية الشكل الخارجي لصورة المرأة. هذا الشكل الذي سنحاول معرفة مدى وصف الطفل للأجزاء المكوِّنة له ومدى رسمه لها في رسوم واضحة، أي مدى استحضاره لصورة المرأة وتمثّله لبنيتها العامة وبنياتها الجزئية ولأعضائها المختلفة. ولا شك أن ذلك التمثّل يتوقف أساساً على مدى تمكّن الطفل من قراءة شكل صورة المرأة معرفياً، أي مدى تجريده لصورتها وفق معايير ترتبط بتمثُّل الطفل للمكان. وحينما نقول معرفياً، فإننا نشير إلى الصورة التي تمثّلها الطفل من خلال علاقته بالمرأة، أي من خلال علاقة (ذات ←→ موضوع)، فالذات تقرأ الموضوع حسب مستواها المعرفي وقُدراتها الذهنية ومستوى تمثّلها للمكان. فهدفنا في هذا الكتاب ينحصر في الكشف عن مراحل تطوّر تلك القراءة وعن النشاط المعرفي الكامن وراءها.

ـ ينحصر الجانب الثاني في المحتوى العاطفي لصورة المرأة، ذلك أن الطفل لا يتعامل معها كبنية جسمية فحسب، بل إنه يمنحها ـ عبر علاقة ذات ←→ موضوع (أم، امرأة. . .) ـ دلالات شتّى، إذ إن الطفل لن يعتبر «اليد» مجرد عضو يتألف من «كف» و«أصابع». . . ، بل يعتبره العضو المسؤول عن الفعل، كما أن «الثدي» ليس مجرد انتفاخ في الصدر، بل إنه مصدر التغذية والإشباع الجنسي، وبالمثل «الفم» ليس مجرد عضو يوظّف للأكل والكلام، بل إنه مصدر الإشباع الجنسي أيضاً؛ والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لكل الأعضاء التي يتكوّن منها جسم المرأة. ولذلك أضحى من اللازم ألا نهتّم بشكل صورتها فقط، بل وبمحتواها أيضاً. هذا المحتوى الذي يرتكز على الجانب الوجداني أكثر من الجانب المعرفي. وما دامت

(١) صدر الكتابان في بيروت عن دار الطليعة، الأول سنة ١٩٩٦ والثاني سنة ١٩٩٧.

إشكاليتنا العامة تصبو ـ كما عبّرنا عنها في الكتابين المشار إليهما سابقاً ـ إلى دراسة صورة المرأة من خلال خلفية نظرية يلتقي فيها المعرفي بالوجداني العاطفي، فإن السؤال الذي سنحاول الإجابة عنه، استقبالاً، هو: ما علاقة مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل بمراحل تكوّن محتواها العاطفي عنده؟

ـ أما الجانب الثالث فيرتبط بأثر العوامل الاجتماعية والثقافية والدينية في تكوّن صورة المرأة عند الطفل، حيث إننا سنعمل استقبالاً على عقد مقارنة بين صورة المرأة لدى الطفل بصورتها في النص الديني[1].

يتضح مما سبق أن موضوعنا يجمع بين جوانب ثلاثة: المعرفي، الوجداني والاجتماعي الديني. وهي جوانب من الصعب أن يحيط بها الباحث دفعةً واحدةً، ولذلك آثرنا أن نخصّص هذا الكتاب لرصد مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل، على أن نُخرج ـ فيما بعد ـ كتاباً آخر نفرده لعرض مراحل تكوّن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل، ولتقديم النتائج المرتبطة بمدى تأثير العوامل الاجتماعية والخلفية الدينية في تكوّن تلك الصورة.

وبما أننا سنهتمّ في هذا الكتاب بتقديم كيفية قراءة الطفل لجسم المرأة، فإننا سنكتفي بالإجابة على السؤالين اللذين صدّرنا بهما هذا المدخل العام، وذلك بالاعتماد على الفصول الأربعة التالية:

الفصل الأول: الإجراءات المنهجية المتبعة في إنجاز الدراسة.

الفصل الثاني: مرحلة تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل من عمر ٤ إلى ٦ سنوات.

الفصل الثالث: مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل من عمر ٧ إلى ١١ سنة.

الفصل الرابع: مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل من عمر ١٢ إلى ١٤ سنة.

وإننا واثقون من أن الملاحظات التي سبق لبعض الباحثين أن سجّلوها بصدد الكتابين السابقين وتلك التي نتمنى أن يثيرها هذا الكتاب، ستنير لنا الطريق نحو إنجاز دراسات أكثر دقّة على المستويين النظري والمنهجي.

---

(١) لقد تمّ رصد معالم تلك الصورة في كتاب: صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، م. س.، الفصل الأول.

الفصل الأول

الإجراءات المنهجية المتبعة في إنجاز الدراسة

تمهيد

إن الإقبال على كتابة فصل كامل عن منهجية البحث المقترح للدراسة يتطلّب منا الإجابة على سؤالين هامين هما: لماذا اخترنا إشكالية تكوّن صورة المرأة عند الطفل[1] كموضوع للدراسة؟ ثم ما هي الإجراءات المنهجية التي سنتبعها لإنجاز هذا البحث؟

سؤالان دقيقان ستستدعي منا الإجابة عنهما تقسيم هذا الفصل إلى محورين كبيرين: سنتطرق في أولهما إلى تحديد المشكلة، وسنخصّص ثانيهما لعرض الخطوات المنهجية التي سنتبعها في إنجاز هذا العمل. وهي خطوات سنبدأها بطرح الفرضيات ثم ننتقل إلى تحديد العينة، فننهي هذا المحور بعرض الطرق والتقنيات التي سنعتمدها لجمع مادة البحث. ولا بد من الإشارة إلى أن الخطوات السابقة ـ وإن كانت تبدو مفككة وغير منسجمة ـ تكوّن وحدةً متكاملةً، ذلك أن كل واحدة منها تمهّد للأخرى. فتحديدنا لمشكلة البحث سيُمكّننا من أخذ نظرة دقيقة عن إشكاليته العامة ومشاكله الخاصة، الأمر الذي سيفيدنا أيضاً في طرح فرضيات تتضمّن تخمينات نظرية مختلفة، تلك الفرضيات التي سنحاول التحقّق من صحتها أو خطئها باعتمادنا على إجراءين منهجيين أساسيين هما: تقنيات جمع مادة البحث، وتحديد عناصر العيّنة التي سنطبق عليها تلك التقنيات. ولا غرو أن هذين الإجراءين سيمكنان هذه الدراسة من الربط بين الجانب النظري والميداني. ولا غرو أيضاً أن اعتمادنا على الخطوات المنهجية السابقة لاستقراء الواقع يعتبر أساساً علمياً مهماً سيمنح هذه الدراسة مكانة متميزة، باعتبار أن معظم البحوث التي بحثت عن سيكولوجية الإنسان العربي عامة والمغربي خاصةً لم تفسح المجال للواقع لكي يعبّر عن ذاته وعن تجلّياته ومضامينه. فجلّ الدراسات تقدّم لنا مادة نظرية تفتقر للسند الواقعي، لكونها لم تنطلق من محاورة الواقع قبل أن تؤسّس خطاباً لتأويله. ونعتقد أن الدراسة الحالية ستتجاوز ذلك القصور انطلاقاً من اعتمادها على خطوات منهجية يُمكننا حصرها في النقاط التالية:

١ ـ تحديد المشكلة.

٢ ـ المشاكل الخاصة المرتبطة بالبحث.

---

(١) نعني هنا الطفل الذكر فقط، باعتبار أن عيّنتنا لا تضمّ الإناث.

٣ ـ فرضيات البحث.

٤ ـ تحديد عيّنة البحث.

٥ ـ طُرق وتقنيات جمع مادة البحث.

٦ ـ الورقة الشخصية.

١ ـ تحديد المشكلة

لا شك أن القارىء سيتساءل عن مدى جدوى تحديدنا لمشكلة البحث بعد أن انتهينا من تحديد إطاره النظري. وهو تساؤل مشروع، ما دمنا قد تطرقنا في كتابنا تكوّن صورة المرأة لدى الطفل[1] إلى طبيعة موضوعنا وإلى أهم الإشكالات التي سنتناولها في عملنا هذا وفي غيره بالدراسة والاستقصاء. وإننا نعتقد بأن اطلاع القارىء على الفصل الثالث من كتابنا السالف الذكر، وبخاصة على الصفحات الأخيرة منه، قد يُمكّنه من أخذ نظرة واضحة عن المجالات التي سنعتمد عليها لمقاربة موضوع «تكوّن صورة المرأة عند الطفل». غير أنه بالرغم من ذلك، فإننا سنذكر هنا بتلك المجالات حفاظاً منا على تناسق وانسجام بين الإطار النظري السابق والخطوات المنهجية اللاحقة التي سنتبعها في إنجاز ما تبقّى من هذه الدراسة.

من خلال اطلاع القارىء على مضامين الكتاب السابق الذكر سيدرك أن إشكاليتنا تتحدد في السؤال التالي: ما هي مراحل تكون صورة المرأة عند الطفل من عمر ٤ إلى ١٤ سنة؟ وهو سؤال توصلنا من خلال الإحاطة بجانبه النظري إلى الاقتناع بأن الصورة ترتبط في تكوّنها بالمجال المعرفي والعاطفي والاجتماعي الثقافي. ذلك أن الصورة، كما رأينا سابقاً، تتكوّن عند الطفل كبنية جسمية وكمحتوى عاطفي، بالإضافة إلى تأثر ذلك التكوّن بالوسط الاجتماعي الثقافي الذي يستقي منه الطفل معلوماته ومعارفه وقِيَمه. . . وكل ضوابط سلوكه. ومن هنا، فإن السؤال العام الذي طرحناه سابقاً يضمر في الحقيقة ثلاثة أسئلة فرعية هي:

١ ـ ما هي مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل؟

٢ ـ ما هي مراحل تكوّن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل؟

٣ ـ ما أثر العوامل الاجتماعية[2] في اختلاف أو تجانس صورة المرأة عند أطفال مختلف الفئات الاجتماعية، وما علاقة تلك الصورة بالخلفية الدينية والثقافية؟

من خلال قراءتنا لهذه الأسئلة يتبين لنا أن مقاربتنا لمشكل تكوّن صورة المرأة عند الطفل سيستلزم منا الإحاطة بمجالات ثلاثة:

□ يتمثل المجال الأول في البنية الجسمية لصورة المرأة، تلك البنية التي تعرّف عليها الطفل واستوعب أجزاءها وملامحها الدقيقة وتلاءم مع صفاتها وحركاتها بحيث أصبح بإمكانه

---

(١) علم نفس الصورة: مدخل نظري إلى تكوّن صورة المرأة لدى الطفل، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧.

(٢) إننا نعني بالعوامل الاجتماعية: وسط الإقامة والمستوى التعليمي والاقتصادي وفقدان الأم.. وهي عوامل سنأخذها بعين الاعتبار أثناء تحديدنا لعيّنة البحث.

إعادة إنتاج تلك البنية الجسمية عن طريق الرسم والوصف اللفظي. ولا شك أن اهتمامنا باستقصاء مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل قد يفرض علينا الدخول في مناقشات مع المساهمات التي سبقتنا في هذا الميدان، أي تلك التي اهتمّت بدراسة رسم الطفل للإنسان والحيوان والأشياء عامة... وهي مساهمات لم تقف عند حدود تحليل رسم الطفل وقراءة مضامينه فحسب، بل تجاوزت ذلك لتحدّد مراحل تطوّر الرسم عنده. تلك المراحل التي قد تتجانس أو تختلف مع المراحل التي سنكشف عليها من خلال دراستنا لتكوّن صورة المرأة عند الطفل، وفي كلتا الحالتين، فإن تفسير ذلك التجانس أو الاختلاف أمر ضروري من الناحية العلمية. ومن ثم، فإن اهتمامنا بالبنية الجسمية لصورة المرأة لن يسقط في اجترار ما سبق وأن أكدته المساهمات السابقة، بل إنه سيبحث عن نتائج جديدة ليناقش من خلالها أهم الطروحات المتعلّقة بمراحل تطور الرسم عند الطفل. وهي مناقشة لن يطلع عليها القارىء إلاّ بعد انتهائنا من رصد مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل.

☐ ينحصر المجال الثاني في استقصائنا لمراحل تكوّن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل. وهو استقصاء سيُمكّننا من التعرّف على مكوّنات صورة المرأة عنده وعن صفاتها وعن مواقفه منها وعن الخلفية الأخلاقية التي تتحكّم في علاقته بها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اهتمامنا بهذا المجال راجع إلى أننا مقتنعون بأن علاقة الطفل بأمه أولاً، وبالمرأة عامة ثانياً، تؤدي به إلى بلورة إحساسات خاصة تجاههما. تلك الإحساسات التي تنتظم وتتبنّين تبعاً لقواعد أخلاقية محددة. ولا غرو أن هدفنا الأساسي ينحصر في الكشف عن مراحل انبناء تلك الإحساسات وانتظامها، باعتبار أنه من خلال استقصائنا لكيفية انبناء تلك الإحساسات سنتعرّف على المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل[1]. ولا نخفي في هذا المجال بأننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه على دراسات تهتم بالموضوع نفسه، ذلك أن معظم الدارسين قد انصبّ اهتمامهم على دراسة أثر الأسرة في تكوّن الأنا الأعلى عند الطفل أو في استدماجه لقوانين المجتمع وقيمه، بحيث يُمكننا القول بأن الدراسات الأكثر تقدماً في هذا الميدان لم تتجاوز دراسة تكوّن الإحساسات أو العاطفة أو «الحكم الأخلاقي» عند الطفل. ولذلك، فإننا لن نُبالغ إذا نحن ذهبنا إلى حد القول بأن عملنا المقبل سيساهم في الكشف عن مراحل تعقلن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل. ولقد استخدمنا لفظة «تعقلن» لكوننا على اقتناع بأن إحساسات الطفل تجاه المرأة ومواقفه منها تخضع لتقعيد منذ اكتسابه اللغة حتى بلوغه سن الرشد وربما بعد ذلك بكثير. وهو تقعيد تساهم في تأسيسه كل من الأسرة والمدرسة ومختلف وسائل الإعلام... باعتبارها قنوات تُمرر للطفل قيماً وعادات وأحكاماً ترتبط بقول المرأة وفعلها وحقوقها وبكل أنشطتها الاجتماعية المختلفة.

☐ أما المجال الثالث، فإنه يتمثّل في علاقة تكوّن صورة المرأة عند الطفل بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية. ذلك أننا على اقتناع بأن صورة المرأة لا يُنشئها الطفل من فراغ، بل انطلاقاً من العلاقات المستمرة التي تجمعه بأمه أولاً، وبالمرأة عامة ثانياً.

---

(١) سنخرج استقبالاً كتاباً سنتطرق فيه لرصد مراحل تكوّن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل.

وطالما أن الواقع الاجتماعي يضم فئات متفاوتة اقتصادياً وثقافياً، فإنه أضحى من اللازم علينا أن نكشف عن مدى تجانس أو اختلاف صورة المرأة عند الأطفال. وحينما نقول الصورة، فإننا نعني بذلك البنية الجسمية والمحتوى العاطفي. ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أننا لن نتوقف عند هذا الحد، بل إننا سنتجاوز ذلك لنكشف عن العلاقة الموجودة بين محتوى صورة المرأة الذي سيفصح عنه الأطفال ومحتوى صورتها داخل النصّ الديني والشعبي. ولا شك أن رصدنا لمعالم تلك العلاقة سيمكّننا من الكشف عن الخلفيتين: الأخلاقية والقيمية اللتين تتحكمان في إحساسات الأطفال تجاه المرأة، أي الكشف عن «العقلنة» التي تخضع لها تلك الإحساسات في انتظامها وانبنائها. ولا غرو أن رصدنا لمعالم تلك «العقلنة» سيؤدي بنا إلى الدخول في مناقشة مختلف الدارسين الذين أنتجوا كتابات تنظّر لقضية المرأة على المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والقانوني.

يتضح مما سبق أن مقاربتنا لإشكاليتنا العامة سيتطلّب منا التعرّض لإشكاليات فرعية ثلاث: ترتبط أولاها بالبنية الجسمية لصورة المرأة، وتتعلق ثانيتها بمحتواها العاطفي؛ أما ثالثتها، فإنها تنحصر في البعد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والقانوني والديني. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تمييزنا بين الإشكاليات الثلاث لا يرجع إلى انفصال بعضها عن البعض الآخر، بل يرجع إلى ضرورة منهجية ملحّة. ولذلك، فإنه غالباً ما سيُلاحظ القارىء أننا لن نعتمد في تفسيرنا للنتائج المرتبطة بتكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل على قضايا ترتبط بقواعد تمثّل وإدراك الطفل للعلاقات المكانية فحسب، بل إننا سنعتمد أيضاً على قضايا ترتبط بالعاطفة وبالأبعاد الاجتماعية التي تؤثّر في تكوّن تلك الصورة. وما قُلناه عن تفسيرنا لنتائج تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل يصدق بالنسبة لتفسير نتائج تكوّن محتواها العاطفي من جهة، ونتائج العوامل المؤثّرة في تكوّنها من جهة أخرى، إيماناً منا بأن الصورة إنما تتكوّن نتيجة تداخل البُعد المعرفي (البنية الجسمية)، والبُعد العاطفي (المحتوى)، والبُعد الاجتماعي الثقافي. ومن ثم، فإن إغفالنا لأي بعدٍ من هذه الأبعاد سيؤدي بعملنا هذا إلى السقوط في هفوات نظرية ومنهجية كبيرة. وما دمنا سنخصص هذا الكتاب لعرض مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل، فإننا سنكتفي بتقديم المشاكل الخاصة المرتبطة بالجانب المعرفي، على أن نقدم للقارىء المشاكل الخاصة المتعلقة بالجانب العاطفي والاجتماعي في عمل آخر.

٢ ـ المشاكل الخاصة المرتبطة بالبحث

نقصد بالمشاكل الخاصة، كل المشاكل النظرية والمنهجية التي ترتبط مباشرة بموضوع دراستنا. وهي مشاكل متعددة تطرح تساؤلات حول التوجهات والطرق والتقنيات التي سنتبعها لإنجاز هذا العمل. ولذلك فإنها مشاكل ذات أهمية بالغة، لكونها تُجسّد مشاكل البحث في تساؤلات دقيقة تفرض على الدارس إيجاد حلول مقنعة لها. وبما أن موضوعنا يرتبط نظرياً ـ في هذا الكتاب ـ بالجانب المعرفي، ومنهجياً بطريقة اختيار العيّنة وتقنيات جمع مادة البحث، فإنه أمسى من المفروض علينا أن نحدّد المشاكل الخاصة التي يطرحها كل مجال من

المجالات السابقة نظرية كانت أم منهجية:

أ ـ المشاكل الخاصة المرتبطة بتكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل:

بالرغم من أن المشاكل الخاصة المتعلّقة بهذا المحور كثيرة ومتعدّدة، فإننا سنحصرها في الأسئلة الثمانية التالية:

١ ـ إلى أي حد يُمكن القول بأن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل تتبع مساراً تكوينياً منتظماً يُمكننا تحديده في مراحل نمائية محدّدة؟

٢ ـ هل سنعتمد في استقصائنا لمراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة على تقنية الرسم أم الوصف اللفظي أم على كليهما معاً؟

٣ ـ إذا نحن اعتمدنا على التقنيتين معاً، فإلى أي حد يُمكن القول بأن صورة المرأة التي سيفصح عنها الأطفال في رسومهم هي نفسها التي سيعبِّرون عنها في كلامهم؟

٤ ـ ما هي الأعضاء الجسمية[1] التي سيتمكّن الأطفال من تجسيدها بالرسم أو وصفها بالكلام أكثر من غيرها؟

٥ ـ ما هي البِنية الجزئية[2] التي سيتمكّن الأطفال من تجسيدها أو وصفها أكثر من غيرها؟ فهل سيتمكّنون من رسم أو وصف أجزاء الوجه أكثر من أجزاء الجذع أو الأطراف أم أن العكس هو الصحيح؟

٦ ـ ما هو التفسير الذي سنمنحه للأولوية التي سيعطيها الأطفال لبنية جزئية على أخرى أو لعضو على آخر؟

٧ ـ إلى أي حد يمكن القول بأن البنية الجسمية لصورة المرأة التي سيعبّر عنها الأطفال في رسومهم وكلامهم هي نفسها التي أرادوا الإفصاح عنها؟

٨ ـ ما هي المقاييس التي سنعتمدها لتصنيف رسم الأطفال للبنية الجسمية لصورة المرأة؟

ب ـ المشاكل الخاصة المرتبطة باختيار العينة:

يُمكننا حصر تلك المشاكل في الأسئلة التالية:

١ ـ ما هي الطريقة التي ستتبعها الدراسة الراهنة لاختيار عناصر العيّنة؟ هل ستعتمد على الاختيار العشوائي أم على الاختيار العشوائي الطبقي أم على الاختيار القصدي؟

٢ ـ ما هي العوامل التي ستتخذها الدراسة الراهنة كمنطلقات أساسية لاختيار العيّنة؟

---

(١) نعني بالأعضاء الجسمية كل ما يتكوّن منه جسم المرأة كالشعر والفم والأنف والعنق... وغيرها من الأعضاء.

(٢) نعني بالبِنية الجزئية الوجه والجذع والأطراف. ولقد أطلقنا عليها اسم البِنيات الجزئية لأن كل واحدة منها تضم مجموعة من الأعضاء. أما البِنية الجسمية فإننا نقصد بها جسم المرأة ككل.

٣ ـ ما هو عمر الأطفال الذين ستشملهم العيّنة؟

٤ ـ كم هو عدد الأطفال الذين سنطبّق عليهم أدوات جمع مادة البحث؟

ج ـ المشاكل الخاصة المرتبطة بأدوات جمع مادة البحث:

١ ـ ما هي الأدوات المنهجية التي ستعتمدها الدراسة الراهنة لجمع مادة البحث؟

٢ ـ ما هي الأسس النظرية والمنهجية التي سترتكز عليها الدراسة الراهنة لبناء أدوات قادرة على رصد مكوّنات صورة المرأة عند الطفل؟

٣ ـ ما هي الطريقة أو الطرق التي ستتبعها الدراسة الراهنة في تطبيق أدوات جمع مادة البحث؟

تلك هي بعض المشاكل الخاصة التي حدّدناها على شكل أسئلة مركّزة تتطلّب البحث والاستقصاء. ولقد آثرنا أن نقدم للقارىء تلك المشاكل في صيغة أسئلة بدل أن نقدّمها له على نسق خطاب مستفيض قد يجد صعوبة في الإلمام بمضامينه. ولا شك أنه بجانب هذه الميزة، فإن طرح الباحث لمشاكل بحثه على شكل أسئلة تسقطه في نوع من الالتزام بالجواب عنها واحدة واحدة. ومن ثم، فإن السؤال في نظرنا بمثابة إشكال يتعهد الباحث بتقديم جواب له. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا نعتقد بأن الغرض من طرح تلك الأسئلة يكمن في توضيح ما اكتنف مشكلتنا العامة من غموض. ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا لم نعرض كل المشاكل التي قد تواجهنا في المراحل اللاحقة من هذا العمل، كشكل البنود والأسئلة التي سنطرحها على الطفل، واللغة التي سنوظفها في محاورته. . . . ولقد اقتصرنا على طرح المشاكل السابقة الذكر فقط، لكونها تحتل مكانة مهمة داخل البحث. وما يُمكننا التأكيد عليه في هذا الصدد هو أن طبيعة موضوعنا مركّبة، ولذلك فمن الصعب جداً أن نحيط بكل مشاكله وقضاياه. ولهذا السبب، فإننا قد ركّزنا على إثارة أكبر قدر ممكن من المشاكل المرتبطة بصورة المرأة عند الطفل باعتبارها تمثّل قطب موضوعنا وعموده الفقري. ونعتقد أنه لا مجال هنا لعرض أبعاد مشكلتنا وأهدافها ما دُمنا قد تطرقنا إليها في المدخل العام الذي صدّرنا به هذا العمل. ولذلك، فإننا سننتقل مباشرة إلى تقديم مختلف الفرضيات التي يطرحها موضوعنا من أجل التأكّد من صحتها أو خطئها.

٣ ـ فرضيات البحث

لا شك أن إقبال الباحث على طرح فرضيات مرتبطة بمجال بحثه يتطلّب منه دقّة متناهية في ضبط عوامل موضوعه وأبعاده. ولا شك أيضاً أن إقدام الباحث ذاته على اختبار صحة فروضه أو خطئها يستوجب منه أن يربط بين تلك الفروض والأدوات المنهجية التي سيطبّقها في بحثه. وبتعبير آخر، لا بد أن تستجيب فرضياته لطبيعة بحثه وأهدافه من جهة، وأن تتلاءم مع الأدوات المنهجية التي يرغب الباحث في تطبيقها من جهة أخرى. ذلك أن تحقيق التكامل بين طبيعة البحث وفرضياته وأدواته يؤدّي بالدارس إلى الحصول على نتائج موضوعية. ولا نخفي هنا أننا لم نحصل بعد على مثل ذلك التكامل ما دامت الفرضيات التي سنطرحها عبارة

عن تخمينات نظرية لم تزكّيها بعد نتائج الدراسة الاستطلاعية، مما يتيح لنا القول بأن فرضياتنا قابلة للتعديل والتغيير. ولا يُمكن أن نعتبر ذلك نقصاً أو عيباً يشكو منه هذا البحث، بل إننا نعتبر ذلك القصور ميزة إيجابية، لكون الدراسات التكوينية لا تنطلق من فرضيات جاهزة ونهائية، باعتبار أن طبيعة تلك الدراسات تستلزم من الباحث أن يُعمّق فرضياته كلما تقدّم في البحث والاستقصاء. فبالرغم من أنه يعتمد في بداية دراسته على فرضيات عامة، فإنه لا يطرح فرضياته الدقيقة إلاّ بعد تحقيقه لنتائج أولية تؤهّله للانتقال من العمومية إلى التخصيص، ومن الغموض إلى الوضوح. ولكي يأخذ المهتمّ فكرة واضحة عن الفرضيات التي سنعمل على التحقّق من صحتها أو خطئها، فإننا سنقدمها له تبعاً للترتيب التالي:

١ ـ بما أن الطفل يتعرّض خلال نموه لمجموعة من التغيّرات التدريجية نتيجة انتقاله من عمر زمني إلى آخر، وبما أن تلك التغيّرات تمسّ جانبه الذهني والمعرفي، فإننا نفترض أن يخضع تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عنده لمراحل محددة تساير نموه الفكري عامةً ونمو بنياته الذهنية خاصةً.

٢ ـ بما أن تقدّم الطفل في السّن يصاحبه تطوّر في قدراته الذهنية وفي ترجمة محتويات تلك القدرات إلى كلام ورسم، فإننا نتوقع أن يُصاحب انتقاله من عمر زمني إلى آخر أيضاً غنى وكثافة في وصفه ورسمه لمكوّنات البنية الجسمية لصورة المرأة، حيث ستنتقل تلك الصورة من البساطة إلى التعقيد، ومن النقصان إلى الاكتمال، ومن الإبهام إلى الوضوح.

٣ ـ بما أن تمثّل الطفل للبنية الجسمية لصورة المرأة يستدعي منه استيعاب تلك البنية تبعاً لعلاقات مكانية محددة، كالتجاور والتمييز والفصل والمحيط والحجم والتناسق، فإننا نفترض أن إخفاق الطفل في تمثّل تلك العلاقات يحول دون خلقه لانسجام بين البنية العامة لصورة المرأة وبنياتها الجزئية والأعضاء المكوّنة لتلك البنيات.

٤ ـ بما أن تمثّل الطفل للعلاقات المكانية يخضع لمراحل محدّدة (طوبولوجي ـ إقليدي ـ إسقاطي)، وبما أن رسمه للأفراد والحيوانات يخضع بدوره لمراحل متعدّدة، فإننا نفترض أن تجسيد الأطفال للبنية الجسمية لصورة المرأة سينتقل ـ بفعل تقدّمهم في السن ـ من عدم التناسق إلى التناسق، ومن تجسيد أجزاء مفككة إلى تجسيدها داخل بنية عامة تتصف بالانسجام والجمالية.

٥ ـ بما أن الأطفال سيُفصحون عن صورة المرأة بتوظيفهم لوسيلتي الكلام والرسم، وبما أننا سنعتمد على الوسيلتين معاً لاستقصاء مكوّنات صورة المرأة عند الأطفال، فإننا نتوقع بدورنا ظهور فروق دالّة بين متوسّطات وصف الأطفال لتلك المكوّنات ورسمهم لها.

٦ ـ إذا كانت معظم الدراسات السيكولوجية ذات النزعة المعرفية ترى بأن رسم الطفل ووصفه اللفظي يخضعان لمدى تمثّله للعلاقات المكانية والزمانية، فإننا نتوقع ألا يتوقف رسمه ووصفه اللفظي لمكوّنات جسم المرأة على الجانب المعرفي فحسب، بل وعلى الجانب العاطفي أيضاً، بحيث إننا نفترض أن يجسّد الأطفال الأعضاء التي تربطهم بها علاقة عاطفية حميمية أكثر من تجسيدهم لتلك التي لا تربطهم بها تلك العلاقة.

تلك كانت أهمّ الفرضيات التي سنحاول التأكّد من صحتها انطلاقاً من تطبيقنا لأدوات منهجية دقيقة. وقبل أن نقدّم تلك الأدوات، لا بد أن نسجّل وقفة قصيرة لعرض الخطوات التي اتبعناها في اختيار وضبط عيّنة بحثنا.

٤ ـ تحديد عينة البحث

يتضح من أغلبية البحوث التي قام بها السيكولوجيون التكوينيون أمثال بياجيه وفالون وغيرهما أنهم لا يولون اهتماماً كبيراً لتحديد العيّنة بشكل واضح ودقيق، بحيث إنهم يكتفون ـ في معظم الأحيان ـ بالإشارة إلى عدد الأطفال الذين شملتهم الدراسة. وهذا قصور نسجّله منذ البداية، لكوننا نعتبر تحديد العيّنة شرطاً أساسياً من شروط البحث العلمي. ونعتقد أن عدم اكتراث هؤلاء العلماء بتحديد العينة راجع إلى كونهم يختارون أطفالاً فيطبقون عليهم أدوات منهجية ثم يحلّلون ويفسّرون نتائجهم تفسيراً عاماً يتخذ في أغلب الأحيان صبغة شمولية، كونية Universel. ولذلك فإنهم لا يهتمون، أثناء تحديد عناصر عينتهم، بالعوامل والمتغيّرات التي لها أثر في سلوك الفرد كوسط الإقامة والمستوى التعليمي والاقتصادي... فهم يركّزون اهتمامهم على عامل السن فقط، باعتبار أن هدفهم ينحصر في تحديد مراحل تكوّن البنيات الذهنية كالذكاء وتمثّل المكان والزمان والعدد والرمز. ولتفادي هذا القصور، فإننا لن نكتفي بضبط عامل السن فحسب، بل إن اختيارنا للعيّنة سيخضع لخطوات وإجراءات منهجية دقيقة، لكون بحثنا يهتمّ بموضوع تلعب فيه العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية... إلخ الدور الأساسي. ولذلك، فإننا سنحاول ضبط أهم العوامل التي نرى أنها قد تكون المسؤولة عن الفروق الموجودة بين مكوّنات صورة المرأة عند مختلف الأطفال. وبالرغم من أنها عوامل كثيرة، فإننا سنحصرها في أربعة: السن، وسط الإقامة، المستوى التعليمي والمستوى الاقتصادي. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن تطبيقنا لأدوات البحث وتقنياته قد تطلّب منا تقسيم عيّنتنا إلى قسمين: عينة استطلاعية (٣٣ طفلاً)، وعينة نهائية (١١٠٠ عنصر) نطبق عليها تقنيات: الرسم، والوصف اللفظي، واختيار المؤشرات.

ولكي يتعرّف القارىء عن طبيعة عيّنتينا وعلى العوامل[1] التي اعتمدناها في ضبط عناصرهما، نقدّم له المعطيات التالية:

أ ـ عامل السنّ:

يتضح من عنوان دراستنا هذه أن الأطفال الذين ستشملهم الدراسة يتراوح عمرهم بين ٤ و١٤ سنة، أي منذ ظهور الكلام عند الطفل حتى دخوله في المراهقة. ولقد كان اختيارنا لهذه الفترة مقصوداً، باعتبار أنها تغطي مدة ١١ سنة، وهي مدة تسمح لنا بالكشف عن تكوّن صورة المرأة عند الطفل. ولكي يأخذ المهتمّ فكرة واضحة عن طريقة ضبطنا لعامل السنّ، نقدم له الجدول التالي:

---

(١) سنتطرق إلى أثر عامل السنّ ووسط الإقامة والمستوى التعليمي والمستوى الاقتصادي وفقدان الأم على تكوّن صورة المرأة عند الطفل في الكتاب المقبل الذي سنخصصه لعرض النتائج المرتبطة بتكوّن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الطفل.

الجدول رقم ١

تقسيم عناصر العينتين حسب عامل السن

الأعمار	العينة الاستطلاعية	العينة النهائية
٤	٣	١٠٠
٥	٣	١٠٠
٦	٣	١٠٠
٧	٣	١٠٠
٨	٣	١٠٠
٩	٣	١٠٠
١٠	٣	١٠٠
١١	٣	١٠٠
١٢	٣	١٠٠
١٣	٣	١٠٠
١٤	٣	١٠٠
المجموع	٣٣	١١٠٠

انطلاقاً من قراءتنا لمضامين هذا الجدول، يُمكننا أن ندرك بأننا قد حدّدنا عدد أطفال كل عمر بثلاثة بالنسبة للعيّنة الاستطلاعية، وبمئة بالنسبة للعيّنة التي سنطبّق عليها تقنيات الرسم والوصف اللفظي واختيار المؤشرات (العيّنة النهائية). ولقد عملنا على توحيد عدد العناصر التي تضمنتها مختلف الأعمار من أجل ضبط عامل السن بشكل يضمن مساواة الفرص بالنسبة لمختلف الأطفال الذين يتراوح عمرهم بين ٤ و١٤ سنة.

ب ـ عامل المستوى التعليمي:

يعتبر هذا العامل من العوامل الهامة في تكوين شخصية الطفل على المستويين المعرفي والعاطفي. ذلك أن دخول الطفل المدرسة وتعامله مع المناهج والطرق التربوية والتعليمية المختلفة يساعده على اكتساب معرفة متنوّعة ومنظّمة. ولا شك أن تلقي الطفل لدروس متعددة ومتنوعة سيؤثّر في تكوّن صورة المرأة عنده. ذلك أن الكتاب المدرسي يقدم له نصوصاً كثيرة ترتبط بالمرأة عامةً، وبالأم والقريبات خاصةً، كما أن ذلك الكتاب يقدّم له صوراً للمرأة النشيطة وللمرأة الكسولة على السواء. وغالباً ما تقيم تلك النصوص مقارنةً بين نماذج متعددة من النساء بهدف التأثير على الطفل لكي يقتنع بنموذج معيّن فقط، ذلك النموذج الذي يتلاءم ويتسق مع ما تؤمن به الطبقة المسيطرة على الواقع الاجتماعي. وبما أن تعامل الطفل مع مضامين الكتاب المدرسي يؤثّر ـ بشكل أو بآخر ـ في تكوّن صورة المرأة عنده، فإنه أضحى

من اللازم علينا ضبط عامل المستوى التعليمي من خلال اعتمادنا على الجدول التالي:

الجدول رقم ٢

تقسيم عناصر العينتين حسب عامل المستوى التعليمي

المستوى التعليمي	العينة الاستطلاعية	العينة النهائية
المتمدرسون	١٨	٥٥٠
غير المتمدرسين	١٥	٥٥٠
المجموع	٣٣	١١٠٠

يتضح من الأرقام التي يقدمها لنا الجدول رقم ٢ أننا قد حاولنا، قدر الإمكان أن يتساوى عدد الأطفال المتمدرسين بغير المتمدرسين في العينتين معاً، ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا قد وجدنا صعوبة كبيرة في الحصول على أطفال غير متمدرسين في المدن، باعتبار أن معظمهم لم يغادر المدرسة إلا بعد رسوبه على الأقل مرتين في أحد صفوف التعليم الابتدائي. ولذلك، فإننا قد اعتبرنا الأطفال الذين التحقوا بالمدرسة لمدة سنة أو سنتين غير متمدرسين. أما في القرى فإن المسألة لم تطرح علينا بالحدة نفسها. ذلك أننا كنا نعثر بسهولة على أطفال لم يلتحقوا نهائياً بالمدرسة.

ج ـ عامل وسط الإقامة:

قد يكون من نافل القول أن الإنسان يتأثر بالبيئة الاجتماعية التي يعيش في إطارها ويتعامل معها ويستدمج مضامينها الثقافية. وقد يكون من الإطناب أيضاً الإسهاب في عرض عملية التفاعل المستمر بين الإنسان وبيئته الاجتماعية، لأن العديد من الدراسات قد خصّصت تحليلاتها ووجهت مجهوداتها لتناول هذا الموضوع، فتوصلت إلى نتائج مُعترف بها، بحيث أصبح الحديث عن أثر البيئة الاجتماعية في تكوّن شخصية الفرد من المسلمات التي لا تُناقش. لهذا السبب، سنحاول ضبط عامل وسط الإقامة. وبما أن الأطفال المغاربة يقيمون في المدن والقرى والبوادي، فإننا سنختار عناصر عينتنا من تلك الأوساط الاجتماعية. ولكي يتعرّف القارىء على طريقة ضبطنا لعناصر عيّنتنا، نقدّم له الجدول التالي:

الجدول رقم ٣

تقسم عناصر العينتين حسب وسط الإقامة

وسط الإقامة	العينة الاستطلاعية	العينة النهائية
المدينة	١٩	٥٥٠
القرية	١٤	٥٥٠
المجموع	٣٣	١١٠٠

يتبيّن من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٣ أن توزيعنا للأطفال تبعاً لعامل وسط الإقامة يُماثل التوزيع الذي اتبعناه لضبط عامل المستوى التعليمي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا قد اخترنا عناصر عينتنا التي طبقنا عليها تقنيات الرسم والوصف واختيار المؤشرات من أربع مدن هي: فاس ومكناس وتازة والرباط، ومن أربع قرى هي: تاهلة والزراردة (من إقليم تازة) وأمغاس (من إقليم إفران) والواتة (من إقليم صفرو). ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن عدد الأطفال الذين اخترناهم من كل مدينة أو قرية نقدّم له الجدول التالي:

الجدول رقم ٤

توزيع عناصر العينة النهائية تبعاً للمدن والقرى التي يقطنونها

وسط الإقامة	العينة النهائية
فاس	٢٦٤
مكناس	١٠٤
تازة	٩٩
الرباط	٨٣
تاهلة (إقليم تازة)	٢٤٨
الزراردة (إقليم تازة)	١٢٢
الواتة (إقليم صفرو)	٨٤
أمغاس (إقليم إفران)	٩٦
المجموع	١١٠٠

يتضّح من الجدول رقم ٤ أننا قد اقتصرنا على اختيار عيّنتنا من مدن وقرى محدّدة. وهو تحديد حاولنا من خلاله أن نمنح صفة التمثيلية لعيّنتينا. ذلك أن اختيارنا للأطفال من مدن مختلفة وجهات متباينة سيُمكّننا من الكشف عن أثر وسط الإقامة في اختلاف مكوّنات صورة المرأة عندهم. ولا نخفي أننا كنا نرغب في توسيع المجال الجغرافي لعيّنتينا، إلاّ أن إمكانياتنا لم تسمح لنا بذلك. وإننا نأمل أن تظهر بحوث أخرى تهتم بأثر الانتماء الاجتماعي والثقافي في تكون صورة المرأة عند الطفل. ذلك أننا على شبه اقتناع بأن المحتوى العاطفي لصورة المرأة عند الأطفال الذين يقطنون الريف أو الأطلس أو سوس. . . إلخ، ستختلف عن صورتها عند أقرانهم الذين يقيمون في الدار البيضاء أو مراكش أو طنجة أو غيرها من المدن.

د ـ عامل المستوى الاقتصادي:

لا شك أن للعامل الاقتصادي أثراً كبيراً في تكوين شخصية الطفل عامةً، وبنياته الذهنية والعاطفية خاصةً، ذلك أن دخل الأسرة عادة ما يتحكّم في المحيط الاجتماعي والثقافي الذي

يتعامل معه الطفل. فكلما زاد الدخل، زادت الوسائل التعليمية والتربوية، مما يُمكِّن الطفل الذي ينتمي إلى أسرة ميسورة من أن يحتكّ بمجال منظّم بخلاف نظيره الذي يعيش في أسرة فقيرة لا توفر له أدنى الشروط التربوية. ولذلك وجب ضبط هذا العامل لكونه سيفيدنا في تفسير النتائج. ولكي يأخذ المهتمّ فكرة موجزة عن طريقة ضبطنا لذلك العامل، نقدم له الجدول التالي:

الجدول رقم ٥

تقسيم عناصر العينتين حسب المستوى الاقتصادي

المستوى الاقتصادي	العينة الاستطلاعية	العينة النهائية
مرتفع	٥	١٧٦
متوسط	١٠	٣٠٨
منخفض	١٨	٦١٦
المجموع	٣٣	١١٠٠

انطلاقاً من الأرقام التي يقدّمها لنا الجدول رقم ٥، نلاحظ أن الأطفال يتوزعون على مستويات اقتصادية ثلاثة: أطفال ينتمون إلى أسر غنية ويمثلون (١٦٪)، أطفال ينتمون إلى أسر متوسطة الدخل (٢٨٪)، وأطفال ينتمون إلى أسر فقيرة (٥٦٪). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن توزيع الأطفال على الفئات الثلاث السابقة الذكر سيتمّ بناءً على إجاباتهم على سؤالين إثنين، يرتبط أولهما بتحديد دخل الوالدين، ويتعلق ثانيهما بمعرفة مهنتهما[1]. ولا شك أن اعتمادنا على أجوبة الأطفال سيفيدنا في تصنيفهم داخل أسر يتراوح دخلها بين صفر وما يفوق ٨٠٠٠ درهم، باعتبار أن كل أسرة يتراوح دخلها بين صفر و١٥٠٠ درهم تنتمي إلى الفئة المنخفضة؛ وأن كل أسرة يتراوح دخلها بين ١٥٠١ و٨٠٠٠ درهم تنتمي إلى الفئة الوسطى؛ أما الأسرة التي يفوق دخلها ٨٠٠٠ درهم فإنها تنتمي إلى الفئة المرتفعة.

تلك هي أهم العوامل التي سنحاول ضبطها انطلاقاً من طرحنا لأسئلة محدّدة على الطفل نهدف من خلالها التعرّف على سنه ومستواه التعليمي ووسط إقامته ومهنة والديه ودخل أسرته. ولا شك أن ضبطنا لتلك العوامل سيفيدنا في تصنيف بياناتنا من جهة، وفي إعطاء بُعد تفسيري دقيق لنتائج هذه الدراسة. ولا غرو أيضاً أن تحديدنا لتلك العوامل قد تميّز بالتفكك وعدم الانسجام، ذلك أننا قد تناولنا كل عامل بمعزل عن العوامل الأخرى. ومن ثم، أصبح الواجب علينا أن نتجاوز هذا القصور انطلاقاً من خلقنا لتداخل وانسجام بين تلك العوامل. ولا شك أن ما يتضمنه الجدول رقم ٧ من معطيات، يعكس ذلك التداخل ويُعبّر عن نوعٍ من الانسجام:

(١) لم نكن نعتمد على أجوبة الأطفال فقط، بل كنا نعود إلى ملفاتهم الدراسية أو إلى آبائهم لمعرفة مهنة والديهم ودخل أسرهم.

الجدول رقم ٦

تقسيم عناصر العينة التي ستطبق عليها الرسم والوصف اللفظي وتحديد المؤشرات حسب السن والمستوى التعليمي ووسط الإقامة والمستوى الاقتصادي

السن	يقرأون ويكتبون						لا يقرأون ولا يكتبون						المجموع
	مدينة			قرية			مدينة			قرية			
	مرتفع	متوسط	منخفض	مرتفع	متوسط	منخفض	مرتفع	متوسط	منخفض	مرتفع	متوسط	منخفض	
٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
٥	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
٦	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
٧	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
٨	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
٩	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
١٠	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
١١	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
١٢	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
١٣	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	٤	٧	١٤	١٠٠
المجموع	٤٤	٧٧	١٥٤	٤٤	٧٧	١٥٤	٤٤	٧٧	١٥٤	٤٤	٧٧	١٥٤	١١٠٠

إن قراءة الجدول رقم ٦ لا تتطلب صعوبة كبيرة وتقنيات عالية، باعتبار أننا قد تدرجنا في تقسيمنا للعوامل السابقة الذكر من المستوى التعليمي إلى وسط الإقامة فالمستوى الاقتصادي بالإضافة إلى عامل السن. هذا الترتيب الذي يُمكّننا من قراءة الجدول رقم ٦ بطريقتين مختلفتين: إما أن نبدأ من الأعلى إلى الأسفل، أي من أكبر مجموعة إلى أصغرها، أو من الأسفل إلى الأعلى، أي من أصغر وحدة إلى أكبرها. وستقدّم المثال التالي لتوضيح ذلك:

إذا ما بدأنا قراءة الجدول رقم ٦ من الأعلى إلى الأسفل، أمكننا القول بأن هناك ما قدره ٥٥٠ طفلاً يقرأون ويكتبون، منهم من يقطن في المدينة (٢٧٥ طفلاً)، ومنهم من يسكن في القرية (٢٧٥ طفلاً). والأطفال الذين يقيمون في المدينة يتوزعون على فئات اقتصادية ثلاث: مرتفعة وتضم ٤٤ طفلاً، متوسطة وتحتوي على ٧٧ طفلاً، ومنخفضة وتشمل ١٥٤ طفلاً. والإجراءات نفسها يُمكننا اتباعها لقراءة التقسيمات الأخرى.

أما إذا انطلقنا من الأسفل إلى الأعلى، فإن قراءة الجدول رقم ٦ تقتضي منا أن نبدأ من أقصى اليمين حيث توجد خانة تضم ٤٤ طفلاً ينتمون إلى أُسر ذات دخل مرتفع ويقطنون المدينة ويقرأون ويكتبون. وتستدعي قراءة الخانات الأخرى اتباع الإجراءات ذاتها. ولقد اعتمدنا هذه الطريقة لتحقيق الغايتين التاليتين:

- تنحصر الأولى في تمثيل الواقع الاجتماعي بتجلياته وتناقضاته وفئاته المختلفة؛

- أما الثانية، فإنها ترتبط بالطريقة العشوائية الطبقية التي اعتمدناها لضبط عناصر عيّنتنا بشكل دقيق، بحيث إن الجدول رقم ٧ سيُمكّن الباحث من اختيار الأطفال الذين سيمثّلون الواقع الاجتماعي بمختلف تناقضاته. ونعتقد أنها طريقة تتفادى السقوط في عمومية الطريقة العشوائية من جهة، وفي خصوصية الطريقة القصدية من جهة أخرى. ونعتقد أيضاً أن الإجراءات التي اتبعناها في اختيار العيّنة ستُمكّننا من جمع مادة غزيرة ومستفيضة. فما هي الأدوات المنهجية التي سنطبقها لجمع مادة البحث؟

٥ ـ طرق وتقنيات جمع مادة البحث

بعد أن حدّدنا مشكلة بحثنا، وبعد أن طرحنا فرضياتنا وحدّدنا عناصر عيّنتنا، بعد هذا كله سننتقل إلى عرض التقنيات المنهجية التي سنعتمدها لجمع مادة البحث. ولا بد أن نشير منذ البداية إلى أن التقنيات التي سنوظفها في هذا العمل ـ بهدف الكشف عن تكوّن صورة المرأة عند الطفل ـ ستنبثق بالأساس عن تصوّرنا النظري لمشكلة البحث من جهة، وعن كل الخلاصات النظرية التي انتهينا إليها في كتابنا المشار إليه آنفاً من جهة أخرى. ذلك أن التقنيات التي سنوظّفها ستنهل محتواها مما توصلنا إليه في فصول ذلك الكتاب، بحيث إننا سنسأل الطفل عن مواضيع ترتبط بالمكوّنات الجسمية لصورة المرأة بما تحمله تلك المكوّنات من أعضاء وبُنيات جزئية.

ولا غرو أن بناء تقنيات منهجية تراعي خصوصية البنية الجسمية لصورة المرأة ولمختلف مؤشراتها الجسدية سيتطلّب منا بذل مجهود كبير كان من الممكن أن نتخلص منه لو أننا اخترنا

السبيل السهل. ذلك أنه بإمكاننا حتى هذه اللحظة أن نختار مقياساً[١] من المقاييس المشهورة أو تقنية[٢] من التقنيات المعروفة فنطبقها لاستقصاء صورة المرأة عند الطفل في مراحل عمرية مختلفة، ثم نقدّم بعد ذلك تحليلاً وتفسيراً موجزين لأهمّ المعطيات التي نحصل عليها. إلاّ أننا ـ كما أكدنا في مواضع شتى ـ اخترنا الطريق الصعب، وفضّلنا أن نبني أدواتنا رغبةً منا في خلق انسجام وتلاؤم بين ما هو نظري وما هو منهجي وميداني.

واحتراماً منا لطبيعة موضوعنا المركّبة، التي تفرض علينا ألا نقف عند حدود الكشف عن صورة المرأة في مستواها المعرفي فحسب بل وفي مستواها العاطفي والوجداني أيضاً، فإننا لن نكتفي برصد مراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل في بُعدها الجسمي فقط، بل إننا سنحاول، استقبالاً، الكشف عن مختلف مواقفه منها في ميادين اجتماعية متعدّدة تمسّ فعلها وعملها وقولها ونسبها وطرق معاملتها ومختلف صفاتها، إلى غير ذلك من الجوانب التي تكوّن شخصيتها.

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أننا لم نستفد كثيراً من المساهمات التي سبقتنا في هذا المجال، باعتبارها مساهمات اهتمت بقياس الصورة من زوايا تكاد تنحصر في استحضار الصور المقابلة للمثيرات المقدّمة للمبحوث. ذلك أنه بالرغم من التطور الذي شاهدته الأدوات المنهجية منذ ظهور محاولة جالتون سنة ١٨٨٣ حتى محاولات بيفيو Paivio وفريس Fraisse ودونيس Denis في الثمانينات من هذا القرن، فإن معظم تلك المحاولات إن لم نقل كلها قد اهتمت بالكشف عن أنواع الصور أكثر من محتواها. ذلك أن همّنا الأساسي كان ينحصر في تصنيف الأفراد تبعاً للزمن الذي يستغرقه المفحوص في الربط بين المثير اللفظي والصورة المقابلة لها. ويمكن للمهتمّ أن يطلع على مساهمات كل من بينيه Binet وارنست Ernest وموريس Morris وسنجر Singer وسيمبسون Simpson... وغيرهم كثير، ليدرك مختلف الإشكاليات الدقيقة التي أثارتها مختلف البحوث وتمكّنت من الإجابة عليها. ونؤكد هنا على صفة «دقيقة»، لأن هناك بحوثاً تهتمّ بمدى تأثير حركات البؤبؤ في بناء الصورة واستحضارها، بحيث إن مختلف الدراسات[٣] ذات المنحى الفسيولوجي قد توصلت إلى نتائج مهمّة في هذا الميدان. إلا أنه بالرغم من دقة الأدوات المستعملة في الميدان الفسيولوجي،

(١) كان من الممكن أن نطبق مثلاً مقياس بتس Betts المسمى: Q. M. I.، أي: Questionnaire Upon Mental Imagery، أو مقياس بتس الذي قدمه شيهان Sheehan معدلاً سنة ١٩٦٧، أو مقياس روزماري غوردن Rosemary Gordon أو غيرها من المقاييس.

(٢) كان بإمكاننا أن نطبّق اختباريْ ماكوفر أو روزنبرج لرسم الشخص، أو اختبار تكميل الرسم أو رسم العائلة، أو اختبار تفهم الموضوع T. A. T، أو تكملة الجمل لساكست (S. C. T.). وغيرها من التقنيات.

(٣) يُمكن للمهتم أن يرجع إلى الفصلين الرابع والخامس من كتاب دونيس: MICHEL DENIS, *Les Images mentales*, Paris, P. U. F., 1979. ولكي يطلع على أهم المقاييس التي وظفها مختلف العلماء لرصد وقياس الصورة الذهنية.

فإننا لن نوظّفها في هذا العمل لكونها لا تتوافق وطبيعة بحثنا. كما أننا سنتجاوز المقاييس السيكولوجية للسبب نفسه، مما سيفرض علينا بناء أدوات يشترط فيها أن تكون قادرة على رصد شكل ومحتوى صورة المرأة لدى الطفل من جهة، وأن تتلاءم وطبيعة بحثنا المركبة من جهة أخرى. وبما أننا سنفرد عملنا هذا لرصد مكوّنات شكل الصورة أكثر من محتواها، فإننا آثرنا أن نعتمد على ثلاث تقنيات حددناها في: الرسم والوصف اللفظي واختيار المؤشرات. ولكي يتعرّف القارىء على تلك التقنيات وعلى طرق تطبيقها سنقدّمها له واحدةً واحدة:

١ ـ تقنية الرسم:

لا شك أن الرسم قد أصبح من الأنشطة التي يُمارسها الطفل للتعبير عن رغباته وحاجاته وإحساسه بالأشياء والأحداث وتصوّره لها. ولذلك يُمكننا القول منذ البداية إن الرسم بجانب الكلام يُعتبران الوسيلتين اللتين يستعملهما الطفل من أجل التواصل مع الآخر[١]، وبالتالي من أجل الإفصاح عن مخزونه النفسي. ونؤكد هنا على مفهوم «التواصل» لكون الرسم يُعتبر لغة داخلية يستخدمها الطفل للإفصاح «عما يحسّ به أو عما يعرفه ولا يستطيع أو لا يريد التعبير عنه بواسطة الكلام»[٢]. ولذلك، فإن الرسم يُعتبر نشاطاً نفسياً لا يمكن للطفل أن يتخلّى عن ممارسته، خاصةً إذا كُنا نعلم أن ذلك النشاط «يُعتبر عملية تلقائية أصلية في الطفل»[٣]، يزاولها باستمرار في لعبه وحركاته إلى درجة يُمكننا القول معها بأنه «قلائل جداً هم الأطفال الذين لا يرسمون على الأقل حتى عمر ٩ أو ١٠ سنوات»[٤]. ولا مجال هنا للاسترسال في التذكير بأهمية الرسم في حياة الطفل ما دامت مختلف الدراسات السيكولوجية[٥] قد أكدت

---

(١) يقول إنغلهارت Engelhart في كتابه *Dessin et personnalité chez l'enfant*, Paris, C. N. R. S., N°: 52, 1980, p. 13. «إن الرسم الذي ينجزه الطفل هو بالأساس موجّه نحو الآخر. فالطفل ـ من خلال الصور التي يقدّمها لنا للمشاهدة ـ ينقل إلينا محتوى تمثّلاته، إذ يتحوّل الرسم إلى أداة للتواصل».

(٢) SIJELMASSI (M): *Enfants du Maghreb entre hier et aujourd'hui* (s. d.), Soden, p. 97.

(٣) ZAZZO (R): *Traité de psychologie de l'enfant - 6: Les modes d'expression*, Paris, P. U. F., 1976, p. 13.

(٤) *Ibid.*, p. 7.

(٥) يمكننا أن نذكر في هذا المجال الدراسات السيكولوجية التالية:

- AUBIN (H): *Le dessin et l'enfant inadapté*, Toulouse, Privat, 1970.
- ZAZZO (R): «Le geste graphique et la structuration de l'espace-enfance», 1950, (3 - 4), reproduit dans *Conduite et conscience - I*, Delachaux, 1962.
- OSTERRIETH (P. A.): «La psychologie devant l'expression graphique de l'enfant» - *Vers l'éducation*, novembre 1971; «Le dessin dans le diagnistic de la personnalité en psychologie clinique», *Bulletin asso. Int. de psychologie appliquée*, 1975.
- LURCAT (L): «Evolution du graphisme entre quatre et cinq ans: les figurations». *Journal de psychologie normale et patologique*, 1968.
- DEBIENNE (M. C.): *Le dessin chez l'enfant*, Paris, P. U. F., 1968.
- BOUTONNIER (J): *Les dessins d'enfants*, Paris, ed. Scarabée, 1953.

على مكانة الرسم في بناء شخصية الطفل. ولذلك، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى أهمية رسوم الأطفال باعتبارها عملية إسقاطية يلتقي فيها المعرفي بالعاطفي ليشكّلا وحدة متكاملة. فالرسم، في نظرنا، حقل يختلط فيه الحلم بالحقيقة، وتتكشف فيه الرموز، وتتخذ فيه الرغبات تمظهرات متعددة منها ما هو مكشوف ومنها ما هو مقنّع. ونعتقد أن مهمة الباحث تنحصر في الكشف عن تلك الرغبات وقراءة تلك الرموز قراءة متأنية حاذقة. ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن قراءتنا لرسوم الأطفال سترتكز على البُعدين المعرفي والعاطفي، ذلك أننا لن نقف عند حدود ضبط مراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل باعتبارها بنية جسمية تتكوّن من أجزاء متعددة، بل إننا سنتجاوز ذلك لنكشف عن مدى ارتباطه بكل جزء من تلك الأجزاء، وعن مدى توفّقه في خلق انسجام بين الأجزاء لتشكيل صورة متكاملة ذات بُعد جمالي. ولا شك أن رسم الطفل لتلك الصورة سيخضع لشروط وتعليمات[1] يمكننا إيجازها في النقاط الخمس التالية:

١ - نزوّد الطفل بورقة من قياس ١٨×١٢ سم، وبقلم حبر جاف أزرق أو أسود[2] بدل قلم الرصاص.

٢ - نطلب من الطفل رسم المرأة بقولنا له: «هذه ورقة وقلم، ارسم صورة امرأة كيفما شئت». وإذا ما طلب منا الطفل تقديم توضيحات معيّنة، فإننا نساعده في الحدود التي لا نوحي له من خلالها بشكل الصورة أو بجزء من أجزائها.

٣ - إن رسم الطفل للمرأة يجب أن يتمّ في غيابها سواء أكانت حقيقية أم صورة فوتوغرافية، لكوننا نرغب في أن يستحضر الطفل صورة المرأة التي تمثّلها واحتفظ بها في ذاكرته.

٤ - إن تطبيقنا لتقنية الرسم، كما هو الشأن بالنسبة للتقنيات الأخرى، يتمّ بطريقة فردية، حيث إن الطفل ينجز رسمه ويجيب عن الأسئلة التي نوجّهها إليه دون حضور أي فرد آخر.

٥ - إن إنجاز الطفل للرسم غير محدّد زمنياً، ذلك أننا نكتفي بمراقبته أثناء رسمه لصورة المرأة. وحينما نحسّ بأنه قد انتهى من تجسيدها، نطلب منه أن يسلّم لنا الورقة. وإذا طلب منا أن نمنحه وقتاً إضافياً، فإننا لا نرفض ذلك شريطة ألا يتجاوز الحدود المعقولة.

---

(١) بالرغم أننا سنقدّم هنا تلك التعليمات باللغة العربية، فإننا نقدمها للطفل باللغة الدارجة أو البربرية (الأمازيغية).

(٢) لقد فضّلنا أن يستعمل الطفل قلم الحبر الجاف بدل قلم الرصاص لكون استعماله لهذا الأخير غالباً ما يؤدي به إلى التغيير من رسمه، وبالتالي عدم إنهائه. ذلك أننا كنا في البداية قد منحنا عناصر العيّنة الاستطلاعية الورقة وقلم الرصاص، فلاحظنا أن الأغلبية الساحقة منهم يطلبون الممحاة ويغيّرون في رسومهم إلى حدٍ يؤدي ببعضهم إلى تشويه الصورة التي رسموها في البداية. وبعد استعاضتنا عن قلم الرصاص بقلم الحبر الجاف، لاحظنا اقتناع الأغلبية الساحقة منهم بالصورة التي رسموها في البداية. ونعتقد أن الأطفال يربطون بين قلم الرصاص والعمل الأولي القابل للتغيير والتعديل، كما أنهم يربطون بين قلم الحبر الجاف والعمل النهائي الذي لا يُمكن تعديله أو تغييره. وإننا نشير هنا إلى أننا قد فضّلنا عدم استخدام الأطفال للألوان، لكون دراستنا لا تهتم بتحليلها وقراءة ما ترمز إليه مضامينها.

فمن خلال اعتمادنا على هذه الشروط، فإننا قد حصلنا على عدد هائل من الرسوم التي سنحاول تصنيفها وتحليل مضامينها من أجل الخروج بتصوّرٍ واضح لمراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل. وبما أننا سنتطرق في مقدمة الفصل المقبل إلى المعايير التي سنرتكز عليها لترتيب وتصنيف تلك الرسوم، فإننا سننتقل حالاً إلى عرض الإجراءات المنهجية التي اتبعناها لتطبيق تقنية الوصف.

٢ ـ تقنية الوصف اللفظي:

بعد أن ينتهي الطفل من رسم المرأة، نتوجه إليه قائلين: «طيب، بعد رسمك للمرأة أطلب منك أن تذكر لي كل الأعضاء الجسمية التي يتكوّن منها جسدها، وبالخصوص الأعضاء الخارجية التي تظهر للعين». وإذا ما لاحظنا أن الطفل لم يفهم المطلوب، فإننا نساعده باستعمالنا للإشارة أولاً، وذلك بإعادتنا لطرح التعليمات مع إشارتنا لجسمه أو لجسمنا ككل. وإذا لاحظنا بأنه لم يستوعب كلامنا وإشارتنا نساعده بذكر عضو أو عضوين، حيث نقول له: «لاحظ إن جسم المرأة يتكوّن مثلاً من العين» (مع إشارتنا باليد إلى العين)، ثم نشير باليد إلى الفم... فإذا تمكّن الطفل من ذكره، فما علينا إلاّ أن نحثه على الاستمرار في تعداد الأجزاء الأخرى، وذلك بقولنا له بعد ذكره لكل جزء: «وماذا أيضاً؟». ولن نتوقف عن تسجيل إجابات الطفل إلاّ بعد أن نتأكّد من أنه قد ذكر كل الأجزاء التي يعرفها. ولا بد من الإشارة هنا إلى الأمور الأربعة التالية:

ـ أولاً، تقديم بعض التوجيهات والمساعدات التي قد تقدمها للطفل أثناء وصفه لجسم المرأة، ذلك أنه من الممكن أن يذكر أعضاء داخلية مثل «القلب» و«المعدة» و«الكبد» و«الأمعاء»... وهي أعضاء لا نمنحها في بحثنا هذا أية أهمية، باعتبار أننا نهتمّ بالأساس بالبنية الجسمية في شكلها الخارجي الظاهر للعيان. ولذلك، فإذا بدأ الطفل في ذكر تلك الأعضاء، فإن الفاحص يتدخل ليخبره بأنها أعضاء ليس من المفروض عليه أن يذكرها.

ـ ثانياً، إن الضرورة المنهجية تفرض على الباحث أن يسجّل الأعضاء التي يدلي بها الطفل بكل أمانة، بحيث إن إغفال تسجيله لعضو ما سيؤثر مباشرة على النتائج.

ـ ثالثاً، يُمكن للطفل أن يذكر كل الأعضاء حتى الجنسية منها، بل يُمكننا القول بأن على الفاحص أن يحثّه على ذكر كل الأعضاء.

ـ رابعاً، إن تطبيق طريقة الوصف اللفظي لا تتقيد بزمن محدد.

بعد أن أخذنا فكرة موجزة عن طريقة تطبيق تقنية الوصف اللفظي سننتقل إلى عرض طريقة تطبيق تقنية اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى الأطفال.

٣ ـ تقنية اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة:

بعد أن ننتهي من تطبيق تقنيتي الرسم والوصف اللفظي، ننتقل إلى تطبيق تقنية اختيار المؤشرات. وقد يتساءل القارىء عن الهدف من تطبيق هذه التقنية. وهو تساؤل مشروع، لكون كل الدراسات التي اطلعنا عليها قد اكتفت بتطبيق التقنيتين السابقتي الذكر. ذلك أنه من

المعلوم أن الطفل يعبّر عن صورة المرأة إما بواسطة الرسم أو الوصف اللفظي أو بهما معاً. وهو تعبير لا ننكر أهميته، إلا أننا قد لاحظنا أثناء تطبيقنا لهاتين التقنيتين على عناصر العيّنة الاستطلاعية بأن الأطفال ـ بالرغم من رسمهم لصورة المرأة ووصفهم لأجزائها ـ لا يفصحون بكيفية تامة ونهائية عن مكوّنات تلك الصورة أو عن بعدها الجمالي. بحيث إننا كنا نحسّ بعد انتهائنا من تطبيق تقنيتي الرسم والوصف أن الطفل ما زال يضمر شيئاً ما عن المرأة يتوجّب علينا معرفته. مما دفعنا إلى البحث عن صورة المرأة المسكوت عنها، أي تلك التي استحضر الطفل صورتها ولم يتمكّن من الإفصاح عن مكوّناتها قولاً ورسماً.

وبالرغم من أن تلك المكوّنات عديدة ومتنوعة، فإننا قد حصرناها في ثمانية: الوجه، الشعر، العينان، الفم، الأنف، القامة، الهيئة واللون. ولقد اخترنا هذه المكوّنات دون سواها لأن من خلال جمعنا لها، يُمكننا رسم صورة المرأة التي يفضّلها الطفل. ونركّز هنا على فعل «فضّل»، باعتبار أننا سنطرح عدة احتمالات أمام الطفل، فنطلب منه اختيار واحد منها. حيث إننا نقول له: «هل تفضّل الوجه المستدير أم المستطيل أو العريض؟». وبما أن الأشكال التي نعرضها على الطفل ذات أبعاد هندسية، فإننا أثناء قولنا: «الوجه المستدير»، نشير بالإصبع ـ مستعملين وجهنا ـ إلى الشكل الدائري، والأمر نفسه بالنسبة للشكلين المستطيل والعريض[1]. وبعد أن ننتهي من الوجه، ننتقل إلى الشعر، حيث نقول للطفل: «هل تفضل الشعر الطويل أم المتوسط أم القصير؟». وبعد أن يحدد اختياره نسأله: «هل تفضّل الشعر الأسود أم الأشقر؟». وبعد أن يختار لون الشعر نسأله عن العينين قائلين: «هل تفضّل العينين السوداوين أم البُنيتين أم الزرقاوين؟». وبعد أن يختار لون العينين نوجه إليه السؤال التالي: «هل تفضّل العينين الكبيرتين أم المتوسطتين أم الصغيرتين؟». وبعد ذلك نسأله عن الفم قائلين: «هل تفضّل المرأة ذات الفم الكبير أم المتوسط أم الصغير؟». وبعد أن يحدد اختياره نسأله عن الأنف: «هل تفضل المرأة ذات الأنف الكبير أم المتوسط أم الصغير؟». ثم نسأله عن قامتها قائلين: «هل تفضّل المرأة الطويلة أم المتوسطة أم القصيرة؟». ثم نسأله بعد ذلك عن هيئتها: «هل تفضّل المرأة البدينة أم المتوسطة أم النحيفة؟». وفي الأخير نسأله عن لونها: «هل تفضّل المرأة البيضاء أم السمراء أم السوداء؟». ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تطبيقنا لتقنية تحديد المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة عند الأطفال قد مكّننا من الحصول على مادة مستفيضة سنحاول تصنيفها وتحليلها في الفصول الثلاثة المقبلة.

يتضح مما سبق أن رصدنا لتكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة قد تطلّب منا تطبيق تقنيات ثلاث: الرسم والوصف اللفظي واختيار المؤشرات، وهي تقنيات يكمّل بعضها البعض. ذلك أننا من خلال اعتمادنا على الرسم والوصف منحنا الأطفال فرصة التعبير عن

---

(١) لقد كان من الممكن أن نرسم وجوهاً ثلاثة: الأول مستدير، والثاني مستطيل، والثالث عريض، فنقدمها للطفل ليختار واحداً منها. إلاّ أن هذه الإمكانية غير ممكنة، باعتبار أن موضوعنا يفرض علينا أن يعتمد الطفل على ذاكرته وخياله فقط، أي عليه أن يستحضر صورة المرأة المفضّلة لديه دون أن نساعده بأي شكل من الأشكال.

مكوّنات صورة المرأة عندهم. كما أن تطبيقنا لتقنية اختيار المؤشرات قد أفادنا في الكشف عما لم يتضمنه رسم الطفل ووصفه لصورة المرأة. وإننا نعتقد بأن ارتكازنا على التقنيات الثلاث السابقة الذكر سيُمكّننا من استقراء ذاكرة الطفل وخياله، أي استقراء الخلفية المعرفية التي استند عليها للتعبير عن صورة المرأة. ولا شك أن اطلاع القارىء على مضامين الفصول المقبلة سيُمكّنه من إدراك أهمية تلك التقنيات وفعاليتها ومدى قدرتها على رصد مكوّنات صورة المرأة عند الطفل.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تداخل تلك التقنيات وارتباط بعضها بالبعض الآخر قد أفادنا في خلق تكامل منهجي بينها، حيث إننا عملنا على تصميم ورقة واحدة لكل طفل أطلقنا عليها اسم «الورقة الشخصية»، لكونها تضمّ معلومات خاصّة به، كما أنها تحتوي على أجوبته على مختلف بنود التقنيات الثلاث الآنفة الذكر. ولقد حاولنا وضع تلك الورقة بشكل يسهل على الباحث استعمالها وقراءة مضامينها. ولكي يتعرّف المهتم عن محتوياتها، ها نحن نقدمها إليه مفصّلة على الصفحة التالية.

٦ ـ الورقة الشخصية

لقد فضلنا أن نقدّم الورقة الشخصية كما صمّمناها قبل أن نقدّم وصفاً موجزاً لها، باعتبار أن اطلاع القارىء على مضامينها سيُمكّنه من الربط بينها وبين ما سنعرضه فيما بعد.

من خلال قراءتنا لمضامين الورقة الشخصية، نلاحظ أنها تضمّ قسمين:

ـ خصّصنا القسم الأول لجمع معلومات خاصة بالطفل كسنه ووسط إقامته ومستواه التعليمي ودخل أسرته ومهنة والديه... وهي معلومات ترتبط بالعوامل التي ضبطناها أثناء اختيارنا للعينة، ومن ثم فإنها ستفيدنا في فرز وتصنيف وتبويب البيانات بشكل دقيق ومنظّم.

ـ أما القسم الثاني، فإنه يتكوّن من ثلاثة محاور: خصّصنا أولها لتسجيل أجزاء جسم المرأة التي تمكّن الطفل من رسمها، وأفردنا ثانيها لتسجيل الأعضاء التي تمكّن الطفل من وصفها. أما المحور الثالث، فقد خصّصناه لتسجيل المؤشرات الجسمية التي يُفضّل الطفل توفرها في المرأة. ولا بد من القول بأن اعتمادنا على القسمين السابقين قد أفادنا في تحقيق الأمرين التاليين:

ـ يتمثل الأمر الأول في كون تطبيقنا[1] للتقنيات الثلاث السابقة بتوظيفنا للورقة الشخصية قد مكننا ـ بفعل التطبيق المتكرر ـ من حفظ التعليمات والأسئلة الواجب طرحها على الطفل ومن التعود على تسجيل الأجوبة بسرعة.

---

(١) بما أن عينتنا كبيرة (١١٠٠ طفل)، لقد ساعدنا في تطبيق التقنيات السابقة كل من: محمد أفرفار، لحسن أزلماط، عبد الله البخاري، وزوهير أفرفار. وإننا نشكرهم عن المجهود الذي بذلوه من أجل جمع مادة البحث.

- أما الأمر الثاني فينحصر في أن اعتمادنا على الورقة الشخصية قد مكّننا من كسب وقت كبير، ذلك أنه بدل أن نكتب كل ما يفوه به الطفل، كنا نكتفي - أثناء وصفه لجسم المرأة مثلاً - بتسجيل الأعضاء التي يذكرها. ولا بد من الإشارة إلى أن الخطوات والتقنيات المنهجية السابقة الذكر قد مكنتنا من الحصول على مادة مستفيضة أخضعناها للفرز والتبويب والتحليل،

الورقة الشخصية

- الاسم: - وسط الإقامة: - مهنة الأب:
- النسب: - المستوى التعليمي: - مهنة الأم:
- الدخل:

طُرُق استقصاء مكوّنات البنية الجسمية لصورة المرأة:

أ - الرسم		ب - الوصف اللفظي	
١ -	١٦ -	١ -	١٦ -
٢ -	١٧ -	٢ -	١٧ -
٣ -	١٨ -	٣ -	١٨ -
٤ -	١٩ -	٤ -	١٩ -
٥ -	٢٠ -	٥ -	٢٠ -
٦ -	٢١ -	٦ -	٢١ -
٧ -	٢٢ -	٧ -	٢٢ -
٨ -	٢٣ -	٨ -	٢٣ -
٩ -	٢٤ -	٩ -	٢٤ -
١٠ -	٢٥ -	١٠ -	٢٥ -
١١ -	٢٦ -	١١ -	٢٦ -
١٢ -	٢٧ -	١٢ -	٢٧ -
١٣ -	٢٨ -	١٣ -	٢٨ -
١٤ -	٢٩ -	١٤ -	٢٩ -
١٥ -	٣٠ -	١٥ -	٣٠ -

ج - اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة

الوجه	الشعر	العينان	الفم	الأنف	القامة	الهيئة	اللون

الأمر الذي يسّر لنا قراءتها قراءة دقيقة. ولا شك أن السؤال الذي يواجهنا الآن ينحصر في: ما هي الأسس والمعايير التي اعتمدناها في تلك القراءة؟ سؤال سنخصّص النقطة التالية للإجابة عنه.

٧ ـ المعايير المعتمدة في تصنيف وتحليل مادة البحث

لقد تطلّبت منا قراءة المادة التي حصلنا عليها من خلال تطبيقنا لتقنيات الرسم والوصف واختيار المؤشرات الاعتماد على جملة من الإجراءات المنهجية التي سنعمل على اختزالها في النقاط الثلاث التالية:

١ ـ يرتبط الإجراء الأول بالمعايير والمقاييس التي سنتبعها في تحليل وتصنيف المادة التي حصلنا عليها من خلال تطبيقنا لتقنيات الرسم والوصف اللفظي واختيار المؤشرات. وما دمنا قد أكدنا في الجانب النظري من هذا العمل بأننا سنهتمّ بدراسة الصورة الواعية فقط، فإن مقاربتنا لأقوال الأطفال ورسومهم لن تذهب إلى حدّ قراءتها قراءة تحليلية مفصّلة. ذلك أننا لن نفسّر تضخيم الطفل لرأس المرأة مثلاً بأنه «تعبير عن إحباط سببه تأخر عقلي، (. . .) أو قد يكون تعبيراً عن النزعة إلى تعظيم الذات أو عن طموح ذهني»[1]. كما أننا لن نذهب إلى حد القول بأن «للأنف عادة دلالة رمزية جنسية، وهو أبرز بديل قضيبي لأنه، بعد القضيب، العضو الوحيد البارز من الخط الأوسط للجسم ولأنه، مثل القضيب، عضو قاذف»[2]. وما قلناه عن «الرأس» و«الأنف» يمكننا أن نعممه على أعضاء جسم المرأة كلها. فقراءتنا وتفسيرنا لأقوال الأطفال ورسومهم سيرتكزان بالأساس على الجانب المعرفي، باعتباره الجانب الذي يتمثّل الطفل من خلاله الأشياء والأفراد تبعاً لقواعد وعلاقات مكانية محدّدة. وبما أن المادة التي جمعناها من خلال تطبيقنا لتقنيات الوصف والرسم واختيار المؤشرات كثيرة ومتنوعة، فإننا لن نخضعها لمعيار واحد، بل سنراعي في تصنيفنا لها خصوصية المستويات الثلاثة التالية:

- تحليل وتصنيف مادتَيْ الوصف اللفظي والرسم[3].
- تحليل وتصنيف مادة الرسوم الفعلية التي أنجزها الأطفال.
- تحليل وتصنيف مادة اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لديهم.

فيما يخص تحليلنا وتصنيفنا لمادتَيْ المستوى الأول، فإننا سنعتمد على معيارَيْ: الكثافة والتراتبية. ذلك أنه إذا كان معيار الكثافة سيفيدنا في التعرّف عن مدى توفّق الأطفال في وصف المكوّنات الجسمية لصورة المرأة، فإن معيار التراتبية سيُمكّننا من الكشف عن الرتبة

---

(١) د. لويس كامل مليكة: دراسة الشخصية عن طريق الرسم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٦٨، ص ٧٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٣) نعني بالرسم كل الأعضاء التي تمكّن الأطفال من تجسيدها، وهي أعضاء سنقوم بتسجيلها بهدف إجراء مقارنة بينها وبين الأعضاء التي تمكّن الأطفال من وصفها.

التي سيحتلّها كل مكوّن من تلك المكوّنات. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المعيارين الآنفي الذكر متداخلان غير منفصلين، بحيث إن معيار الكثافة سيساعدنا على مقارنة وصف الأطفال لمكوّنات جسم المرأة ورسمهم لها فضلاً عن ترتيب تلك المكوّنات... ذلك الترتيب الذي سنتعرف من خلاله على الأعضاء التي يرتبط بها الطفل أكثر من غيرها، وهو ارتباط لا يمكننا تفسيره إلاّ بالاعتماد على الجانب العاطفي.

أما فيما يتعلّق بالمستوى الثاني، والذي يرتبط بالرسوم التي أنجزها الأطفال، فإننا سنعتمد في تحليلها وتصنيفها على معايير متعددة[1] يُمكننا حصرها فيما يلي:

□ معيار «التجاور» **Voisinage**: ويعني إدراك الطفل لعلاقة التجاور التي تخضع لها مكوّنات جسم المرأة. وهي علاقة ذات مستويين: عمودي وأفقي. ذلك أنه على الطفل أن يرسم الشعر فوق الجبهة، والجبهة فوق العينين، والعينين فوق الأنف... وهكذا حتى ينتهي من تجسيد جسم المرأة.

□ معيار «التمييز والفصل» **Séparation**: ويتحدّد في قدرة الطفل على التمييز بين عضو وآخر.

□ معيار «الترتيب» **Ordre**: وهو يختلف عن معيار التراتبية الذي أوردناه سابقاً، ذلك أننا لن نهتم بالرتبة التي احتلّها كل عضو في وصف الطفل لجسم المرأة أو رسمه له، بل إننا سنهتم بمدى توفّقه في ترتيب الأعضاء عمودياً وأفقياً بشكل صحيح. ويُمكننا القول بأن إدراك الطفل لعلاقتَيْ: التجاور والفصل سيُمكّنه من ترتيب مكوّنات جسم المرأة ومن تجسيدها في رسوم مقبولة.

□ معيار «المحيط» **Entourage/ enveloppement**: ونعني به مدى تمكّن الطفل من ترتيب مكونات جسم المرأة في بنيات جزئية (الرأس، الجذع، الأطراف)، وفي بنية عامة (الجسم ككل).

□ معيار «الحجم»: ونعني به مدى تمكّن الطفل من رسم بنية جسمية تتخذ فيها الأعضاء أحجاماً مقبولة، بحيث يكون الرأس أصغر من الجذع، واليدان أقصر من الرجلين...

□ معيار «الأعضاء المميزة للمرأة»: ونعني به مدى توفّق الطفل في تجسيد الأعضاء الجنسيه للمرأة (الثدي والأعضاء التناسلية). وهو معيار سيُمكّننا من التعرّف على المرحلة التي يتمكّن فيها الطفل من التمييز بين الجنسين، ذلك التمييز الذي نعتبره الأرضية المعرفية التي تُساهم بشكل فعّال في منح دلالة خاصة لصورة المرأة عند الطفل.

أما فيما يخصّ المستوى الثالث، والذي يرتبط باختيار الأطفال للمؤشرات الجسمية

---

(١) إن بياجيه **Piaget** وانهلدر **Inhelder** قد أوردا معايير: التجاور، الفصل، الترتيب والمحيط في كتابيهما: ***La représentation de l'espace chez l'enfant***, op. cit., p.p. 15 - 17.

للمرأة المفضلة لديهم، فإننا سنعتمد في قراءته على معيار واحد هو معيار «التناسق». ونقصد به مدى نجاح الطفل في خلق تناسق وانسجام البنية العامة والبنيات الجزئية والأعضاء المكوِّنة لها، ذلك التناسق الذي يستطيع من خلاله الطفل منح بُعدٍ جمالي لصورة المرأة.

يتضح مما سبق أننا سنصنّف وسنحلّل المادة التي جمعناها من خلال تطبيقنا لتقنيات الرسم والوصف اللفظي واختيار المؤشرات على تسعة معايير تبدأ بالكثافة وتنتهي بالتناسق. وبالرغم من أن معظم الدراسات التي اطلعنا عليها «لا تحلّل الرسم بارتكازها على نسق مرجعي»[1]، فإننا قد آثرنا أن نحدد منذ البداية المعايير السابقة لكي يكون القارىء على علم بالأسس المنهجية التي سنعتمد عليها في تصنيفنا وقراءتنا للمادة التي حصلنا عليها. وهي معايير ستمكننا من التمييز بين الرسم المبهم والواضح، وبين الرسم الكامل والناقص، وبين الرسم المجسِّد للأعضاء الجنسية وغير المجسِّد لها، وبين الرسم ذي البنية المتناسقة المنسجمة والآخر ذي البنية المشوهة غير المنتظمة. فنحن إذاً سنواجه في ثنايا هذا العمل أشكالاً متنوعة من الصور قد لا نستطيع حصرها الآن. ومن ثم، فإنه من الممكن جداً أن نضيف أثناء تحليلنا لأقوال الأطفال ورسومهم معايير أخرى لم نوردها في هذه النقطة.

٢ ـ يرتبط الإجراء الثاني بطبيعة المادة التي جمعناها من خلال تطبيقنا لتقنيات الرسم والوصف واختيار المؤشرات. ونصرح هنا بأنها تقنيات تمكّنّا من خلالها من أخذ فكرة واضحة عن تصور الطفل للبنية الجسمية لصورة المرأة. وهو تصور سيفرض علينا الإجابة على سؤالين دقيقين هما: إلى أي حد يمكن القول بأن هناك تطابقاً بين صورة المرأة التي رسمها الطفل وتلك التي وصفها؟ إلى أي حد يمكن القول بأن هناك تجانساً بين صورة المرأة التي رسمها الطفل أو عبّر عنها وتلك التي يعتبرها النموذج الأفضل والأجمل؟ سؤالان سنحاول الإجابة عنهما في ثنايا هذا العمل.

٣ ـ أما الإجراء الثالث، فإنه يرتبط بتوضيح الطريقة التي اتبعناها في تقسيم الفترة الزمنية الممتدة بين عمر ٤ و١٤ سنة إلى مراحل ثلاث. ذلك التقسيم الذي اعتمدنا في استنتاجه على تصنيف المادة التي جمعناها تبعاً لعامل السن، حيث إننا حددنا مادة كل عمر زمني على حدة، ثم بدأنا في إجراء مقارنات بين مختلف رسوم الأطفال وأوصافهم اللفظية والمؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لديهم. ولا يجب أن يفهم من هذا أن المقارنة كانت بسيطة، بل إنها قد تطلبت منا مجهوداً كبيراً لتصنيف المادة التي حصلنا عليها ودقة متناهية لتحديد الفروق أو التجانسات الموجودة بين مختلف رسوم الأطفال وأقوالهم. وأجدني في هذا الصدد متفقاً مع أوسترِيث Osterrieth حين صرح بأنه من المفروض علينا «أن نعلم ماذا يتوجب علينا ملاحظته حينما تكون الأعمال (أي الرسوم) أمام أعيننا»[2]، ثم أضاف بأنه من الأفضل أن ينظّم الباحث تلك الأعمال «تبعاً لخطة فرز مصممة سلفاً، مع الأخذ بعين الاعتبار مختلف المتغيّرات

---

(١) ENGELHART (D): *Dessin et personnalité chez l'enfant*, op. cit., p. 12.

(٢) GRATIOT - ALPHANDERY (H) & ZAZZO (R): *Traité de psychologie de l'enfant - 6: Les modes d'expressions - le dessin chez l'enfant par Osterrieth*, Paris, P. U. F., 1976, p. 14.

المحتمل ظهورها في الرسوم»[1]. فهذه هي الطريقة المثلى - في نظره - التي تمكّن الباحث من الكشف عن خصائص التجانس الموجودة بين رسم الأطفال ووصفهم اللفظي لجسم المرأة. تلك الخصائص التي تفيد الباحث ذاته في جمع أعمار معينة في مرحلة واحدة، ثم جمع أعمار أخرى في مرحلة أخرى، وهكذا حتى ينتهي من تغطية الفترة التي يود دراستها.

ولا بد أن نعترف هنا بأننا قد اتبعنا الطريقة نفسها، حيث شرعنا بتحديد خصائص رسم الأطفال ووصفهم اللفظي لمكونات جسم المرأة، ثم انتقلنا إلى تحديد مدى ظهور خصائص معينة لدى عمر زمني دون الآخر، وذلك من خلال اعتمادنا على نسب ومتوسطات وتمثيلات بيانية[2]، فانتهينا إلى تحديد المراحل الثلاث[3] التالية:

- المرحلة الأولى: وتمتد من عمر ٤ إلى ٦ سنوات.
- المرحلة الثانية: وتمتد من عمر ٧ إلى ١١ سنة.
- المرحلة الثالثة: وتمتد من عمر ١٢ إلى ١٤ سنة.

فبعد أن حدّدنا المدى الزمني لمراحل تكون البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل، أصبح من اللازم علينا أن نتناول كل واحدة منها بالدراسة والتحليل لكي نتعرّف على خصائصها وطبيعة المكوّنات الجسمية المسيطرة فيها. ولا شك أن إنجاز ذلك سيتطلب منا المرور بالمراحل الثلاث التالية:

١) مرحلة تبلور المكونات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل من ٤ إلى ٦ سنوات؛
٢) مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل من عمر ٧ إلى ١١ سنة؛
٣) مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل من عمر ١٢ إلى ١٤ سنة.

وسيكون ذلك مدار بحثنا في الفصول الثلاثة المقبلة.

---

(١) *Ibid.*, p. 14.

(٢) سنقدّم تلك النتائج حين سنتطرق لدراسة وتحليل نتائج كل مرحلة من مراحل تكون البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل.

(٣) نشير هنا إلى أننا لم نوضّح للقارىء بما فيه الكفاية الأسباب الكامنة وراء تقسيمنا للفترة الممتدة بين عمر ٤ و ١٤ سنة إلى ثلاث مراحل، ولقد أجلنا ذلك التوضيح حتى نهاية هذا الكتاب، لأن إقناع القارىء بصحة تقسيمنا سيتطلّب منا استحضار نتائج ترتبط بتلك المراحل. ولذلك فضّلنا ألا ندافع على سلامة تقسيمنا إلا بعد أن يطلع القارىء على مضامين الفصول اللاحقة.

الفصل الثاني

مرحلة تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل

[من عمر ٤ إلى ٦ سنوات]

تمهيد

بعد أن انتهينا من تحديد مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل، سننتقل إلى تحليل ومناقشة المادة التي ترتبط بالمرحلة الأولى، أي مرحلة تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل. ولا بد من الإشارة منذ البداية إلى أن كلمة «تبلور» لا تدل ـ كما قد يعتقد القارئ ـ على الإرهاصات الأولية لتكوّن الصورة الذهنية عند الطفل سواء أكانت صورة امرأة أو أم أو شيء آخر، باعتبار أننا قد سبق وأن أكدنا في كتابنا علم نفس الصورة: مدخل نظري إلى تكوّن صورة المرأة لدى الطفل، بأن تلك الصورة تتشكل بصفة تكاد تكون كاملة في الشهر الثامن عشر أو على أبعد تقدير في نهاية السنة الثانية من عمر الطفل.

فما نعنيه بكلمة «تبلور» يتحدّد في مدى قدرة الطفل على استحضار صورة المرأة ذهنياً والتعبير عن مكوّناتها إما عن طريق الرسم أو الوصف اللفظي. ولذلك، فإن اهتمامنا لن ينصبّ ـ كما هو الشأن بالنسبة لـ بياجيه وانهلدر وبيفير ودونيس. . . ـ على توضيح طبيعة وأنواع الصور الذهنية، بل إننا سنهتمّ بصورة ذهنية واحدة فقط هي صورة المرأة، كما أننا سنهتم بمدى قدرة الطفل على ترجمة مكوّنات تلك الصورة إلى رسوم وكلام. ولا ينبغي أن يُفهم من توجّهنا هذا أننا سنبتعد نهائياً عن الصورة الداخلية وسنهتم بما هو لفظي وتجسيدي فقط، بل إننا سنأخذ بعين الاعتبار العلاقة التي تجمع بين ما هو معرفي عاطفي وما هو لفظي تجسيدي. واعتمادنا على البُعدين الداخلي والخارجي راجع بالأساس إلى اقتناعنا بأن هناك تأثيراً متبادلاً بينهما، ذلك أن إخفاق الطفل في تجسيد أعضاء جسم المرأة أو وصفها لفظياً يفصح عن قصور في اكتمال صورتها الذهنية لديه. من هنا يتضح أن الفرق الموجود بين توجّهنا وتوجّه بياجيه وتلامذته يكمن في أننا لا نعتبر الصورة الذهنية مجرد استحضار أو مجرد عامل يُساعد الطفل على التعرّف على الأشياء، بل إننا نعتبر الصورة الذهنية بمثابة أرضية معرفية وعاطفية ينبثق عنها رسم الطفل وكلامه. وكل قصور في هذين الأخيرين يعني ضمنياً بأن تلك الأرضية لم تكتمل بعد، إذ كيف يُمكننا القول باكتمالها في السنتين الأوليين من عمر الطفل إذا كنا نعلم أن هذا الأخير لا يتمكن من إدراك الفروق الفسيولوجية بين الجنسين إلاّ في عمر يفوق السنة الثامنة؟

لهذا السبب بالضبط صدّرنا عنوان هذه المرحلة بكلمة «تبلور»، ذلك أنه من خلال اطلاعنا على المادة التي جمعناها تبيّن لنا أن تبلور المكونات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل يتطلّب منه قطع ما لا يقل عن ثلاث سنوات، أي من سن الرابعة إلى السادسة. ولا نعني هنا بالتبلور مدى تعرف الطفل على مختلف أعضاء جسم المرأة فحسب، بل إننا نعني به أيضاً مدى تمثله للعلاقات التي تجمع بين تلك الأعضاء، فضلاً عن قدرته على تجسيد تلك العلاقات في رسوم واضحة.

ولكي ندلّل على صحة قولنا هذا، فإننا سنتناول في ثنايا هذا الفصل الأسئلة الخمسة التالية بالدراسة والتحليل: ما هي المكوّنات الجسمية التي تمكّن أطفال هذه المرحلة من وصفها؟ وما هي المكوّنات الجسمية التي تمكنوا من تجسيدها في رسومهم؟ ما الفرق بين نتائج وصف أطفال هذه المرحلة لصورة المرأة لفظياً ونتائج رسمهم لها؟ ما هي أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة التي جسّدها أطفال هذه المرحلة في رسومهم؟ ثم أخيراً ما هي المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال هذه المرحلة؟ أسئلة خمسة سنحاول الإجابة عنها من خلال تقسيمنا لهذا الفصل إلى النقاط الخمس التالية:

١ ـ المكوّنات الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

٢ ـ المكوّنات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم.

٣ ـ مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم.

٤ ـ أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم.

٥ ـ المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة عند أطفال المرحلة الأولى.

١ ـ المكونات الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي

لا شك أن الإقبال على تحديد المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل يتطلّب منا الاعتماد على رسمه وكلامه، باعتبارهما الوسيلتين التعبيريتين الأكثر قدرة على ترجمة تصوّره لتلك المكوّنات. وبالرغم من أننا قد أوضحنا في الفصل السابق الدوافع الكامنة وراء اعتمادنا على الرسم والوصف اللفظي للكشف عن صورة المرأة عند الطفل، فإننا نعود لنؤكد في هذا المضمار أيضاً على أن تطبيقنا للتقنيتين السابقتي الذكر أمر مقصود، لأنه لا ينبغي أن ننسى، من جهة، «أن الأشياء التي يتمثّلها الطفل ويتعرّف ـ إلى حد ما ـ على خصائصها، هي أشياء التقطتها عيناه»[1]، أو حاسة من حواسه. كما لا ينبغي أن ننسى، من جهة أخرى، أن تلك الأشياء يتم بناؤها وإعادة إنتاجها بواسطة اعتماد الطفل على تصورين: أحدهما معرفي والآخر تنفيذي. ونعني بالأول ما يمكن أن يستحضره الطفل فيتحدّث عنه ويصف أجزاءه؛ أما الثاني،

(١) MEILI - DWORETSKI (G): *L'image de l'homme*, traduction de: H. Santucci, Paris, ed. Delachaux et Niestlé, 1971, p. 9.

فإننا نقصد به مدى قدرة الطفل على تجسيد تلك الأشياء أو الأفراد في رسوم واضحة.

إننا نعتقد بأن هناك فرقاً بين هذين التصوّرين. ومع الأسف، فإن «الفرق بينهما، أي بين المعرفة والإنجاز، لا يسترعي على العموم انتباه»[1] كثير من العلماء. وحتى الذين درسوا ذلك الفرق، أو الذين ميّزوا بين «النموذج الداخلي» Modèle interne[2] والتعبير اللفظي أو التجسيدي، اللذين يترجمان ذلك النموذج عملياً، فإنهم أكدوا نتيجة واحدة تتلخص في أن وصف الطفل للشيء أغنى من رسمه له، فهو «ينتج أقلّ مما يعرف، لكونه يقنع بالتلميح الرمزي الموجز، بالإضافة إلى كونه لا يرسم - نتيجة صعوبات تقنية - إلا ما يقدر على إنجازه بسهولة»[3].

ولذلك أصبح من المسلّم به أن منطوق الطفل أوفر من رسومه، وأن كلامه أغنى من كتابته. ونحن بدورنا نرغب في التحقّق من صحة هذه النتيجة انطلاقاً من كشفنا عن المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل، وذلك من خلال تحليلنا للمادة المرتبطة بالوصف اللفظي والرسم، لننتقل بعد ذلك إلى إجراء مقارنة بين نتائجهما. ولا غرو أن الإقبال على إنجاز هذه الخطوة سيتطلّب منا الإجابة على الأسئلة التالية: ما هي المكوّنات الجسمية التي عبّر عنها الطفل في كلامه؟ وما هي أعضاء جسم المرأة التي برزت في رسومه؟ وهل هناك فرق أو تشابه بين وصف الطفل لتلك الأعضاء أو رسمه لها؟ أسئلة ثلاثة سنحاول الإجابة عنها في سياق هذا الفصل.

بالرغم من أننا قد قدمنا في الفصل السابق الطريقة التي طبّقناها لحثّ الطفل على وصف أعضاء جسم المرأة، ارتأينا أن نذكر هنا أيضاً بأننا كنا نستقبل الأطفال واحداً واحداً، ثم نجري معهم حديثاً أولياً نتعرّف فيه عن أسمائهم وسنّهم وأنشطتهم وأنواع لعبهم، ثم نستدرجهم في الحديث حتى نصل إلى محاورتهم عن المكوّنات الظاهرة من جسم المرأة. ونعني هنا بـ «الظاهرة» ما يُمكن أن يراه الطفل، فنحن لم نسأله عن الأجهزة الجسمية الداخلية كالمعدة والقلب والأمعاء... بل إننا اكتفينا بتسجيل ما يُمكن أن يلاحظه الطفل ويراه بالعين المجردة. ولا نخفي هنا أننا قد حصلنا على مادة مستفيضة صنّفناها وبوّبناها في جداول متعددة، ثم قمنا بعد ذلك بتحليلها إحصائياً، فتوصلنا إلى استخلاص نتائج متنوعة يُمكننا تصنيفها؛ نوعين: يضم أولهما النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية العامة لصورة المرأة عند الطفل؛ ويحتوي ثانيهما على النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية التي تتشكّل من مجموعة من الأعضاء، ونعني بتلك البنيات «الرأس» و«الجذع» و«الأطراف». وتبعاً للتصنيف المشار إليه آنفاً، يتوجب علينا عرض تلك النتائج من خلال اعتمادنا على النقطتين التاليتين:

أ - النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية العامة لصورة المرأة.

---

(١) *Ibid.*

(٢) لقد وُظّف مفهوم Modèle interne من طرف لوكيه في كتابه: LUQUET, *Le dessin enfantin*, Paris, 1927.

(٣) MEILI - DWOROTSKI (G): *L'Image de l'homme*, op. cit., p. 9.

ب ـ النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية المكوّنة لصورة المرأة.

أ ـ النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية العامة لصورة المرأة:

نقصد بالنتائج المرتبطة بالبنية الجسمية العامة لصورة المرأة تلك التي تتعلق بكل مكوّنات جسمها خلال المرحلة الممتدة بين عمر ٤ و٦ سنوات. ولقد أفردنا نقطة مستقلة لعرض تلك النتائج لسببين: يكمن أولهما في إصرارنا على أن يدرك القارىء خصائص هذه المرحلة في شموليتها، وينحصر ثانيهما في أن يتعرّف القارىء ذاته عن الأسباب التي دفعتنا إلى جمع الأعمار ٤ و٥ و٦ سنوات في مرحلة واحدة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا قد حصلنا على تلك النتائج من خلال قيامنا بالإجراءين المنهجيين التاليين:

* يتمثل الإجراء المنهجي الأول في أن تطبيقنا لتقنية الوصف اللفظي على الأطفال قد مكّننا من الحصول على مادة مستفيضة سنكتفي بعرض نماذج ثلاثة منها فقط:

ـ رقم (٥٧)[1]، (أ. ط)[2]، (٤,٣)[3]: «... سأل محمد فاطمة عن أجزاء جسمه فعدّدتها له، إلا أنه عندما سألته عن إجزاء جسمها لم يذكر شيئاً. هل تستطيع مساعدته؟ نعم ـ فممَ يتكوّن جسمها؟ ـ الجسم كله؟ ـ نعم ـ الشعر ـ وماذا أيضاً؟ ـ اليد ـ أذكر كل ما تعرفه ـ الفم، الرجل، اليد ـ وماذا أيضاً؟ (فترة من التفكير) ـ الوجه ـ وماذا أيضاً؟ ـ هذا ما أعرفه...».

ـ رقم (١٤٢)، (ب. م)، (٥,١): «... هل سبق لك أن رأيت امرأة؟ ـ نعم ـ هل جسمها مثل جسمنا؟ (إشارة إلى الجسم) ـ نعم ـ ممّ يتكوّن جسمها؟ ـ من اللحم والعظم ـ أريدك أن تقول لي الأعضاء الظاهرة فقط كالشعر مثلاً، فماذا تعرف أيضاً؟ (إشارة إلى الأنف) ـ أنف ـ وماذا أيضاً؟ ـ الفم ـ أذكر كل الأعضاء التي تعرفها ـ العين، الفم (تكرار)، الأذن، الرأس، الرِجل، (ثم فكّر قليلاً فسكت)، وبالرغم من إلحاحنا على استمراره في الوصف، فإنه لم يضف شيئاً...».

ـ رقم (٢٠٧)، (ز. ح)، (٦,٣): «... هل سبق لك أن رأيت امرأة؟ ـ نعم ـ هل تستطيع أن تذكر لي الأعضاء التي يتكوّن منها جسمها؟ـ نعم ـ اذكرها إذن ـ العين، الأنف، (سكوت) ـ وماذا أيضاً؟ ـ البطن، الوجه، الشعر، الرِجْل ـ وماذا أيضاً؟ـ توقف عن الجواب...».

يتضح مما تضمنته النماذج الثلاثة أعلاه أننا لم نتبع طريقة واحدة في محاورتنا للأطفال،

---

(١) رقم (٥٧) يعني الرقم التسلسلي للطفل، حيث إن تلك الأرقام تنطلق من (١) إلى (١١٠٠)، باعتبار أن كل عمر يضم (١٠٠) طفل.

(٢) (أ. ط)، تشير إلى اسم الطفل ونسبه (كنيته).

(٣) (٤,٣) وتعني عمره، أي أربع سنوات وثلاثة شهور. ونشير هنا إلى أننا سنستخدم الطريقة ذاتها في عرضنا لكل النماذج التي سيضمها الفصلان اللاحقان.

باعتبار أننا لم نعتمد على أسئلة محددة سلفاً، بل اكتفينا بتحديد الهدف الذي نود تحقيقه من مساءلتنا للطفل، ثم استعملنا كل الوسائل الممكنة التي تُوصلنا إلى الكشف عن مكوّنات صورة المرأة عنده. لذلك كان حديثنا مع طفل الأربع سنوات يختلف عن حديثنا مع طفل الخمس سنوات أو مع أطفال الأعمار الأخرى.

* أما الإجراء المنهجي الثاني، فإنه يرتبط بقراءتنا لما أدلى به كل طفل وبتصنيفنا للأعضاء التي تمكّن من ذكرها، ثم بترتيبنا لتلك الأعضاء في جداول دقيقة. ولقد مكّننا هذا الإجراء من الحصول على ٢١ عضواً من أعضاء جسم المرأة رتبناها تبعاً لمحاور ثلاثة: «الرأس»، «الجذع» و«الأطراف». ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن النتائج العامة التي حصلنا عليها نقدّم له الجدول الجامع رقم ٩ على الصفحة التالية.

يتضح من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٧ أننا قد قسّمنا المكونات الجسمية لصورة المرأة إلى بنيات جزئية ثلاث:

- الرأس[1] ويضم: الشعر، الوجه، الحاجبان، العينان، الأنف، الفم، اللسان والأذن.
- الجذع ويحتوي على: العنق، الصدر، الثدي، الظهر والأعضاء التناسلية.
- الأطراف وتشمل: الكتف، اليد، الأصابع، الساق، الركبة، والرِجْل.

من خلال اطلاع القارىء على مضامين البنيات الجزئية المذكورة، سيلاحظ أن ترتيبنا للأعضاء التي تتكوّن منها تلك البنيات لم يكن عفوياً، بل إنه صادر عن تصوّر معيّن لصورة جسم المرأة، ذلك أننا بدأنا في ترتيب تلك البنيات من أعلى (الرأس) إلى أسفل (الأطراف)، كما أننا اتبعنا الترتيب نفسه في تحديدنا للأعضاء المختلفة، حيث إننا مثلاً لم نذكر العينين قبل الحاجبين والفم قبل الأنف والصدر قبل العنق... ولقد كان هدفنا من هذا الترتيب ينحصر في معرفة مدى قدرة الطفل على استحضار صورة المرأة، وتعداد أعضاء جسمها تبعاً لترتيب محدّدٍ.

ويمكننا أن نؤكد في هذا المجال على أن أطفال هذه المرحلة العمرية لم يحترموا ذلك الترتيب، بحيث إن هناك من ذكر عضواً في الرأس ثم انتقل إلى الأطراف ومنها إلى الرأس ثم الجذع، ثم عاد مرة ثانية إلى الرأس، وهكذا حتى توقف عن الوصف. ولا شك أن انتقال أطفال هذه المرحلة من وصف أعضاء بنية جزئية إلى وصف أعضاء بنية جزئية أخرى قد تم بكيفية عشوائية وغير منظّمة، مما يدلّ على أن صورة المرأة لم تكتمل عندهم بعد، بحيث إنهم لم يتمكنوا من وصف مكوناتها تبعاً لنظام خاضع لمقاييس منطقية واضحة. غير أنه بالرغم من ذلك، فإن قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٧ قد مكّننا من تسجيل الاستنتاجين التاليين:

- الاستنتاج الأول: ويتمثّل في التجانس الذي طبع مختلف النتائج التي حصل عليها

---

(١) إن استعمالنا لكلمة «رأس» يعني ضمنياً «الوجه»، باعتبار أن أغلبية الأطفال قد استعملوهما للتعبير عن المنطقة الجسمية نفسها التي تقع بين «الشعر» و«العنق».

الجدول رقم ٧

النتائج العامة المرتبطة بالمكونات الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي

الأعضاء العامة	الرأس										الجذع							الأطراف							
مكونات الجسم / الأعمار	رأس	شعر	وجه	حاجب	عين	أنف	فم	لسان	أذن	المجموع	عنق	صدر	ثدي	بطن	ظهر	ع. جنسية	المجموع	كتف	يد	أصابع	ساق	ركبة	رجل	المجموع	المجموع العام
٤	٥٤	٤٣	٤٥	٠	٥٨	٥٤	٦٠	٠	٤٦	٣٦٠	٢	٢	٠	١٩	٣	٠	٢٦	٢	٥٨	٤	٠	٠	٦٨	١٣٢	٥١٨
٥	٥٩	٤٢	٤٧	١	٥٧	٥٨	٦١	٣	٤٥	٣٧٣	٤	٠	٥	١٧	٣	١	٣٠	٠	٦٧	٤	٠	١	٦٦	١٣٨	٥٤١
٦	٦١	٤٨	٤٦	٢	٦٢	٦١	٥٩	١	٤٣	٣٨٤	٤	١	٤	٢١	٥	٢	٣٧	٢	٧١	٨	١	٠	٦٩	١٥١	٥٧٢
المجموع	١٧٤	١٣٣	١٣٨	٤	١٧٧	١٧٣	١٨٠	٤	١٣٤	١,١١٧	١٠	٢	٩	٥٧	١١	٣	٩٣	٤	١٩٦	١٦	١	١	٢٠٣	٤٢١	١,٦٣١
النسب المئوية										٪٦٨,٥							٪٥,٧							٪٢٥,٨	٪١٠٠

أطفال هذه المرحلة. فبالرغم من بعض الاختلافات والفروق الطفيفة - التي سنفصّل القول فيها أثناء تطرقنا للنتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية - فإن معظم النتائج التي حصلت عليها الأعضاء المكوّنة لجسم المرأة متقاربة. فإذا نحن أخذنا نتائج «الشعر» مثلاً، سنجدها تتراوح بين ٤٣ لدى أطفال سنّ الرابعة، و٤٨ لدى أطفال سنّ السادسة. وبالمثل فإن نتائج «الوجه» (٤٥ - ٤٧ - ٤٦)، و«العين» (٥٨ - ٥٧ - ٦٢) تعبّر عن التقارب نفسه، مما دفعنا إلى الجمع بين الأعمار ٤ - ٥ - ٦ سنوات في مرحلة واحدة.

- الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالوصف اللفظي المستفيض الذي حظيت به بعض الأعضاء دون الأخرى، حيث إن «الرأس» و«الشعر» و«الوجه» و«العينين» و«الأنف» و«الأذنين» و«اليدين» و«الرجلين» قد برزت في كلام الأطفال أثناء وصفهم لجسم المرأة بشكل مقبول ومرضٍ. ونعتقد أن استحواذ هذه الأعضاء على نتائج مرتفعة ليس وليد الصدفة، بل راجع إلى دوافع وأسباب نفسية سنتعرض لها بنوع من التفصيل في ثنايا النقاط المقبلة. ولا شك أنه بعد تقديمنا للنتائج العامة المرتبطة بالمكوّنات الجسمية لصورة المرأة، يحقّ لنا أن ننتقل إلى عرض النتائج المرتبطة بكل بنية من البنيات الجزئية الثلاث السابقة الذكر لندرك عن قرب الخصائص التي تتميّز بها هذه المرحلة.

ب - النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية المكونة لصورة المرأة:

بعد أن أشرنا في النقطة السابقة إلى الأسباب الكامنة وراء جمعنا بين الأعمار ٤ - ٥ - ٦ سنوات في مرحلة واحدة، وبعد أن سجلنا الاستنتاجين السالفين، سننتقل في هذه النقطة إلى تقديم النتائج المتعلقة بالبنيات الجزئية التي تتشكّل منها صورة المرأة من خلال اعتمادنا على النقاط الثلاث التالية:

١ - النتائج المرتبطة بالرأس.

٢ - النتائج المرتبطة بالجذع.

٣ - النتائج المرتبطة بالأطراف.

١ - النتائج المرتبطة بالرأس:

تقول دوورتسكي Dworetski: «... على العموم كلما تعلّق الأمر بالعلاقات بين الأفراد، فإن الوجه يحتلّ المكانة والقيمة الأولى»[1]، باعتباره الجزء الذي يتمّ عبره التواصل مع الآخرين والإشباع والرؤية والشم والذوق. ومن هنا، فإنه الجزء الذي يفرض حضوره في كل تمثّل محتمل. ولا شك أن أهميته هذه قد دفعت بكثير من العلماء إلى دراسة تأثير الوجه على الصورة التي يكوّنها الطفل عن نفسه[2] وعن الآخر. وما دام هذا الآخر هو المرأة، فإننا

---

(١) MEILI - DWORETSKI (G): *L'Image de l'homme*, op. cit., p: 39.

(٢) نشير هنا بالخصوص إلى ما أورده شلايدر في كتابه: SCHLIDER (P.) *L'Image du corps*, Traduit de l'anglais par F. Ganthert et P. Truffert, Paris, Gallimard, 1968, p.p. 104 - 105.

قد خصصنا للرأس (الوجه) نقطة مستقلة بذاتها، بحيث إننا قد جمعنا المادة المتعلقة به فصنفناها وبوبناها فحصلنا على النتائج التي قدمناها في الجدول رقم ٧، وهي نتائج تمكّنا من خلال قراءتنا لها تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويتمثّل في أن معظم مكونات «رأس» المرأة قد حظيت باختيارات لا بأس بها ما عدا «الحاجب» و«اللسان». وهو استنتاج، وإنْ كان يبدو بسيطاً، فإنه يحمل دلالة عميقة. ذلك أن «الرأس» أو ما يمكن أن نسميه بـ«الوجه» يشكّل بالنسبة للطفل عضواً ذا أهمية خاصة. فهو العضو الأكثر توظيفاً للتواصل مع الآخر[1]، وعن طريقه يتعرّف الطفل عن الأفراد ويميّز بينهم، وعن طريقه أيضاً يستقبل كلام أمه وضحكاتها وتعبيراتها المختلفة، بحيث يُمكننا القول بأن «الوجه» يمثّل العضو الأول الذي يتمّ من خلاله اتصال الطفل بالعالم، فبواسطته يتمّ التفاعل المتبادل بينه وبين أمه[2]. ولذلك فلن نجازف إذا نحن أكدنا في هذا الصدد على أن أول عضو يتعرّف عليه الرضيع ويتمثّله ويتمكّن من استحضاره هو وجه أمه. ومن ثم، فإنه يُعتبر مركز «الأنا» و«الأنت»[3] ومستودع المعرفة. فلهذه الأسباب التي اقتصرنا على ذكر بعضها حصلت معظم الأعضاء المكوّنة للوجه (العينان، الأنف، الفم، الأذن، الشعر...) على نتائج مقبولة ومشجعة.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ويتعلق بإخفاق أطفال هذه المرحلة في ذكر بعض أعضاء وجه المرأة، بحيث إن معظمهم قد اكتفى بذكر أعضاء مثل «العينين» و«الأنف» و«الفم» دون ذكر أجزاء أخرى كـ«الأشفار» (الرموش) و«الخدين» و«الشفتين» و«الذقن». ولا شك أن إغفال وصف مثل هذه الأجزاء يحمل دلالة عميقة، خاصةً إذا كنا نعلم بأنها تمثّل الأجزاء التي تساهم بقسط وفير في تمييز الرجل عن المرأة. أليست «الخدود» و«الشفاه» و«الأشفار» من المكوّنات الجسمية الأساسية التي تعتمد عليها المرأة لإبراز جمالها وأنوثتها؟ فلماذا لم يصفها طفل هذه المرحلة إذن؟

إننا نعتقد بأن الجواب على السؤال الأخير يفرض علينا الاعتماد على مسألتي الاختزال والتكثيف، ذلك أن ذكر الطفل للعينين، مثلاً، يوهمه بأنه قد أحاط بكل أجزائها، كما أن ذكره للفم يوهمه بأنه قد قام بتعداد مكوّناته. والأمر نفسه بالنسبة للأجزاء الأخرى، بل إن هناك من الأطفال وعددهم سبعة ـ أربعة منهم في عمر الرابعة وإثنان في الخامسة وواحد في السادسة ـ من اكتفى بذكر «الوجه» و«الرأس» و«الرِجْل» فقط، بالرغم من إلحاحنا الكبير على

---

(١) يقول ابراهام في كتابه: ABRAHAM (A.): *Les identifications de l'enfant à travers son dessin*, Toulouse, Privat, 1976, p. 177: «إن التواصل الإنساني هو بالأساس تواصل وجه بوجه».

(٢) يمكن الرجوع إلى كتاب سبيتز: SPITZ (A): *Les premières années de la vie de l'enfant*, Paris, P. U. F., 1958, p. p. 25-26 et p. p. 39-48. للاطلاع على العَلاقات الأولى التي تتم بين الرضيع وأمه.

(٣) لقد قام كلاباريد بتطبيق استمارة على مجموعة من الأطفال سألهم فيها عن تحديد مركز «الأنا»، فأجاب معظمهم بأنها تتمركز فوق العينين وفي وسط الجبهة. ويمكن الرجوع إلى مقالته التالية للاطلاع على تجربته: CLAPAREDE, «Note sur la localisation du Moi», *Archive psycho.*, 1924, XIX, p. 172.

استمرارهم في تعداد أعضاء جسم المرأة. كما أن هناك عدداً لا يُستهان به من الأطفال (١٦٢ طفلاً) لم يذكروا الوجه بالرغم من كونه العضو الجامع لأجزاء متعددة كالشعر والعينين والفم... مما يدفعنا إلى القول بأن الأطفال قد وصفوا جسم المرأة دون اعتمادهم على «بنية عامة» تتداخل فيها الأجزاء لتكوّن نسيجاً منظّماً واضحاً. وتأكيدنا على غياب «البنية العامة» يعني ضمنياً أن الصدفة التلقائية هي التي تحكّمت في وصف الأطفال لصورة المرأة، مما أدّى إلى غياب التنسيق بين الأرضية والشكل، وبين العام والخاص.

ـ **الاستنتاج الثالث:** ويرتبط بالمكانة التي احتلها كل جزء من أجزاء وجه المرأة. ولقد حاولنا إبراز تلك المكانة من خلال ترتيبنا لتلك الأجزاء تبعاً لعدد ظهورها في كلام الأطفال. والجدول التالي يعرض ذلك الترتيب:

الجدول رقم ٨

ترتيب أجزاء وجه المرأة لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
أجزاء الوجه / العمر	الفم	العين	الرأس	الأنف	الأذن	الوجه	الشعر	الحاجب	اللسان
٤	٦٠	٥٨	٥٤	٥٤	٤٦	٤٥	٤٣	٠	٠
أجزاء الوجه / العمر	الفم	الرأس	الأنف	العين	الوجه	الأذن	الشعر	اللسان	الحاجب
٥	٦١	٥٩	٥٨	٥٧	٤٧	٤٥	٤٢	٣	١
أجزاء الوجه / العمر	العين	الرأس	الأنف	الفم	الشعر	الوجه	الأذن	الحاجب	اللسان
٦	٦٢	٦١	٦١	٥٩	٤٨	٤٦	٤٣	٣	١

يتبيّن من الجدول رقم ٨ أعلاه أن هناك اختلافاً في الأهمية التي منحها أطفال كل عمر لكل جزء من أجزاء وجه المرأة. وهو اختلاف، وإن كان طفيفاً على المستوى الكمي، فإنه يعكس تطوراً تكوينياً ذا دلالة معرفية وعاطفية بارزة. ولا شك أن الكشف عن تلك الدلالة قد يتطلّب منا القيام ببحث مستقلّ بذاته، ولذلك سنكتفي بالقول بأن الترتيب الذي حصلنا عليه يزكّي اعتقادنا السابق الذي أكّدنا فيه على أن وصف أطفال هذه المرحلة لمكوّنات جسم المرأة قد تميّز بالعشوائية والصدفة، بدليل أن معظمهم لم يستحضر صورة الوجه أولاً لينتقل بعد ذلك إلى تعداد مكوّناته، أي أنه كان عليهم أن يشرعوا بذكر «الوجه» و«الرأس» قبل ذكر «الشعر» و«الحاجبين» و«العينين»... وغيرها من المكوّنات. إلا أن حكمنا على وصف طفل

هذه المرحلة لمكوّنات وجه المرأة بالعشوائية والصدفة لا يعني عدم وجود نظام فرض عليه ذكر بعض المكوّنات دون الأخرى. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الكشف عن ذلك النظام يستلزم منا الانتقال من الحكم على أقوال الطفل باعتمادنا على جانبه المعرفي إلى الحكم على الأقوال نفسها بارتكازنا على جانبه العاطفي. فبواسطة هذا الانتقال يتحوّل الوصف العشوائي إلى وصف موجّه، واللانظام إلى نظام واللامعنى إلى معنى، أي أن النسيج المنطقي الذي كان من المفروض أن يربط بين الأجزاء الجسمية التي ذكرها الطفل سيظهر وسيطفو على السطح.

وتبعاً لذلك، يُمكننا القول بأن انتقال طفل سنّ الرابعة عند وصفه لوجه المرأة من «الفم» إلى «العينين» إلى «الرأس» إلى «الأنف» فـ«الوجه»... يحمل معنى ودلالة يتوجب علينا إبرازهما. فيكفي أن نقول بأن «الفم» ليس مجرد عضو في «الوجه»، بل وسيلة للإشباع والتواصل، وأن «العين» وسيلة للرؤية وتوجيه الحركة، و«الرأس» مركز للأنا، و«الأنف» و«الأذن» وسيلتان لاستقبال المثيرات، والوجه وسيلة للتعبير... لنلاحظ نسقية التحليل الذي يقوم على الأرضية العاطفية. واستمراراً في هذا المستوى من التحليل، يُمكننا القول بأن احتلال «الفم» للرتبة الأولى لدى أطفال سنّ الرابعة والخامسة لا يرجع إلى غياب «البنية العامة» للوجه بقدر ما يرجع إلى تثبيت وقع على منطقة شبقية كانت تكتسي أهمية قصوى في إشباع رغباتهم وتفريغ طاقاتهم الجنسية. وتبعاً لهذا المنظور، فإن جمعنا للأعمار ٤ ـ ٥ ـ ٦ سنوات في مرحلة واحدة من الناحية المعرفية لا يعني أبداً بأن الفروق بين تلك الأعمار منعدمة، إذ يكفي أن نشير إلى أن «الفم» الذي احتل الرتبة الأولى لدى أطفال سنّ الرابعة والخامسة قد احتل الرتبة الرابعة لدى أطفال سنّ السادسة، ليدرك القارىء الفروق الموجودة بين وصف أطفال هذه المرحلة لوجه المرأة. ولا بد أن يكون القارىء ذاته على علم بأن التفسير الذي سنرتكز عليه في هذا الباب ـ لكي نحافظ على توجهنا العام الذي يجمع بين الاتجاهين المعرفي والتحليلي ـ ينحصر في المصادرة التالية: كلما احتلّ «الوجه» أو «الرأس» الرتبة الأولى قلنا بأن البنية العامة قد تشكّلت وأن صورة الوجه قد اكتملت، وكلما احتلّت أجزاء الوجه صدارة الترتيب فسّرنا ذلك بالاعتماد على الجانب العاطفي. فالاختلاف إذن ينحصر في أسبقية الكلّ على الأجزاء أو أولوية الأجزاء على الكل. ولا شك أنه بعد أن أخذنا نظرة موجزة عن صورة وجه المرأة عند أطفال هذه المرحلة، سننتقل إلى عرض صورة جذعها عندهم.

٢ ـ النتائج المرتبطة بالجذع:

بعد أن تعرّفنا على أجزاء وجه المرأة لدى أطفال المرحلة الأولى، سننتقل في هذه النقطة إلى عرض النتائج المرتبطة بأجزاء جذعها. ولقد خصصنا نقطة مستقلة بذاتها للجذع باعتباره يمثّل إحدى البنيات الجزئية التي تُساهم بشكل كبير في تشكيل صورة المرأة. وبالرغم من كونها بنية لا يبلور الطفل مكوّناتها إلا في عمر متقدم، فإنه يمكننا أن نسجل وقفة قصيرة لتقديم أهم الاستنتاجات التي استخلصناها من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٧.

ـ الاستنتاج الأول: ويتمثّل في هزالة وضعف النتائج التي حصلت عليها أجزاء جذع

المرأة، بحيث إن معظم تلك الأجزاء قد تراوحت نتائجها بين ١ و٥ ما عدا «البطن» الذي تكرّر في وصف الأطفال للجذع (١٩ مرة بالنسبة للأطفال في عمر الرابعة و١٧ مرة بالنسبة للأطفال في عمر الخامسة و١١ مرة بالنسبة للأطفال في عمر السادسة). ولا شك أن مختلف الأرقام التي تضمنها الجدول رقم ٧ تعبّر بوضوح عن عدم تبلور صورة جذع المرأة لدى أطفال هذه المرحلة العمرية بصفة ناضجة وتامة. ونعتقد أن ذلك لا يرجع إلى بُعدَيْ الاختزال والتكثيف اللذين اعتمدنا عليهما لتفسير النتائج المرتبطة بالوجه، كما أنه لا يرجع إلى ارتكاز طفل هذه المرحلة ـ في وصفه للجذع ـ على الأجزاء بدل البنية العامة، بل إننا نعتقد بأن عدم حصول الجذع على نتائج مرتفعة راجع إلى أحد الاحتمالين التاليين:

* إما أن الأطفال قد تمثّلوا أجزاء جذع المرأة ولم يتمكنوا من استحضارها ووصفها لفظياً بشكل دقيق ومفصل، باعتبار أننا قد طلبنا منهم وصف جسم المرأة كاملاً، ذلك الطلب الذي أدى بهم ـ فيما نعتقد ـ إلى منح الأولوية لأجزاء الوجه والأطراف على أجزاء الجذع.

* وإما أن معظم الأطفال لم يتمثّلوا بعد هذه المنطقة من جسم المرأة، مما حال دون وصفهم لها.

ولا ننكر في هذا المجال أننا نميل إلى تأييد الاحتمال الأول، باعتبار أننا قد أجرينا حواراً مع بعض أطفال هذه المرحلة فحصلنا على مادة سنقدم للقارىء ثلاثة نماذج منها فقط:

ـ النموذج الأول: رقم (٩٣)، (أ. ع)، (٤,٧): «... لقد ذكرت في وصفك لجسم المرأة: الشعر، الوجه، اليد، الفم والرِجْل فقط، فكيف يسمى هذا العضو؟ (إشارة إلى الصدر) ـ الصدر ـ وكيف يسمى هذا؟ (إشارة إلى البطن) ـ البطن ـ هل هناك شيء آخر هنا؟ (إشارة إلى الصدر) ـ لا ـ هل أنت متأكد؟ـ سكوت....».

ـ النموذج الثاني: رقم (١٨٤)، (ع. م)، (٥,٢): «... ذكرت البطن ـ نعم ـ ما هي الأعضاء الموجودة بين الرأس والرجلين؟ ـ البطن (تكرار) ـ هل البطن فقط؟ـ لا ـ وماذا إذن؟ـ الثدي ـ وماذا أيضاً؟ـ لا أعرف...».

ـ النموذج الثالث: رقم (٢٦٣)، (خ. ع)، (٦,٥): «... ذكرت الظهر والبطن ـ نعم ـ ماذا يوجد بين العنق والرجلين؟ـ البطن (تكرار) والصدر ـ هل هناك عضو آخر؟ـ لا ـ....».

من خلال هذه النماذج ـ وغيرها كثير ـ تبين لنا أن الأطفال يعرفون بعض أعضاء الجذع كـ«الصدر» و«البطن» و«الظهر»، إلا أنهم يتحاشون ذكرها، لأنهم أثناء استحضارهم لصورة المرأة كاملةً يهتمّون بالوجه والأطراف أكثر من اهتمامهم بالجذع. ولذلك نميل إلى القول بأن معظم أطفال هذه المرحلة يعرفون مكوّنات جذع المرأة ولكنهم لم يتمكّنوا من ذكرها. ونعتقد أن السبب كامن في أن الجذع يعتبر المنطقة التي تحتضن أعضاء تجسّد المحرم: «الثدي» و«السرة»، و«الأعضاء التناسلية».

ـ الاستنتاج الثاني: وينحصر في غياب بعض أجزاء الجذع من وصف معظم أطفال هذه

المرحلة لجسم المرأة، بحيث إن «الصدر» مثلاً لم يتمّ ذكره من جانب أطفال سنّ الخامسة، كما أن «الثدي» و«الأعضاء التناسلية» لم تبرز في كلام أطفال سنّ الرابعة، وحتى الأعضاء الأخرى مثل «الظهر» و«العنق» و«الصدر» لم تظهر إلاّ بشكل ضئيل. وبالرغم من أن النتائج التي حصلنا عليها تفصح عن أن أطفال هذه المرحلة قد تمكنوا من تعداد كل الأجزاء التي يتكوّن منها الجذع، فإن تلك النتائج هزيلة جداً، مما يزكّي قولنا السابق بأن هذه المنطقة من جسم المرأة لم تحظَ بأهمية بالغة لدى أطفال هذه المرحلة العمرية.

ـ **الاستنتاج الثالث:** ويرتبط بالمكانة التي يحتلها كل جزء من أجزاء الجذع، وهي مكانة يُمكننا الكشف عنها باعتمادنا على مضامين الجدول التالي:

الجدول رقم ٩

ترتيب أجزاء الجذع لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦
أجزاء الجذع / العمر	بطن	ظهر	عنق	صدر	ثدي	أعضاء تناسلية
٤	١٩	٣	٢	٢	٠	٠
أجزاء الجذع / العمر	بطن	ثدي	عنق	ظهر	أعضاء تناسلية	صدر
٥	١٧	٥	٤	٣	١	٠
أجزاء الجذع / العمر	بطن	ظهر	ثدي	عنق	أعضاء تناسلية	صدر
٦	٢١	٥	٤	٤	٢	١

يتضح من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٩ أن الأعضاء التي يتكوّن منها الجذع لم تحظ بالترتيب نفسه لدى مختلف أطفال هذه المرحلة. فباستثناء «البطن» الذي احتل الرتبة الأولى، فإن الأعضاء الأخرى قد اختلف ترتيبها من عمرٍ لآخر. ولا شك أن إيجاد تفسير مقنع لذلك الاختلاف يستدعي منا إجراء حوارات مستفيضة ومتكررة مع الأطفال. ولذلك، فإننا لا نخفي هنا بأننا لن نتمكّن من تقديم الأرضية المنطقية[1] التي كانت وراء اختلاف ترتيب أجزاء الجذع من عمر لآخر. غير أنه مع ذلك فإن قراءتنا للنتائج التي تضمنها الجدول رقم ٩ قد انتهت

(١) سنقدم تلك الأرضية المنطقية في خاتمة هذا العمل، أي بعد تحليل وتفسير كل النتائج المرتبطة بتكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الأطفال.

بنا إلى تسجيل الملاحظات الثلاث التالية:

تنحصر أولاها في عدم احتلال «الثدي» لرتبة متقدمة، وبخاصة لدى أطفال سن الرابعة. ونركز هنا على «الثدي» لكونه كان يمثّل - بالنسبة لهم - إلى عهد قريب المصدر الأساسي للإشباع، ومن ثم كان من المفروض أن يقيم ذلك الإشباع علاقة صميمية بين «الثدي» و«الفم». ولقد كنا نعتقد بأن احتلال «الفم» للرتبة الأولى[1] لدى أطفال سنّ الرابعة سيستتبع بالضرورة احتلال «الثدي» للرتبة الثانية، إلاّ أن اعتقادنا هذا لم يتحقق لأن «البطن» هو الذي احتلّ الصدارة لدى أطفال هذه المرحلة. فهل ذلك يعني أن «البطن» رمز لـ«الثدي» أو اختزال له باعتباره مستودع الإشباعات؟ أم أن الطفل قد اتخذ موقفاً عاطفياً معيّناً من «الثدي» بحكم المعاناة التي فرضها عليه الفطام؟[2]. الحقيقة أننا لا نستبعد صحة الاحتمالين معاً، باعتبار أنه ليس من المعقول أن يغيب «الثدي» من وصف الأطفال لجسم المرأة بدون وجود سبب أو أسباب معيّنة. ونعتقد أنه بإمكاننا الكشف عن ذلك السبب أو الأسباب من خلال جمعنا بين الاحتمالين الآنفي الذكر، إذ من حقنا أن نذهب إلى حد القول بأن عملية الفطام تمثل في نهاية التحليل فصم العلاقة التي تربط بين «الثدي» و«الفم» و«البطن»، أي إلغاء المعنى الذي كان يعطيه الطفل لـ«الثدي» وكبت الرمز الذي كان يمثله لديه. ولا غرو أن اختفاء ذلك المعنى وذلك الرمز قد أدى بالطفل إلى البحث عن منح معنى آخر لـ«الثدي»، ذلك المعنى الذي تُساهم المرحلة الأوديبية في تأسيسه وفي منحه دلالة ترتبط بالمحرّم إن لم نقلْ بالمقدس. ولذلك فإننا نعتقد بأن سنّ الرابعة تمثّل الفترة التي يبحث فيها الطفل عن هوية «الثدي» ومعناه ودلالته الحقيقية. ولقد ركّزنا على أطفال سنّ الرابعة باعتبار أن «الثدي» الذي احتل الرتبة الأخيرة عندهم، سيعود ليحتل الرتبة الثانية لدى أطفال سنّ الخامسة، والرتبة الثالثة لدى أطفال سنّ السادسة.

٢ - تنحصر الملاحظة الثانية في احتلال «الظهر» للرتبة الثانية لدى أطفال سنّ الرابعة والسادسة. وهي رتبة تضمر دلالة كبيرة، باعتبار أن معظم الأمهات المغربيات - وبخاصة غير العاملات - يحملن أطفالهن على ظهورهن لساعات طوال، مما يؤدي بالطفل إلى إقامة علاقة صميمية بين راحته النفسية وظهر أمه؛ ففوقه يرتاح وينام ويحتك بجسد أمه. ولذلك، فإننا اعتبرنا احتلال الظهر لمرتبة متقدمة أمراً طبيعياً ومقبولاً.

٣ - ترتبط الملاحظة الثالثة والأخيرة بالأعضاء التناسلية التي احتلت الرتبتين الرابعة

---

(١) لقد احتلّ الفم - أثناء ترتيبنا لأجزاء الوجه - الرتبة الأولى، حيث إنه ذكر من قبل ٦٠ طفلاً في سنّ الرابعة، و٦١ طفلاً في سنّ الخامسة، و٦٢ طفلاً في سن السادسة، ويمكن الرجوع إلى الجدول رقم ٨ للاطلاع على تلك النتائج.

(٢) نركّز هنا على عملية الفطام باعتبار أن معظم الأمهات المغربيات يخترن يوماً معيّناً (حسب التقاليد) فيحرمن أطفالهن منذ ذلك اليوم من الرضاعة. وقد يضعن على ثديهن مواد ذات رائحة كريهة أو مذاق مرّ، مما يدفع بالرضيع إلى الابتعاد عن «الثدي» بشكل مفاجيء لا يُراعي ما تتطلبه عملية الفطام من عناية على المستويين النفسي والبيولوجي.

والخامسة، مما يشير إلى أن الطفل قد استحضر صورة المرأة وعبّر عنها دون أن يهتم بأعضائها الجنسية. ولا نستبعد أن الأطفال ـ وبخاصة في عمر الخامسة والسادسة ـ يعرفون العضو التناسلي للمرأة، بحيث إننا كلما ألححنا على أحدهم ليصف أجزاء جذع المرأة بكاملها، كان يبتسم ويبدي نوعاً من الحشمة والتحرّج. ولقد فضّلنا ألا نفرض على الطفل ذكر أعضاء لا يريد ذكرها أمامنا، إذ كنا نعتقد بأنه سيعبّر عنها في رسمه، أي حينما يكون منفرداً بالورقة والقلم. فهل رسم الطفل فعلاً تلك الأعضاء؟ هذا ما سنراه في النقطة الثانية من هذا الفصل. إلا أنه قبل ذلك علينا أن ننتقل إلى عرض النتائج المرتبطة بالأطراف.

٣ ـ النتائج المرتبطة بالأطراف:

تُعتبر الأطراف البنية الجزئية الثالثة التي برزت في وصف الأطفال لجسم المرأة. ولقد قدمناها في الأخير، باعتبارها تمثّل أعضاء امتداد الجسم ونهايته. ومن خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٩، يُمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالتفاوت الكبير بين نتائج مختلف الأعضاء التي تتكوّن منها الأطراف، بحيث إن «اليد» و«الرِجْل» قد حظيتا باختيارات تفوق بكثير ما حظيت به الأعضاء الأخرى كـ«الكَتف»، «الأصابع»، «الساق» و«الركبة». وإننا نعتبر ذلك التفاوت طبيعياً باعتبار أن الطفل بذكره لـ«اليد» يعتقد أن وصفه قد شمل كل ما تتكوّن منه هذه الأخيرة. والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لـ«الرجلْ» ولذلك، فإننا لم نستغرب نسيان الطفل لذكر أعضاء أخرى كـ«الذراع» و«الكفّ» و«الأظافر» و«القدم»... ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن طريقة وصف طفل هذه المرحلة لأطراف المرأة تختلف عن طريقة وصفه لوجهها. فإذا كان قد توفّق أثناء وصفه للوجه من ذكر أجزاء دقيقة كـ«العينين» و«الأنف» و«الفم»... وفشل إلى حد ما في ذكر البنية الجزئية التي تضمّ تلك الأجزاء (الرأس والوجه)، فإنه في وصفه للأطراف حدث العكس، باعتبار أن الطفل قد توفّق في ذكر البنية العامة (الرِجْل واليد) وفشل في تعداد الأجزاء المكوّنة لها. ونعتقد أن سبب ذلك يكمن في المعنى الذي تحمله كلمتا «يد» و«رجل» في استعمالنا اليومي لهما، بحيث إن مجرد قولك: «هذه يد»، يؤدي بالمتلقي إلى استحضار صورتين: صورة اليد الكبرى التي تمتد من «الكتف» إلى «الأصابع»، وصورة اليد الصغرى التي تحتوي على «الكف» و«الأصابع» و«الأظافر». ونعتقد أن الطفل قد ارتكز على الصورة الأولى لوصف «اليد» بدل الصورة الثانية، والأمر نفسه يُمكننا قوله بالنسبة للرجل. ومن ثم، فإننا نرجع ضعف نتائج هذه البنية الجزئية إلى اختزال معنى الأجزاء في الكل وإدماج الخاصّ في العام.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويرتبط بالسابق، بحيث إن اختزال الأجزاء في الكل وإدماج الخاص في العام لن يظهر بوضوح إلا من خلال اعتمادنا على مضامين الجدول رقم ١٠ أدناه.

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ١٠، نلاحظ بأن الرتب التي حصلت عليها أجزاء الأطراف تكاد تكون متجانسة بالنسبة لمختلف أعمار هذه المرحلة. فباستثناء بعض الاختلافات الطفيفة، كتناوب «اليد» و«الرِجْل» على احتلال الرتبة الأولى وتناوب «الكتف»

الجدول رقم ١٠

ترتيب أجزاء الأطراف لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦
أجزاء الأطراف / العمر	رجل	يد	أصابع	كتف	ركبة	ساق
٤	٦٨	٥٨	٤	٢	٠	٠
أجزاء الأطراف / العمر	يد	رجل	أصابع	ركبة	كتف	ساق
٥	٦٧	٦٦	٤	١	٠	٠
أجزاء الأطراف / العمر	يد	رجل	أصابع	كتف	ركبة	ساق
٦	٧١	٦٩	٨	٢	١	١

و«الركبة» على احتلال الرتبتين الرابعة والخامسة، فإن الأجزاء الأخرى قد احتفظت بالرتبة نفسها لدى مختلف أعمار هذه المرحلة. وما ينبغي أن نسجله في هذا المضمار ينحصر في احتلال «اليد» و«الرِجل» للرتبتين الأوليين، ونعتقد أنه احتلال معقول، باعتبار أن اليد تمثّل العضو المسؤول عن الفعل والمساعد على الإشباع والناقل للإحساس. بل يمكن أن نذهب بعيداً لنقول بأن اليد صانعة الحضارة. إننا نؤكد هذا لكوننا على اقتناع بأن علاقة الدماغ بـ«اليد» من أهم العلاقات التي تمكّن الفرد من إشباع رغباته وإنجاز عمله... أما «الرِجل» فإنها تمثّل الوسيلة التي يوظفها الإنسان للتحرك في المكان، فيكفي أن نتصور إنساناً بدون أطراف لندرك سبب الأولوية التي منحها أطفال هذه المرحلة لـ«اليدين» و«الرِجلين».

يتضح مما أوردناه في النقطة الأولى من هذا الفصل، أننا قد حاولنا الإحاطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة لدى أطفال هذه المرحلة من خلال اعتمادنا على خطوتين منهجيتين أساسيتين: خصّصنا أولاهما لعرض النتائج المرتبطة بالمكوّنات الجسمية العامّة لصورة المرأة، وأفردنا ثانيتهما لعرض النتائج المتعلّقة بالبنيات الجزئية (الرأس، الجذع، الأطراف). وينبغي أن نشير في هذا الصدد إلى أن ارتكازنا على الخطوتين معاً كان متعمّداً ومقصوداً، لكوننا قد استطعنا، من خلال عرضنا للنتائج العامة المرتبطة بالمكوّنات الجسمية لصورة المرأة، أن نفصح للقارىء عن الأسباب العلمية التي دفعتنا إلى الجمع بين الأعمار ٤ ـ ٥ ـ ٦ سنوات في مرحلة واحدة، ولكوننا قد استطعنا من خلال تقديمنا للنتائج الخاصّة بكل بنية جزئية من بنيات جسم المرأة أن نكشف للقارىء أيضاً عن الأهمية التي منحها الأطفال لكل عضو من أعضاء تلك البنيات. ولقد كنا أثناء تقديمنا لتلك النتائج حريصين على تسجيل استنتاجات منبثقة عن طبيعة

مادتنا وخصوصية مضامينها لكي لا نسقط في إنتاج خطاب بعيد عن حدود بحثنا ومجاله المعرفي. ويُمكننا أن نلخّص تلك الاستنتاجات في النقاط التالية:

* هناك تفاوت بين النتائج التي حصلت عليها مختلف أعضاء جسم المرأة، بحيث إن معظم الأطفال قد توفّقوا نسبياً في ذكر أعضاء معينة كـ«الرجْل» و«اليد» و«الفم» و«العينين» و«الرأس» و«الأذنين» و«الشعر»، وفشلوا في إبداء التفوّق نفسه في وصف أعضاء أخرى كـ«الثدي» و«الحاجبين» و«اللسان» و«الكتف» و«الأعضاء الجنسية» و«الصدر» و«الساقين» و«القدمين»، كما أنهم لم يذكروا نهائياً أجزاء أخرى كـ«الجبهة» و«الأشفار» و«الخد» و«الشفتين» و«الأسنان» و«الذقن» و«السرّة» و«الذراع» و«الكتف»... مما يفصح على أن أطفال هذه المرحلة قد فشلوا في وصف صورة المرأة بشكل تام وشامل. وبالتالي يُمكننا القول بأنها صورة في مرحلة التأسيس والتبلور.

* إن وصف أطفال هذه المرحلة لأجزاء جسم المرأة يغلب عليه طابع الاختزال والتكثيف، بحيث إن معظمهم قد اكتفوا بذكر عضو واحد للإشارة إلى مجموعة من الأعضاء. فـ«اليد» بالنسبة إليهم تمثّل «الكف» و«الذراع» و«الأصابع»، و«العين» تمثّل «الأشفار» و«الحاجب»، والكلام نفسه يُمكن قوله بالنسبة للأعضاء الأخرى.

* إن وصف الأطفال لأجزاء صورة المرأة لم يخضع لبنية عامة منظّمة، بحيث إنهم لم يتمكّنوا من استحضار صورة المرأة وتعداد مكوّناتها بشكل دقيق ومتناسق. فوصفهم اللفظي قد غلبت عليه العشوائية والتلقائية، بحيث إن معظمهم قد شرع بذكر «العين» ثم انتقل إلى ذكر «الأذن» ومنها إلى «الرجل» فـ«الرأس» فـ«اليد»... مما يعبّر عن غياب نسيج رابط بين الأجزاء الجسمية التي برزت في وصفهم لمكوّنات جسم المرأة.

* إن الوصف اللفظي الذي اعتمد عليه معظم الأطفال لتعداد مكوّنات جسم المرأة لم يرتكز على خلفية معرفية منظّمة، مما دفعنا إلى البحث عن إيجاد ذلك النظام من خلال اعتمادنا على العلاقة العاطفية التي تربط الطفل بكل عضو من أعضاء جسم المرأة. وفعلاً فقد استنتجنا بأنه من الممكن إيجاد ذلك النظام من خلال ترتيب أجزاء جسم المرأة تبعاً لعدد ظهورها في كلام الأطفال.

بالرغم من أهمية هذه الاستنتاجات، فإننا قد آثرنا ـ قبل أن نختم هذه النقطة ـ أن نقدّم للقارىء النتائج العامة المرتبطة بكل أجزاء جسم المرأة، وذلك من أجل أن يأخذ فكرة عامة عن مكوّنات صورة المرأة وعن المكانة التي يحتلّها كل مكوّن، ومن أجل أن يتأكّد القارىء أيضاً من أن وصف أطفال هذه المرحلة لتلك المكونات لم يخضع للجانب المعرفي بقدر ما خضع للجانب العاطفي. والجدول رقم ١١ يقدّم النتائج التي حصلت عليها تلك المكونات.

الجدول رقم ١١

النتائج المرتبطة بأجزاء جسم المرأة لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	أجزاء الجسم	الأعمار ٤ ـ ٥ ـ ٦ سنوات[1]	النسب المئوية[2]
١	الرجل	٢٠٣	٦٧٫٦٪
٢	اليد	١٩٦	٦٥٫٣٪
٣	الفم	١٨٠	٦٠٪
٤	العين	١٧٧	٥٩٪
٥	الرأس	١٧٤	٥٨٪
٦	الأنف	١٧٣	٥٧٫٦٪
٧	الوجه	١٣٨	٤٦٪
٨	الأذن	١٣٤	٤٤٫٦٪
٩	الشعر	١٣٣	٤٤٫٣٪
١٠	البطن	٥٧	١٩٪
١١	الأصابع	٢٠	٦٫٦٪
١٢	الظهر	١١	٣٫٦٪
١٣	العنق	١٠	٣٫٣٪
١٤	الثدي	٩	٣٪
١٥	الحاجب	٤	١٫٣٪
١٦	اللسان	٤	١٫٣٪
١٧	الكتف	٤	١٫٣٪
١٨	الأعضاء التناسلية	٣	١٪
١٩	الصدر	٣	١٪
٢٠	الساق	١	٠٫٣٪
٢١	الركبة	١	٠٫٣٪

(١) لقد جمعنا بين الأعمار ٤ ـ ٥ ـ ٦ سنوات في مرحلة واحدة، ومن ثم فإن النتائج التي يتضمنها هذا الجدول تعبّر عن المرحلة ككل لا عن عمر زمني معين.

(٢) بما أن عدد أطفال كل عمر هو ١٠٠ طفل، فإن عدد أطفال المرحلة الأولى هو ٣٠٠، ومن ثم فإن=

من خلال قراءتنا لما تضمّنه الجدول رقم ١١ من نتائج، يُمكّننا أن نسجل الاستنتاجين العامين التاليين:

١ ـ لقد احتلّت مكوّنات أطراف جسم المرأة رتباً متقدمة عن تلك التي احتلتها مكوّنات وجهها وجذعها.

٢ ـ إن أهمّ المكوّنات التي حصلت على نتائج مرتفعة هي: «الرِجْل»، «اليد»، «العين»، «الرأس»، «الأنف»، «الوجه»، «الأذن» و«الشعر»، باعتبارها مكوّنات حصلت على نسب لا بأس بها. أما بالنسبة لـ«البطن» و«الأصابع» و«الظهر» و«العنق»... إلخ، فإنها لم تحصل إلاّ على نسب ضعيفة، مما يشير إلى أن صورة المرأة عند أطفال هذه المرحلة ما زالت في طور التأسيس والتبلور. ولا شك أنه يحق لنا بعد هذا المستوى من التحليل أن نطرح السؤال التالي: إلى أي حد يُمكن القول إن هناك تجانساً بين وصف الطفل لمكوّنات جسم المرأة ورسمه لها؟ وهو سؤال يفرض علينا إجراء مقارنة بين نتائج الوصف ونتائج الرسم.

٢ ـ المكونات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

بعد أن أفردنا النقطة السابقة لعرض النتائج المرتبطة بالمكوّنات الجسمية لصورة المرأة التي استخلصناها من خلال تصنيفنا وتحليلنا لأقوال أطفال المرحلة الأولى، سنخصص هذه النقطة لتقديم بعض النتائج التي ترتبط برسمهم لتلك المكوّنات. ولقد استخدمنا عبارة «بعض النتائج» للسببين التاليين:

* يرجع أولهما إلى كون مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم سيفرض علينا تحويل تلك الرسوم إلى أرقام لكي تكون المقارنة صحيحة والاستنتاجات سليمة. وما دمنا قد كمَّمنا أقوال الأطفال فلا مناص من أن نكمّم رسومهم أيضاً. ولا بد أن نشير في هذا المجال إلى أننا قد اتبعنا في تكميم الرسم طريقة جد بسيطة، ذلك أننا كنا نعطي الطفل ورقة وقلماً لرسم المرأة، ثم نأخذ نحن ورقة أخرى فنسجل فيها كل الأجزاء التي رسمها، وكلما استغلق علينا فهم جزء معيّن سألنا الطفل عن معناه. ولقد أفادتنا هذه الطريقة في ترجمة رسوم الأطفال إلى لغة ومنها إلى أرقام، حيث إننا صمّمنا جداول متعددة تضم النتائج المرتبطة بكل عضو من الأعضاء التي رسمها الأطفال. ولا شك أن الطريقة المذكورة ستمكّننا من مقارنة تلك النتائج بما سبق وأن أوردناه من نتائج في النقطة السالفة.

* أما السبب الثاني، فإنه يرتبط بالأول، باعتبار أن ترجمتنا لرسوم الأطفال إلى أرقام سيحول دون تحليلنا وتأويلنا لها وقراءتنا لمضامينها بكيفية صحيحة. ولذلك، فإننا سنقتصر في

= حسابنا للنسب المئوية قد اعتمدنا فيه على العدد الأخير. وتبعاً لذلك، فقد حصلنا مثلاً على نسبة «الرِجْل» بتطبيقنا للعملية التالية: (٢٠٣ ÷ ٣٠٠) × ١٠٠ = ٦٧،٦٦٪. ولقد اتبعنا الطريقة نفسها لحساب نسب كل الأعضاء الأخرى.

هذه النقطة على تقديم ما يرتبط بالأرقام، على أن نخصّص النقطة الرابعة من هذا الفصل للكشف عن الطبيعة التكوينية التي طبعت رسم الأطفال للمرأة. ولهذا السبب استخدمنا في بداية هذه النقطة عبارة «بعض النتائج» بدل «كل النتائج». ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن النتائج التي حصلنا عليها من خلال تطبيقنا للطريقة التي أوضحنا خطواتها في السبب الأول، فإننا سنلخّصها في الجدول العام رقم ١٢ كما يظهر على الصفحة التالية.

يتضح مما تضمنه الجدول رقم ١٢ أننا قد حاولنا أن نجمع فيه كل النتائج التي ترتبط بالبنيات الجزئية التي يتكون منها جسم المرأة، ونعني بها: «الرأس» «الجذع» و«الأطراف». وبما أننا قد سبق وأن وعدنا القارىء بتخصيص نقطة مستقلة لتقديم المسار التكويني الذي خضعت له مختلف رسوم أطفال هذه المرحلة، فإننا قد آثرنا الوقوف عند حدود عرض النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية السابقة. ولذلك، فإننا سنقسم محورنا الثاني هذا إلى النقاط الثلاث التالية:

١) النتائج المرتبطة بـ«الرأس» (الوجه).

٢) النتائج المرتبطة بـ«الجذع».

٣) النتائج المرتبطة بـ«الأطراف».

١ ـ النتائج المرتبطة بـ«الرأس»:

من خلال قراءتنا للنتائج التي تضمنها الجدول رقم ١٢ يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول:** باستثناء «اللسان» و«الخد»، فإن كل أجزاء وجه المرأة قد برزت في رسوم الأطفال بنسب مختلفة، مما يدلّ على أنهم قد تمكّنوا من استحضار صورة المرأة والتعبير عنها بواسطة الرسم. فبالرغم من أن بعض الأجزاء ـ كـ«الأسنان» و«الشفتين» و«الأشفار» و«الأذنين» و«الحاجبين» ـ لم تحظَ باهتمام بالغ من جانب أطفال هذه المرحلة، فإن ذلك لا ينقص من غنى رسومهم وتنوّع دلالاتها ومعانيها.

ـ **الاستنتاج الثاني:** من خلال تمعننا في النتائج التي تضمنها الجدول رقم ١٢، نستنتج بأن «الوجه»[١] و«الرأس» قد برزا في رسوم الأطفال أكثر من الأجزاء الأخرى، بحيث إن نسبة رسم «الوجه» قد تراوحت بين ٩٦٪[٢] لدى أطفال سنّ الرابعة، و١٠٠٪ لدى أطفال سنّ

(١) يقول لويس كامل مليكة في كتابه: دراسة الشخصية عن طريق الرسم، م. س، ص ٧٤: «إن «الرأس» هو عادة أول جزء من الجسم يرسمه الأطفال».

(٢) بما أن عدد عناصر كل عمر زمني هو ١٠٠ طفل، فإن حساب النسب المئوية أصبح سهلاً جداً. فإذا كان مثلاً عدد ظهور «الوجه» في رسوم أطفال سنّ الرابعة هو ٩٦، فإن النسبة تساوي مباشرة ٩٦٪ وهكذا بالنسبة لكل النتائج التي تضمنها الجدول رقم ١٢.

الجدول رقم ١٢

التنائج العامة المرتبطة بالمكونات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

الأعضاء العامة	الرأس														الجذع							الأطراف												
مكونات الجسم / الأعمار	رأس	شعر	وجه	جبهة	حاجب	عين	أشفار	أنف	فم	شفة	أسنان	ذقن	أذن	المجموع	عنق	صدر	ثدي	بطن	سرة	أعضاء تناسلية	المجموع	كتف	ذراع	يد	كف	أصابع	ساق	ركبة	رجل	قدم	أبنان(1)	المجموع	المجموع العام
٤	٩١	٤٦	٩٦	٤٢	١٩	٧٩	٧	٤١	٦٤	/	٢	٤٠	٢١	٥٤٨	٤١	٤٤	٧	٤٤	١٣	٣	١٥٢	٣٢	٣١	٨٨	٢٧	٥٠	١٦	٦	٨١	٤٠	١٩	٣٩٠	١٠٩٠
٥	٩٣	٥٤	٩٨	٤٩	٢٢	٨٩	٧	٤٩	٧١	/	٣	٤٥	٢٢	٦٠٢	٤٤	٤٩	٦	٤٩	١٧	٥	١٧٠	٤١	٣٩	٨٧	٢٤	٥٩	٢٢	٨	٨٧	٤٤	٢٣	٤٣٤	١٢٠٦
٦	١٠٠	٥٣	١٠٠	٥٨	٢٨	٩٢	١١	٥٤	٦٩	٢	٢	٥١	٢٠	٦٣٩	٤٧	٥١	١٠	٥٠	١٦	٧	١٨١	٤٦	٤٦	٩٢	٣٢	٥٢	١٧	١١	٩١	٥١	٣١	٤٦٩	١٢٨٩
المجموع	٢٨٤	١٥٢	٢٩٤	١٤٩	٦٩	٢٦٠	٢٥	١٤٤	٢٠٤	٢	٧	١٣٦	٦٣	١٧٨٩	١٣٢	١٤٤	٢٣	١٤٣	٤٦	١٥	٥٠٣	١١٩	١١٦	٢٦٧	٨٣	١٦١	٥٥	٢٥	٢٥٩	١٣٥	٧٣	١٢٩٣	٣٥٨٥
النسب المئوية														٪٤٩,٩							٪١٤,٠											٪٣٦,١	٪١٠٠

(١) لقد استخدمنا كلمة «أبنان» للتمييز بينها وبين «الأصابع».

السادسة، مروراً بـ ٩٨٪ لدى أطفال سنّ الخامسة، مما يفصح بكل وضوح عن أن أغلبية أطفال هذه المرحلة قد استحضروا إطار «الوجه» أو «الرأس» قبل الشروع في ملء ذلك الإطار بالأجزاء التي يتكوّن منها. إلاّ أن ما أثار انتباهنا لا يرتبط بالنسب العالية التي حصل عليها «الوجه» و«الرأس»، بل بالنسب التي حصلت عليها «العينان»، حيث بلغت تلك النسبة ٧٩٪ لدى أطفال سنّ الرابعة، و٨٩٪ لدى أطفال سنّ الخامسة، و٩٢٪ لدى أطفال سنّ السادسة. ويرجع سبب اندهاشنا من هذه النسب إلى أننا كنا نعتقد بأن «الفم» سيحتلّ الرتبة الثالثة بعد «الوجه» و«الرأس»، باعتباره يمثّل قناة الإشباع والتواصل. إلا أن اعتقادنا هذا لم تُزكّه النتائج لسبب نظنه كامناً في الخلفية التي اعتمدناها لبناء ذلك الاعتقاد، بحيث كان الاحتمال لدينا كبيراً في أن يتحكّم الجانب العاطفي في رسم الطفل للمرأة أكثر مما يتحكّم فيه الجانب المعرفي. إلا أن التجربة أثبتت العكس، باعتبار أن أول ما كان يرسمه معظم الأطفال بعد تجسيدهم لدائرة «الوجه» هما: «العينان»[1]، لكونهما تحتلان المنطقة العليا من «الوجه». ونعتقد أن رسم الطفل لـ«العينين» قد تمّ حسب تسلسل منطقي خاضع لشروط معرفية مرتبطة بتنظيم المكان، بحيث إن إطار «الوجه» كان يفرض عليه أن يضع كل جزء في موضعه حسب ترتيب ينطلق من الأعلى إلى الأسفل. ونقول بصراحة إننا لم نعثر لحد الآن عن تفسير يرتكز على الأساس العاطفي لتبرير أسبقية «العينين» على «الفم».

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالمكانة التي يحتلها كل جزء من أجزاء «وجه» المرأة، وهي مكانة يُمكننا التعرّف عليها من خلال اعتمادنا على مضامين الجدول رقم ١٣ أدناه.

الجدول رقم ١٣

ترتيب أجزاء وجه المرأة لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
أجزاء الوجه / العمر	وجه	رأس	عين	فم	شعر	جبهة	أنف	ذقن	أذن	حاجب	أشفار	أسنان	شفة
٤	٩٦	٩١	٧٩	٦٤	٤٦	٤٢	٤١	٤٠	٢١	١٩	٧	٢	٠
أجزاء الوجه / العمر	وجه	رأس	عين	فم	شعر	جبهة	أنف	ذقن	أذن	حاجب	أشفار	أسنان	شفة
٥	٩٨	٩٣	٨٩	٧١	٥٤	٤٩	٤٩	٤٥	٢٤	٢٢	٧	٣	٠
أجزاء الوجه / العمر	وجه	رأس	عين	فم	جبهة	أنف	ذقن	شعر	حاجب	أذن	أشفار	أسنان	شفة
٦	١٠٠	١٠٠	٩٢	٦٩	٥٨	٥٤	٥٣	٥٢	٢٨	٢٠	١١	٢	٢

(١) يقول لويس كامل مليكة في المرجع نفسه، ص ٧٦: «ربما كانت «العيون» كمستقبلات للمنبهات البصرية، أكثر التفاصيل الوجهية دلالةً. وهي عادة أول التفاصيل التي يرسمها الأطفال».

من خلال ترتيبنا لأجزاء وجه المرأة يتبين للقارئ، أن الاستنتاجين السابقين اللذين توصلنا إليهما تزكيهما النتائج التي تضمنها الجدول رقم ١٣، باعتبار أن الأطفال من كل الأعمار قد منحوا «الوجه» و«الرأس» الأولوية والصدارة، ثم أتت من بعدها «العين» و«الفم»، وهما عضوان يكتسبان أهمية قصوى في الإشباع والتواصل. والملاحظ أن الأجزاء الأخرى كـ«الشعر» و«الجبهة» و«الأنف» و«الذقن» و«الأذن» و«الحاجب» و«الأشفار» و«الأسنان» و«الشفة» قد احتلت الرتب نفسها لدى أطفال سنّ الرابعة والخامسة واختلفت إلى حد ما عن الرتب التي احتلتها لدى أطفال سنّ السادسة، وهو اختلاف لا يغيّر كثيراً في النتائج لسبب بسيط هو أن كل الأطفال قد جسّدوا البنيات الجزئية (الرأس، الجذع، الأطراف) قبل تجسيدهم لمكوّناتها. ونعتقد أن ذلك التجسيد يُعتبر ركيزة معرفية ساعدت أطفال هذه المرحلة على رسم الأعضاء التي فشلوا في وصفها لفظياً. ولا بد أن نشير في النهاية إلى أننا قد سجّلنا ضعف النتائج التي حصلت عليها «الأذن»، مما دفعنا إلى البحث عن سبب ذلك، حيث طرحنا على الأطفال أسئلة نُطالبهم فيها بتبرير غياب «الأذن» من رسومهم. فكانت ردودهم تتمحور حول السببين التاليين:

- ينحصر أولهما في أن شعر المرأة الطويل يحول دون ظهور «الأذنين». ومن ثم، فإن عدم بروزهما راجع إلى اختفائهما تحت الشعر.

- أما السبب الثاني، فإنه يتعلّق بالنسيان، بحيث إننا بمجرد أن نسأل الطفل عن السبب الذي كان وراء عدم رسمه للأذنين يُفاجأ ويريد انتزاع الورقة من يد الفاحص لكي يرسمهما. ولذلك، فإن احتلال «الأذن» للرتبة التاسعة لدى أطفال سن الرابعة والخامسة، والرتبة العاشرة لدى أطفال سنّ السادسة له ما يبرره.

٢ - النتائج المرتبطة بـ«الجذع»:

من خلال قراءتنا للنتائج المرتبطة بـ«الجذع» والتي أوردناها في الجدول رقم ١٢، يمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

- الاستنتاج الأول: ويرتبط باحتلال «البطن» و«الصدر» للرتبتين الأوليين، وهو احتلال له معنى دقيق، باعتبارهما يمثّلان العضوين اللذين يحتضنان كل الأجزاء الأخرى (الثدي، السّرة، الأعضاء التناسلية). ولا شك أن النسب التي حصل عليها «العنق» - ٤١٪ لدى أطفال سنّ الرابعة، و٤٤٪ لدى أطفال سنّ الخامسة، و٤٧٪ لدى أطفال سنّ السادسة - تدلّ على أنه قد حظي بمكانة مقبولة داخل رسوم الأطفال. ونظن أن ذلك راجع إلى كون «العنق» يمثّل العضو الذي يجمع بين «الوجه» و«الجذع». فهو الممر الطبيعي الذي يمنح التقاء هذين العضوين صورة منسقة وواضحة. ولذلك، فإن عدم رسم الطفل لـ«العنق» - كما سنرى فيما بعد - سيمنح تلك الصورة شكلاً غير منسجم.

- الاستنتاج الثاني: لقد سجّلنا باهتمام كبير النتائج الضعيفة التي حصلت عليها «الأعضاء التناسلية» و«الثدي». ولا نخفي هنا بأن المسألة التي أثارت انتباهنا تكمن في حصول «السرّة» على نتائج تفوق تلك التي حصلت عليها «الأعضاء التناسلية» و«الثدي». مما دفعنا إلى محاولة

التعرّف عن سبب رسم بعض الأطفال لنقطة وسط بطن صورة المرأة بدل رسمهم لعضوها التناسلي. وفعلاً، فإننا قد توصلنا إلى تحديد بعض الأسباب من خلال محاورتنا لبعض الأطفال وعددهم ١٨، ممن رسموا السرة[1]. ويمكن للقارىء أن يدرك أهم تلك الأسباب من خلال قراءته للنماذج الحوارية التالية:

* رقم (١١)، (ع. ف)، (٤،٥): «. . . ما اسم هذه النقطة التي رسمتها في وسط البطن؟ـ السرّة ـ ما دورها؟ـ لا أعرف ـ بمَ تفيد المرأة؟ـ في الولادة ـ كيف ذلك؟ـ عندما تلد المرأة تفتح بطنها وتغلق من هنا (إشارة إلى السرّة) ـ من أين تلد المرأة؟ـ من هنا (إشارة إلى السرّة). . .».

* رقم (١٧١)، (ب. ك)، (٥،٣): «. . . ما اسم هذه النقطة التي رسمتها في وسط البطن؟ـ السرّة ـ ما دورها؟ـ لا أدري ـ ما سبب وجودها هنا؟ـ الولادة ـ كيف ذلك؟ـ إن الجنين كان يأكل من هنا ـ كيف كان يأكل؟ـ كانت أمه تعطيه الأكل من هذه الفتحة (إشارة إلى السرّة) ـ هل هي مفتوحة؟ـ لا إنها مغلقة ـ إذن كيف تفتح؟ـ لا أدري (رفض الاستمرار في الحوار). . .».

* رقم (٢٠٧)، (ع. ك)، (٦،٦): «. . . ما اسم هذه النقطة التي رسمتها في وسط البطن؟ـ السرّة ـ كيف وُجدت هنا؟ـ إنها قديمة ـ لماذا خُلقت هنا بالضبط؟ـ لقد كنا نأكل بواسطتها ـ كيف ذلك؟ـ كانت مفتوحة وحينما ولدنا أُغلقت ـ كيف أُغلقت ومن الذي أغلقها؟ ـ لا أدري. . .».

إن هذه النماذج الثلاثة تعكس تقريباً ما أكّده أطفال هذه المرحلة ممّن رسموا «السرّة». فهناك من أعطاها معنى جنسياً فوضعها موضع العضو التناسلي الذي تتم من خلاله الولادة؛ وهناك من اعتبرها منطقة يتمّ عبرها الربط بين الجنين وأمه؛ وهناك من حسبها مصدر تغذية الجنين. فبالرغم من هذه التبريرات، فإن أطفال هذه المرحلة لم يتمكّنوا من تقديم تعليل دقيق لسبب وجود هذا الجزء الصغير من أجزاء جسم المرأة.

ـ الاستنتاج الثالث: من خلال ما تضمنه الجدول العام الذي صدّرنا به هذه النقطة (الجدول رقم ١٢)، نستنتج بأن رسم أطفال هذه المرحلة لجذع المرأة قد خضع لتنظيم تحكّمت فيه القاعدة التالية: «تجسيد العام قبل الخاص». بحيث إنهم كانوا يستحضرون صورة «الجذع» ككل قبل أن يجسّدوا مختلف أجزائه. والجدول رقم ١٤ يقدم نتائج تزكّي ذلك.

يتبين من خلال مضامين الجدول رقم ١٤ أن هناك تجانساً شبه تام بين الرتب التي احتلتها أجزاء الجذع بالنسبة لأطفال هذه المرحلة. فباستثناء احتلال «الصدر» لدى أطفال سنّ السادسة الرتبة الأولى بدل «البطن»، فإن الأعضاء الأخرى قد احتفظت بمكانتها لدى كل الأعمار، مما يدلّ على أن الأطفال قد استحضروا «الصدر» و«البطن» قبل أن ينتقلوا إلى ملئهما

---

(١) بالرغم من أن أطفال هذه المرحلة الذي رسموا «السرّة» قد بلغوا ٤٦ طفلاً، فإننا قد اكتفينا بمحاورة ١٨ منهم فقط حول مسألة وجود «السرة» في رسومهم.

الجدول رقم ١٤

ترتيب أجزاء جذع المرأة لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦
أجزاء الجذع / العمر	بطن	صدر	عنق	سرة	ثدي	أعضاء تناسلية
٤	٤٤	٤٤	٤١	١٣	٧	٣
أجزاء الجذع / العمر	بطن	صدر	عنق	سرة	ثدي	أعضاء تناسلية
٥	٤٩	٤٩	٤٤	١٧	٦	٥
أجزاء الجذع / العمر	صدر	بطن	عنق	سرة	ثدي	أعضاء تناسلية
٦	٥١	٥٠	٤٧	١٦	١٠	٧

بالأجزاء المكوّنة لهما، ونعني بها: «الثدي»، «السرّة»، و«الأعضاء التناسلية». أي أنهم شرعوا بتجسيد ما هو عام قبل ما هو خاص. فإذا كانت هذه هي القاعدة التي تحكّمت في رسمهم للجذع، فهل ذلك يعني أنهم سيرتكزون على القاعدة نفسها لتجسيد الأطراف؟

٣ ـ النتائج المرتبطة بـ«الأطراف»:

من خلال قراءتنا للنتائج المرتبطة بـ«الأطراف» والتي أوردناها في الجدول رقم ١٢، يُمكننا أن نسجل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالنتائج المرتفعة التي حصلت عليها «اليد» و«الرِجْل»، باعتبارهما يُشكّلان الإطارين اللذين يحتضنان كل الأجزاء الأخرى كـ«الكتف» و«الذراع» و«الكف» و«الأصابع»... ولذلك، فإن النتائج التي حصلنا عليها في هذا المجال تزكّي القاعدة التي أوردناها في نهاية تقديمنا للنتائج المرتبطة بالجذع.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويمكننا استخلاص مضامينه من خلال قراءتنا لمحتويات الجدول رقم ١٥.

إن أول ملاحظة يُمكننا تسجيلها من خلال تصفحنا للنتائج التي يتضمنها الجدول رقم ١٥ تنحصر في التطابق الموجود بين الرتب التي احتلتها مختلف مكوّنات الأطراف التي رسمها أطفال سنّ الرابعة والخامسة (اليد، الرجل، الأصابع، القدم، الكتف، الذراع، الكف، الأبنان، الركبة). فباستثناء «الأظافر»، فإن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من تجسيد كل الأجزاء. ولا مجال هنا للتوسّع في الأسباب الكامنة وراء ارتفاع نتائج بعض الأجزاء وانخفاض

الجدول رقم ١٥

ترتيب أجزاء الأطراف لدى أطفال المرحلة الأولى

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
أجزاء الأطراف / العمر	يد	رجل	أصابع	قدم	كتف	ذراع	كف	أبنان	ساق	ركبة
٤	٨٨	٨١	٥٠	٤٠	٣٢	٣١	٢٧	١٩	١٦	٦
أجزاء الأطراف / العمر	يد	رجل	أصابع	قدم	كتف	ذراع	كف	أبنان	ساق	ركبة
٥	٨٧	٨٧	٥٩	٤٤	٤١	٣٩	٢٤	٢٣	٢٢	٨
أجزاء الأطراف / العمر	يد	رجل	قدم	أصابع	كتف	ذراع	كف	أبنان	ساق	ركبة
٦	٩٢	٩١	٥٤	٥٢	٤٦	٤٦	٣٢	٣١	١٧	١١

نتائج بعضها الآخر، باعتبار أننا سنخصّص نقطة مستقلة للحديث عن ذلك. فما نريد أن نركّز عليه هنا ينحصر في الأسبقية التي منحها الأطفال للبنيات الجزئية وللأعضاء الكبرى (اليد، الرجل) على الأجزاء الصغرى، مما يزكّي ما ذهبنا إلى تأكيده في الاستنتاجات التي توصلنا إليها سابقاً، أي أن الطفل قد رسم المرأة باعتماده على شكلها العام قبل أن يضع كل جزء في المكان المخصّص له. ولا شك أنه بعد أن أخذنا فكرة موجزة عن طبيعة المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند أطفال المرحلة الأولى من خلال تحليلنا لأقوالهم ورسومهم، يحقّ لنا أن ننتقل إلى أجزاء مقارنة بين نتائج الوصف والرسم لنكشف عن مدى تجانس أو تباين نتائجهما.

٣ ـ مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم

بعد أن خصّصنا النقطتين السابقتين من هذا الفصل لعرض نتائج وصف أطفال هذه المرحلة لأجزاء جسم المرأة ونتائج رسمهم لها، سنفرد هذه النقطة لعقد مقارنة بين تلك النتائج باعتمادنا على معيارَي الكثافة والتراتبية، وذلك بهدف الخروج بفكرة واضحة عن مدى تشابه أو اختلاف المسار التكويني الذي يتبعه كل من الوصف اللفظي والرسم. وإننا نصر على عقد تلك المقارنة لأسباب متعددة يمكننا حصرها في ثلاثة:

١ ـ يتمثل السبب الأول في أننا نرغب في التعرّف على مدى التشابه أو الاختلاف الموجود بين الوسيلتين التعبيريتين الأساسيتين اللتين يستخدمهما الطفل بجانب اللعب للإفصاح عن مخزونه النفسي ولإشباع حاجاته ورغباته النفسية. ولا غرو أن أهمية هاتين الوسيلتين تكمن في

مساهمتهما الحاسمة في تكوين الوظيفة الرمزية عند الطفل. ومن ثم، فإن اهتمامنا بهما في هذا البحث سيكشف لنا عن مدى مساهمة كل واحدة منهما في الإفصاح عن صورة المرأة عند الطفل.

٢ ـ أما السبب الثاني فإنه ينبثق من أن مجموعة من العلماء[١] يتفقون مع Meili-Dworetski في قولها: «إن الوصف اللفظي لصورة الإنسان يختلف عن إعادة إنتاجها بواسطة الرسم»[٢]، مما دفعنا إلى التحقق من صحة هذا القول، وذلك من خلال إجرائنا لمقارنة بين نتائج الوصف اللفظي والرسم.

٣ ـ يرتبط السبب الثالث بالسابق، باعتبار أن مجموعة من العلماء يُرجعون اختلاف الوصف اللفظي عن الرسم إلى طبيعة كلٍ منهما. إذ لا يُمكن ـ في نظرهم ـ لأيٍ كان أن ينكر «اختلاف الإشارات التصويرية عن الإشارات اللسانية»[٣]. ففي الوقت الذي يُمكّننا القول بأن «الإشارات اللسانية اصطلاحية»[٤]، باعتبار أنه ليس من المعقول أن يستعمل الطفل كلمات من قبيل «البيت، المزرعة أو الحظيرة لوصف كوخ من الخشب، فإن الإشارات التصويرية غير اصطلاحية. فهي تستند على الأشكال التي يتعلّم الطفل استعمالها تبعاً للصور التي سبق أن تعرّف عليها»[٥]. إذ يمكن للمربع مثلاً أن يصبح بيتاً إذا ما أضفنا مثلثاً فوقه. وتبعاً لذلك يُمكننا القول بأن الإشارات التصويرية (التجسيدية) ترتكز على أرضية تختلف عن تلك التي ترتكز عليها الإشارات اللسانية. فإذا كانت «الكلمة تتخذ داخل الجملة تنظيماً متعاقباً، فإن ملامح الرسم منظمة فوق الإطار المكاني للورقة: فهي ملامح ذات تنظيم مكاني»[٦]. ومن ثم، فإن الأرضية التي تتحكّم في انتظام الرسم تختلف عن تلك التي تتحكّم في انتظام اللغة. فالأولى تخضع لقوانين تنظيم المكان، فيما تخضع الثانية لقوانين تركيبية ودلالية ومعجمية... دقيقة. وما علينا بعد تقديمنا لهذا التوضيح، إلا أن نتحقق من صحة هذا التمييز في نهاية هذا العمل. ونعرض لمعالم هذه المقارنة من خلال اعتمادنا على المستويين التاليين:

أ) مقارنة النتائج على المستوى الكمّي.

ب) مقارنة النتائج تبعاً للرتب التي احتلتها مكوّنات جسم المرأة في الوصف اللفظي والرسم.

---

(١) نشير هنا بالخصوص إلى مساهمات كل من: - VOIZOT (F): *Une étude du dessin de l'enfant sur le thème:* dessine un maître ou une maîtresse dans la classe (Thèse de médecine), Paris, 1967.

- WIDLÖCHER (D): *L'Interpretation des dessins d'enfants*, Bruxelles, Dessart, 1965.

- STERN (A): *Du dessin spontané aux techniques*, Paris, Delachaux et Niéstlé, 1964.

(٢) MEILI- DWORETSKI (G): *L'Image de l'homme*, op. cit., p. 43.

(٣) VOIZOT (B): *Le developpement de l'intelligence chez l'enfant*, Paris, A. Colin, 1973, p. 162.

(٤) *Ibid.*

(٥) *Ibid.*

(٦) *Ibid.*

١ ـ مقارنة النتائج على المستوى الكمّي:

نقصد بالمستوى الكمّي مجموع النتائج التي تضمنها الجدولان رقم ٧ ورقم ١٢ اللذان عرضنا أولهما في بداية النقطة الأولى من هذا الفصل وقدّمنا ثانيهما في بداية النقطة الثانية منه. تلك النتائج التي سنحاول عقد مقارنة بينها باعتمادنا على «الاختبار التائي» Test de T[1] لتحديد الفروق الموجودة بين متوسطات الوصف اللفظي ومتوسطات الرسم لدى مختلف أعمار هذه المرحلة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى الكشف عن مدى دلالة تلك الفروق. ولكي يتمكّن القارىء من الاطلاع على أهم النتائج التي حصلنا عليها نقدّم له فيما يلي الجدول رقم ١٦:

الجدول رقم ١٦

مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم لدى أطفال المرحلة الأولى

أجزاء الجسم / العمر	التقنية المستعملة	الرأس	الجذع	الأطراف	المجموع	المتوسط	ع	قيمة (ت)	الدلالة
٤	الوصف	٣٦٠	٢٦	١٣٢	٥١٨	٣٤,٥٣	٢٤,٨٧	٠,٥٠	غ. د
	الرسم	٥٤٨	١٥٢	٣٩٠	١٠٩٠	٣٨,٩٢	٢٧,٣٦		
٥	الوصف	٣٧٣	٣٠	١٣٨	٥٤١	٣٠,٠٥	٢٦,٦٣	١,٥٢	دال
	الرسم	٦٠٢	١٧٠	٤٣٤	١٤٠٦	٤٣,٧٠	٢٨,٣٧		(٩٠٪)
٦	الوصف	٣٨٤	٣٧	١٥١	٥٧٢	٢٨,٦	٢٧,٤٤	١,٨٨	دال
	الرسم	٦٣٩	١٨١	٤٦٩	١٢٦٩	٤٤,٤٤	٢٩,٥٤		(٩٠٪)
المجموع العام	للوصف	١١١٧	٩٣	٤٢١	١٦٣١	٣٠,٠٧	٢٦,٥٢		دال
المجموع العام	للرسم	١٦٧٨٩	٥٠٣	١٢٩٣	٣٥٨٥	٤٢,١٧	٢٨,٢٢	٢,٣٦	(٩٨٪)

من خلال ما تضمّنه الجدول رقم ١٦ يُمكننا أن نسجل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويرتبط بالفروق الموجودة بين نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم بالنسبة لكل أعمار هذه المرحلة، بحيث نلاحظ بأن مجموع الاختيارات التي حظيت بها أجزاء

---

(١) الاختبار التائي وضعه أوستوديت، وقانونه: $\dfrac{م_1 - م_2}{\sqrt{\dfrac{ن_1 ع_1^2 + ن_2 ع_2^2}{ن_1 + ن_2 - 2}\left(\dfrac{1}{ن_1} + \dfrac{1}{ن_2}\right)}}$ حيث م = المتوسط، ع = الانحراف المعياري، ن = عناصر العيّنة.

جسم المرأة لم يتجاوز ٥١٨ في الوصف اللفظي، بينما بلغ ١٠٩٠ في الرسم لدى أطفال سنّ الرابعة، كما أن تلك الأجزاء لم يتعد مجموعها ٥٤١ في الوصف اللفظي بينما وصل إلى حدود ١٢٠٦ في الرسم لدى أطفال سنّ الخامسة. وبالمثل فإن ذلك المجموع لم يتجاوز ٥٧٢ في الوصف، بينما وصل إلى حدود ١٢٨٩ في الرسم لدى أطفال سنّ السادسة. ولذلك يُمكننا القول بأن رسم أطفال هذه المرحلة لمكوّنات جسم المرأة أغنى تعبيراً وأوفر تفصيلاً من وصفهم لها. إلا أن ذلك القول يحتاج إلى مزيد من التوضيح، لأن الفروق الكمية التي عبّرت عنها هذه النتائج لم تؤثّر بشكل كبير على المتوسطات(١). فبالرغم من أن الفرق بين مجموع الوصف اللفظي والرسم لدى أطفال سنّ الرابعة قد بلغ ٥٧٢(٢)، فإن الفرق بين متوسطاتهما لم يتجاوز ٤,٣٩(٣)، مما قد يدفعنا إلى التساؤل حول المفارقة الموجودة بين النتائج العامة والمتوسطات. وهي مفارقة لا يمكننا فهمها إلا إذا نحن جمعنا بين تلك النتائج والمتوسطات التي تمثلها، بحيث نحصل على الوصف اللفظي من خلال تقسيمنا لمجموع الوصف (٥٧٢) على عدد الأجزاء التي تمكّن أطفال سنّ الرابعة من ذكرها، وهي ١٥. أما متوسط الرسم، فإننا حصلنا عليه من قسمة مجموع الرسم (١٠٩٠) على عدد الأجزاء التي تمكّن الأطفال من رسمها، وهي أجزاء بلغ عددها ٢٨. ولذلك فإن الفرق الحقيقي بين الوصف اللفظي والرسم لا يمكن إدراكه بكل وضوح من خلال مقارنة المتوسطات، بل من خلال مقارنة عدد الأجزاء التي تمكن الأطفال من رسمها ولم يستطيعوا التعبير عنها لفظياً.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالأول، إن لم نقلْ إنه ينبثق منه. ذلك أن الفروق الطفيفة بين مختلف متوسطات الوصف اللفظي والرسم لم تمكّننا من الحصول على قيم تائية(٤) مرتفعة، إذ إنها لم تكن دالة في سنّ الرابعة، كما أنها لم تتجاوز حدود ٩٠٪ ثقة لدى أطفال

---

(١) لقد حسبنا المتوسطات من خلال تطبيقنا للقاعدة البسيطة التالية: مجموع الدرجات على عدد الحالات، أي ما يمكن أن نرمز إليه بـ: [مج س / ن]، وبالمثل، فإننا طبقنا القاعدة البسيطة التالية لحساب الانحراف المعياري: [مج ح٢ / ن].

(٢) حصلنا على ٥٧٢ من خلال تطبيقنا للعملية التالية: ١٠٩٠ - ٥١٨ = ٥٧٢.

(٣) حصلنا على ٤,٣٩ من خلال تطبيقنا للعملية التالية: ٣٨,٩٢ - ٣٤,٥٣ = ٤,٣٩.

(٤) لكي يطلع القارىء على طرق حساب الوسط والانحراف المعياري والاختبار التائي يمكنه الرجوع إلى المؤلفات التالية: موراي شبيجل: **الإحصاء**، ترجمة الدكتور شعبان عبد الحميد شعبان، دار ماكجروهيل للنشر، ١٩٨٧، ص. ص ٨١ ـ ٨٩ وص. ص ١١٤ ـ ١١٧ وص. ص ٣٠٢ ـ ٣١٢؛ عبد العزيز فهمي هيكل، وفاروق عبد العظيم أحمد: **الإحصاء**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠، ص. ص ٨٨ ـ ٩٧ وص. ص ١٣٢ ـ ١٣٩؛ ديوبولد فان دالين: **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**، ترجمة مجموعة من الأساتذة، القاهرة، مكتبة الإنجلو مصرية، ١٩٧٧، ص. ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ وص. ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ وص. ص ٥٣٨ ـ ٥٤٢؛ جابر عبد الحميد جابر وأحمد خيري كاظم: **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**، بيروت، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٨، ص. ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦ وص. ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ وص. ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨.

سنّ الخامسة والسادسة. فلولا دلالتها عند مقارنتنا بين المتوسطات العامة للوصف اللفظي والرسم، لقلنا بأنه لا توجد بين أطفال هذه المرحلة فروقٌ صميمية وجوهرية بين رسمهم لمكوّنات جسم المرأة ووصفهم لها. إلا أن ما أثار انتباهنا في هذا الصدد هو ارتفاع القيم التائية (ت) كلما انتقلنا من عمر لآخر، إذ إنها انتقلت من ٠,٥ لدى أطفال سنّ الرابعة إلى ١,٥٢ لدى أطفال سنّ الخامسة لتصل إلى حدود ١,٨٨ لدى أطفال سنّ السادسة، مما دفعنا إلى الاقتناع بأنه كلما تقدّم الأطفال في السن، زاد الفرق بين وصفهم لمكونات جسم المرأة ورسمهم لها. وهو اقتناع سنتأكد من مدى صحته في الفصلين المقبلين.

ب ـ مقارنة النتائج تبعاً للرتب التي احتلتها مكوّنات جسم المرأة في الوصف اللفظي والرسم:

بعد أن قارنا بين نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم باعتمادنا على الاختبار التائي، سننتقل إلى مقارنة تلك النتائج من زاوية أخرى ترتكز على ترتيبنا لمكوّنات جسم المرأة تبعاً لظهورها في أقوال الأطفال ورسومهم. وهي مقارنة ستفيدنا في الكشف عن التراتبية التي تتحكّم في وصفهم ورسمهم لمكوّنات جسم المرأة وفي التعرّف على الأرضية التكوينية التي تخضع لها أهم الوسائل التعبيرية التي يستخدمها الطفل للإفصاح عن مختلف تصوّراته، ونعني بهما: الكلام والرسم. ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن النتائج الكمّية التي حصلنا عليها، نقدم له فيما يلي الجدول رقم ١٧ على الصفحة التالية.

لقد حاولنا من خلال الجدول رقم ١٧ أن نقدّم للقارىء النتائج العامة المرتبطة بالمادة المستقاة من تحليلنا لأقوال أطفال هذه المرحلة ورسومهم. ونؤكّد هنا على النتائج العامة لكوننا لم نفرد لكل عمر زمني نتائج خاصة به خوفاً من السقوط في تكرار ما سبق وأنْ أكدناه في ثنايا الصفحات السالفة. ولا شك أن ترتيبنا لمكوّنات جسم المرأة باعتمادنا على عدد ظهور كل مكوّن من تلك المكوّنات في وصف الأطفال وفي رسومهم قد أفادنا من جهة أولى في تلخيص النتائج للتخفيف من ثقل الأرقام، ومن جهة ثانية في تكوين فكرة شاملة عن صورة المرأة خلال المرحلة الممتدة بين عمر ٤ و٦ سنوات، كما أنها ستمكّننا من جهة ثالثة من تعميم استنتاجاتنا على أطفال هذه المرحلة. . وهي استنتاجات يمكننا حصرها في النقطتين التاليتين:

ـ الاستنتاج الأول: ويرتبط بالفرق الواضح بين نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم. وهو فرق ذو دلالة عميقة، إذ يكفينا أن نشير إلى أن أطفال هذه المرحلة لم يتمكّنوا من ذكر سوى ٢١ عضواً من أعضاء جسم المرأة، في حين أنهم استطاعوا رسم ٢٩ عضواً لندرك ذلك الفرق. ويمكننا أن نذهب بعيداً لنقول بأنه حتى تلك الأعضاء التي وصفها الأطفال لم تحصل معظمها على نتائج مهمّة. إذ يكفينا أن نطّلع على نتائج «الأصابع» و«الظهر» و«العنق» و«الثدي»... إلخ، لندرك الفرق الموجود بين كلام الأطفال ورسومهم.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالمكانة التي احتلّتها مختلف مكوّنات جسم المرأة في الوصف اللفظي والرسم، إذ يُمكننا من خلال تمعّننا في مضامين الجدول رقم ١٧ أن نسجّل الملاحظات التالية:

الجدول رقم ١٧

مقارنة بين نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم تبعاً للرتبة التي يحتلها كل عضو من أعضاء جسم المرأة

الترتيب	أجزاء الجسم / وسيلة التعبير	الوصف اللفظي	أجزاء الجسم / وسيلة التعبير	الرسم
١	رجل	٢٠٣	وجه	٢٩٤
٢	يد	١٩٦	رأس	٢٨٤
٣	فم	١٨٠	يد	٢٦٧
٤	عين	١٧٧	عين	٢٦٠
٥	رأس	١٧٤	رجل	٢٠٩
٦	أنف	١٧٣	فم	٢٠٤
٧	وجه	١٣٨	أصابع	١٦١
٨	أذن	١٣٤	شعر	١٥٢
٩	شعر	١٣٣	جبهة	١٤٩
١٠	بطن	٥٧	صدر	١٤٤
١١	أصابع	١٦	أنف	١٤٤
١٢	ظهر	١١	بطن	١٤٣
١٣	عنق	١٠	ذقن	١٣٦
١٤	ثدي	٩	كم	١٣٥
١٥	حاجب	٤	عنق	١٣٢
١٦	لسان	٤	كتف	١١٩
١٧	كتف	٤	ذراع	١١٦
١٨	صدر	٣	كف	٨٣
١٩	أعضاء تناسلية	٣	أجفان	٧٣
٢٠	ساق	١	حاجب	٦٩
٢١	ركبة	١	أذن	٦٣
٢٢	جبهة	٠	ساق	٥٥
٢٣	أظافر	٠	سرة	٤٦
٢٤	شفة	٠	أظافر	٣٥
٢٥	أسنان	٠	ركبة	٣٥
٢٦	ذقن	٠	ثدي	٢٣
٢٧	سرة	٠	أعضاء تناسلية	١٥
٢٨	ذراع	٠	أسنان	٧
٢٩	كف	٠	شفة	٢
٣٠	قدم	٠	لسان	٠
٣١	أجفان	٠	ظهر	٠
المجموع		١٦٣١ ٣١,٣٪		٣٥٨٥ ٦٨,٧٪

المجموع العام = ٥٢١٦ ١٠٠٪

١ ـ لم يتمكّن «معظم أطفال» هذه المرحلة من تعداد كل أجزاء جسم المرأة، حيث إنهم لم يذكروا أعضاء كثيرة كـ«الجبهة» و«الشفتين» و«الأظفار» و«الأسنان» و«الذقن» و«السرّة» و«الذراع» و«الكتف» و«القدم» و«الأبنان»، بينما استطاع «ما يناهز نصفهم»[1] من رسم عدد مهم جداً من الأعضاء. فباستثناء «اللسان» و«الظهر»، فإن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من رسم كل المكوّنات الجسمية للمرأة.

٢ ـ يتضح من نتائج الوصف اللفظي أن الأطراف (الرِجْل، اليد) قد احتلت الصدارة، فتبعها في الترتيب بعض أجزاء الوجه (الفم، العين، الرأس، الوجه، الأذن، الشعر)، بينما احتلّ أول عضو في الجذع (البطن) الرتبة العاشرة. أما إذا نحن تمعّنا في نتائج الرسم، فإننا نجد الوجه والرأس قد استحوذا على الصدارة، فتبعتهما في الترتيب «اليد» و«الرِجْل»، ثم أتت بعدهما بعض أجزاء الوجه (العين: الرتبة الرابعة ـ الفم: الرتبة السادسة ـ الشعر: الرتبة الثامنة ـ الجبهة: الرتبة التاسعة). أما أول عضو من أعضاء الجذع (الصدر) فقد احتلّ الرتبة العاشرة. ومن خلال ما سبق يُمكننا أن نلخّص فنقول:

إن وصف أطفال هذه المرحلة لمكوّنات جسم المرأة قد احتلت فيه الأطراف الرتبة

---

(١) حينما نستخدم عبارة «معظم الأطفال» أو «ما يناهز النصف»، أو ما شابه ذلك، قد يعتقد القارىء بأننا إنما نستخدم عبارات عامة لا ترتكز على أدلة ومعطيات إحصائية. وهو اعتقاد يجانب الصواب، باعتبار أننا حينما نستعمل وصفاً معيناً، فإننا نعلم جيداً خلفيته الكميّة والإحصائية، وسنعلل صحّة قولنا هذا. حين قلنا: «لم يتمكن معظم الأطفال» و«استطاع ما يناهز النصف»، فإننا قد ارتكزنا على المعطيات التالية: إذا كان مجموع الوصف هو ١٦٣١ ومجموع الرسم هو ٣٥٨٥، فإن استخراج نسبتها يتطلب منا اتباع أحد السبيلين التاليين:

ـ إما أن ندخل في الاعتبار كل أجزاء جسم المرأة ومن ثم يصبح القاسم المشترك هو: ٣١ × ٣٠٠ = ٩٣٠٠، ما دام لدينا ٣١ جزءاً وكان جزء كان من المحتمل أن يذكر أو يرسم من قبل ٣٠٠ طفل ممّن يكونون عناصر العيّنة التي تنتمي إلى المرحلة الأولى. ومن ثم تصبح نسبة الوصف هي: ١٦٣١ ÷ ٩٣٠٠ × ١٠٠ = ١٧,٥٣٪، ونسبة الرسم هي: (٣٥٨٥ ÷ ٩٣٠٠) × ١٠٠ = ٣٨,٥٤٪.

ـ أما إذا اتبعنا السبيل الثاني، فإنه سيفرض علينا حساب نسبة الوصف اللفظي والرسم من خلال اعتمادنا على مجموع الأجزاء التي عبّر عنها الأطفال أو جسّدوها. ومن ثم تصبح نسبة الوصف مساوية لـ: [١٦٣١ ÷ (٢١ × ٣٠٠) × ١٠٠] = ٢٥,٨٨٪، ونسبة الرسم مساوية لـ: [٣٥٨٥ ÷ (٢٩ × ٣٠٠) × ١٠٠] = ٤١,٢٪. ولا نخفي هنا بأننا نفضّل السبيل الأول، باعتباره يتيح لنتائج الوصف والرسم الاحتكام لمقياس واحد بدل الاحتكام لمقياسين مختلفين. فانطلاقاً من اعتمادنا على النسب المذكورة، آثرنا استخدام عبارتَيْ: «لم يتمكن معظم الأطفال» و«استطاع ما يناهز نصفهم». ولقد استعملنا هاتين العبارتين بدل إيراد النسب لأن عرضنا للطريقتين اللتين اعتمدناهما لحساب تلك النسب سيتطلب منا تقديم شروح قد تملأ هوامش بحثنا هذا وتضاعف من كمّه، كما أنه سيفرض علينا ملء متن هذه الدراسة بأرقام ونسب لن يعرف القارىء مصدرها إلا بتسطير صفحة كاملة توضّح فيها الطريقة التي اتبعناها للحصول على تلك الأرقام والنسب.

الأولى، وأعضاء الوجه الرتبة الثانية، وأعضاء الجذع الرتبة الثالثة. أما في الرسم، فإن الوجه هو الذي احتل الصدارة ومن بعده الأطراف ثم الجذع. ولا ينبغي أن يُفهم أن قولنا هذا قد استخلصناه من الرتبة التي احتلّها كل جزء من أجزاء جسم المرأة، بل إنه بالرغم من تأكيدنا على أن الأطراف قد احتلت الصدارة في الوصف، فإن بعض أجزائها قد احتلت رتباً متوسطة (الأصابع: الرتبة ١١ - الكتف: الرتبة ١٧...)، وبعضها الآخر احتل رتباً متأخرة كـ«الساق» و«الركبة» و«الذراع» و«الكف»... والأمر نفسه يُمكن قوله بالنسبة لأجزاء «الوجه» و«الجذع». ولذلك، فإن ترتيبنا السابق الذكر قد اعتمدنا فيه على البنيات الجزئية (الوجه، الجذع، الأطراف) دون أن نأخذ بعين الاعتبار الأجزاء المكوِّنة لها، لأن هدفنا كان ولا يزال ينحصر في معرفة مدى أسبقية الكلّ على الجزء أو أولوية الجزء على الكلّ. وتبعاً لتوجهنا هذا يُمكننا القول بأن أطفال هذه المرحلة قد اعتمدوا على استحضار الأعضاء العامة للأطراف[1] (اليد والرجل) وإلى حد ما للجذع أيضاً (الصدر والبطن) قبل وصف أجزائها، بينما غاب ذلك الاستحضار في وصفهم للوجه، حيث إن الأطفال قد شرعوا في تعداد أجزاء الوجه قبل ذكرهم له، مما يبين أسبقية الجزء على الكلّ.

أما بالنسبة للرسم، فإن «الوجه» و«الرأس» قد احتلاّ الصدارة، وأتت من بعدهما الأطراف ثم احتل الجذع الرتبة الثالثة، بحيث يُمكننا القول بأننا لم نسجّل ولو حالة واحدة احتلّ فيها الجزء رتبة متقدمة على الرتبة التي احتلها العضو العام الذي يحتضنه. فـ«العين» و«الفم» و«الشعر» و«الأنف»... إلخ، لم تحتل رتباً سابقة على رتبة «الوجه»، والأمر نفسه يمكن تأكيده بالنسبة لأجزاء الأطراف والجذع، مما يفصح عن أن معظم أطفال هذه المرحلة قد استحضروا البنيات الجزئية التي يتكوّن منها جسم المرأة قبل تجسيدهم للأجزاء التي تتضمنها تلك البنيات. وتبعاً لذلك، يُمكننا أن نستنتج بأن الرسم يختلف عن الوصف اللفظي في المكانة التي يمنحها كل واحد منهما للأطراف والوجه، وفي الأرضية التي يرتكز عليها كل واحد منهما، إذ يُمكننا أن نذهب بعيداً لنقول بأن الوصف اللفظي يستند على الخلفية العاطفية أكثر من المعرفية، وأن الرسم يرتكز على الخلفية المعرفية أكثر من العاطفية. إذ إن الجانب المسيطر على الرسم هو الاهتمام بالعلاقة التي تجمع بين مختلف أجزاء الجسم داخل إطار مكاني محدد، بينما الجانب المهيمن على الوصف ينحصر في العلاقة التي تربط الطفل بجزء معيّن من جسم المرأة أكثر من الأجزاء الأخرى.

وقد يلاحظ القارىء أننا قد ركّزنا تحليلنا على الوجه والأطراف أكثر من الجذع، وهو تركيز مقصود، باعتبار أن ما يهمّنا في الجذع هو «الثدي» و«العضو التناسلي». فبما أن هذين العضوين لم يبرزا في وصف الأطفال ورسمهم لجسم المرأة بشكل مكثّف، فإننا لم نولِ أهمية

---

(١) تقول ميلي دووريتسكي في كتابها: MEILI-DWORETSKI: *L'Image de l'homme*, op. cit., p. 45. «إن أهمية اليدين في صورة الإنسان تبدو واضحة في الاختبارات اللفظية».

كبيرة للجذع، بل إننا قد نذهب إلى حد القول بأن إهمالنا للجذع يعني ضمنياً أن أطفال هذه المرحلة لم يتمكّنوا بعد من التمييز بين الجنسين، مما يدلّ على أن صورة المرأة لم تكتمل عندهم. ونعتقد أنه بعد إجرائنا لمقارنة بين نتائج الوصف والرسم باعتمادنا على معياريْ الكثافة والتراتبية، يحقّ لنا أن ننتقل للتعرّف على مكوّنات صورة المرأة من خلال تصنيفنا وتحليلنا للرسوم الحقيقية التي أنجزها الأطفال.

٤ ـ أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

لا شك أنه بعد انتهائنا من عرض النتائج المرتبطة بوصف جسم المرأة لفظياً، وبعد أن قدمنا النتائج الكمية المتعلقة برسمها، وبعد أن قارنا بين نتائج الوصف ونتائج الرسم، يحقّ لنا أن ننتقل في هذه النقطة إلى الكشف عن أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال تصنيفنا للرسوم التي جمعناها. وهو تصنيف اعتمدنا فيه على معيار «التجاور» و«التمييز» و«الترتيب» و«المحيط» و«الحجم» و«العضو المميّز للمرأة» و«التناسق». وقبل الشروع في ذلك، لا بد من إبداء الملاحظتين التاليتين:

* ترتبط الملاحظة الأولى بتوضيح بعض الخصائص النظرية التي سنعتمدها في تناولنا لرسوم الأطفال بالدراسة والتحليل.. وهي خصائص يمكن تحديد أولاها في أن اهتمامنا، في هذه النقطة، سينصبّ على رصد شكل صورة المرأة أكثر من محتواها. ذلك أننا سنقتصر على الكشف عن أهمّ أنواع البنية الشكلية التي برزت في رسم الأطفال للمرأة. أما ثانيها، فهي أننا لن نهتمّ بالبحث عن الأسس المعرفية التي ساهمت في بلورة صورة المرأة عند الطفل، بل سنهتم أساساً بالكشف عن مظاهر البنية الجسمية للمرأة من خلال تصنيفنا لرسوم الأطفال تبعاً للمعايير التي قدمناها في النقطة الأخيرة من الفصل السابق.. تلك المعايير التي ستفيدنا في رصد الفروق الموجودة بين رسوم الأطفال، أي بين أطفال تمكّنوا من ترجمة الصورة الذهنية للمرأة في رسوم واضحة وكاملة ومتناسقة وبين نظائرهم الذين فشلوا في ترجمة تلك الصورة.

* أما الملاحظة الثانية، فإنها ذات طابع منهجي، لكونها ترتبط بالخطوات التي اتبعناها في تصنيف رسوم الأطفال وترتيبها داخل مجموعات متجانسة.. وهي خطوات بسيطة يُمكننا حصرها في النقطتين التاليتين:

ـ جمع رسوم أطفال هذه المرحلة وعددها ٣٠٠، ثم ترتيبها تبعاً للسن.

ـ تصنيف تلك الرسوم تبعاً لمعيار التجاور والفصل والترتيب والحجم والمحيط والتناسق.. وهي معايير مكّنتنا من تصنيف رسوم الأطفال ضمن مجموعات متعدّدة تتميّز كل واحدة منها بخاصية من الخصائص التالية: غياب بعض الأعضاء من الرسم؛ عدم التناسق والانسجام بين الأجزاء المكونة للرسم؛ عدم وضوح بعض الرسوم؛ جمالية بعضها الآخر؛ إبراز بعض الرسوم للأعضاء التناسلية للمرأة... إلى غير ذلك من الخصائص التي أفادتنا في إيجاد أرضية منطقية لفرز المادة التي جمعناها ولتصنيفها تبعاً لمقاييس واضحة.

ولا ننكر هنا بأننا قد تمكّنا من خلال اعتمادنا على البنية الجسمية لصورة المرأة ـ وتركّز

هنا على مفهوم «البنية الجسمية» لكون العامل الأساسي الذي تحكّم في تصنيفنا لرسوم الأطفال لم يأخذ بعين الاعتبار الأجزاء الدقيقة لجسم المرأة بقدر ما ارتكز على البنيات الجزئية الثلاث: الوجه، الجذع، الأطراف - من الحصول على نتائج نقدمها في الجدول التالي:

الجدول رقم ١٨

أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال رسوم أطفال المرحلة الأولى[١]

أنواع الصور / الأعمار	الصور المبهمة	الصور الناقصة	الصور بدون جذع	الصور الكاملة	المجموع
٤	٢١	٣٥	٣٦	٨	١٠٠
٥	١٤	٣٨	٣٣	١٥	١٠٠
٦	١١	٣٨	٣١	٢٠	١٠٠
المجموع	٤٦	١١١	١٠٠	٤٣	٣٠٠
النسب المئوية	٪١٥,٤	٪٣٧,٠	٪٣٣,٣	٪١٤,٣	٪١٠٠

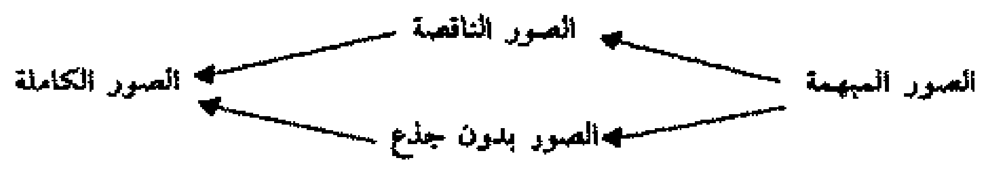
يتضح من خلال ما تضمنه الجدول رقم ١٨ أننا قد صنّفنا رسوم الأطفال ضمن مجموعات أربع: الصور المبهمة، والصور الناقصة، والصور بدون جذع، والصور الكاملة. ويتضح من النتائج أيضاً أن الصور الناقصة والتي لا جذع فيها قد حصلت على نتائج ونسب عالية، حيث تراوح تجسيد الصور الناقصة بين ٣٥ لدى أطفال سنّ الرابعة و٣٨ لدى أطفال سنّ الخامسة والسادسة. أما الصور بدون جذع، فإن نتائجها تراوحت بين ٣٦ لدى أطفال سنّ الرابعة و٣٣ لدى أطفال سنّ الخامسة و٣١ لدى أطفال سنّ السادسة، بينما لم تحظ الصور المبهمة والكاملة بنتائج مرتفعة، حيث تراوح تجسيد الأولى بين ٢١ لدى أطفال سنّ الرابعة و١٤ لدى أطفال سنّ الخامسة و١١ لدى أطفال سنّ السادسة. أما الصورة الكاملة، فإن نتائجها تراوحت بين ٨ لدى أطفال سنّ الرابعة و١٥ لدى أطفال سنّ الخامسة و٢٠ لدى أطفال سنّ السادسة. ومن خلال قراءتنا للنتائج الواردة أعلاه، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

- **الاستنتاج الأول:** ويمكننا اختزاله في القاعدة التالية: كلما تقدّم الأطفال في السن، كلما انخفض تجسيدهم للمرأة في صور مبهمة (من ٢١ إلى ١٤ إلى ١١)، وبدون جذع (من ٣٦ إلى ٣٣ إلى ٣١) ليزداد تجسيدهم للمرأة باعتمادهم على الصور الناقصة والكاملة.

- **الاستنتاج الثاني:** إن تقلّص نسبة ظهور بعض الصور وزيادة نسبة ظهور صور أخرى

(١) بالرغم من أننا قد قدّمنا في الجدول رقم ١٢ نتائج تدلّ على أن الأطفال قد جسّدوا العضو التناسلي للمرأة، فإننا لم نخصص له خانة في الجدول أعلاه، باعتبار أن النتائج التي قدّمناها في الجدول ١٢ قد اعتمدنا في استخلاصها على المعنى الذي منحه الطفل لرسمه. ولذلك، فإننا نؤكد هنا على أن تجسيد الأطفال لذلك العضو كان مبهماً وغير واضح.

يفصح عن تسلسل تكويني مسكوت عنه يُمكننا حصره في القاعدة التالية: إن انخفاض ظهور الصور المبهمة يؤدي إلى زيادة ظهورَ الصور الناقصة والتي لا جذع لها، وتناقص هاتين الأخيرتين يؤدي إلى زيادة ظهور الصور الكاملة، بحيث يمكننا القول بأن اكتمال الصورة يستدعي مرورها بمرحلة الصور الناقصة والصور بدون جذع. ويمستطاعنا اختزال التسلسل السابق في الترسيمة التالية:



ـ الاستنتاج الثالث: إن رسوم أطفال هذه المرحلة لم تجسد بعض الأعضاء الأساسية من جسم المرأة، بحيث يمكن القول إن معظم تلك الرسوم (أي ما نسبته ٨٥,٦٧٪)[١] ناقصة. ذلك أن ما اصطلحنا على تسميته بالصور المبهمة تعني غياب تمثّل علاقة «التجاور» التي تجمع بين مختلف الأعضاء المشكِّلة للبنية الجسمية لصورة المرأة، وما أسميناها بالصور الناقصة تشير إلى أن الرسم ينقصه على الأقل عضو واحد. أما الصور بدون جذع فإن اسمها يعبّر عن غياب أعضاء مهمة منها كـ«الصدر» و«البطن»، وحتى الصور التي أطلقنا عليها اسم الكاملة، فإنها تشكو من نقص بعض الأعضاء، باعتبار أننا نستعمل مفهوم الكمال هنا استعمالاً مجازياً. فنحن نستعمله للإشارة إلى اكتمال البنية العامة لا إلى اكتمال الأجزاء الدقيقة المكوِّنة لها. فيكفي أن يرسم الطفل الوجه والجذع والأطراف ويملأها ببعض الأجزاء لنصنف رسمه ضمن مجموعة الصور الكاملة. ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن المجموعات الأربع السابقة الذكر، سنقدّمها له فيما يلي واحدةً واحدة.

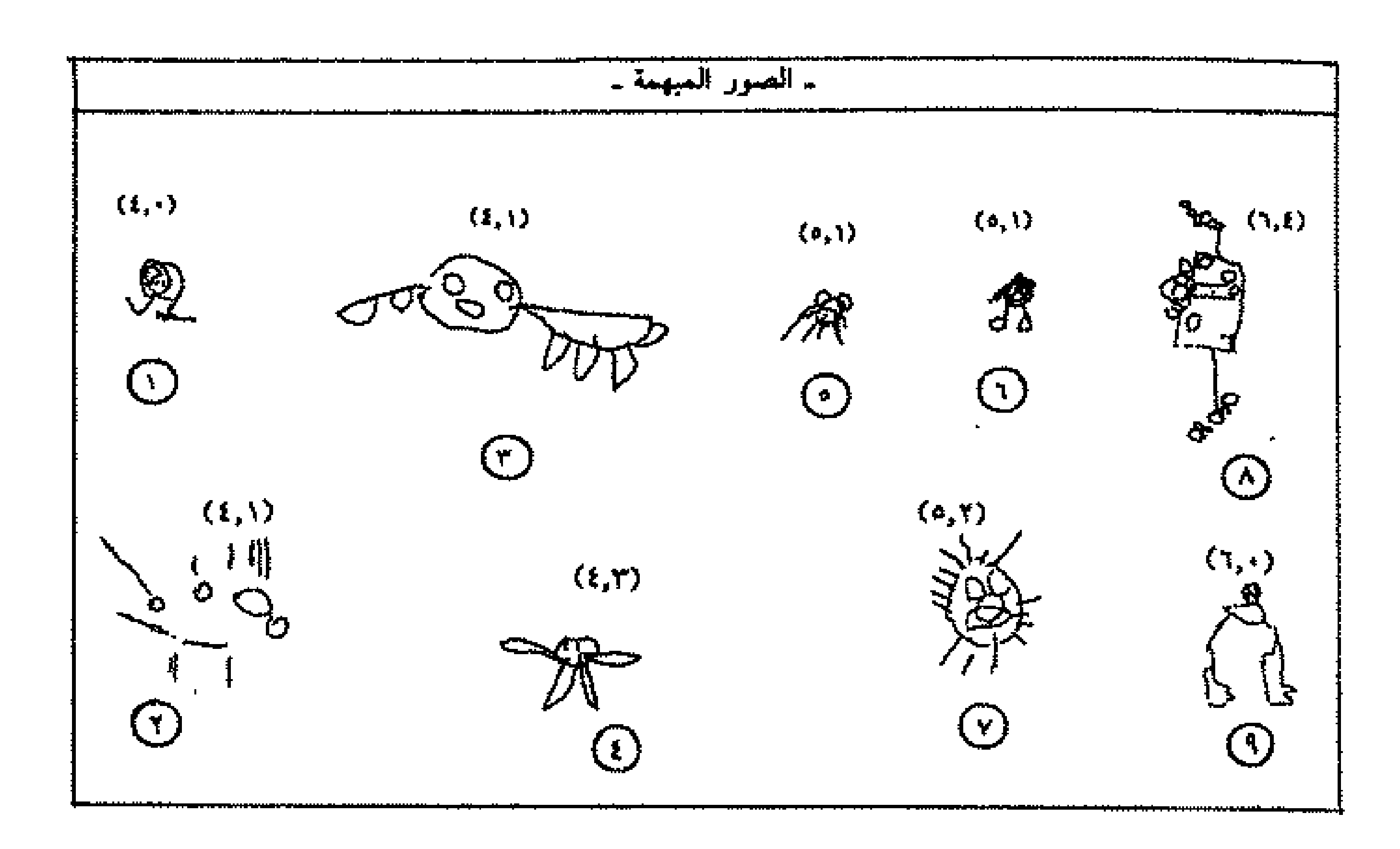
١ ـ الصور المبهمة:

وهي الصور التي تعكس فشل الطفل في تجسيد البنيات الجزئية لجسم المرأة تبعاً لإدراك علاقة «التجاور» و«الترتيب» و«الفصل». قبل أن نشرع في تحليل الرسوم التي تدخل ضمن هذه المجموعة، فإننا آثرنا أن ننطلق من تقديم النماذج التسعة[٢] التالية:

---

(١) لقد حصلنا على نسبة ٨٥,٦٧٪ انطلاقاً من جمعنا بين نسب الصور المبهمة والناقصة وبدون جذع: ١٥,٣٤ + ٣٧ + ٣٣,٣٣ = ٨٥,٦٧٪.

(٢) إننا سنكتفي بتقديم نماذج محدودة فقط، باعتبار أن عرض كل الرسوم سيفرض علينا تضخيم كمّ هذه الدراسة. ولقد قدّمنا تلك النماذج مرفقة بنوعين من الأرقام: أولهما ـ وهو الموجود بين قوسين ـ يشير إلى عمر الطفل، فـ (٤,٧) مثلاً يعني أن الطفل يبلغ أربع سنوات وسبعة شهور. أما ثانيهما ـ وهو الموجود داخل دائرة تحت الرسم أو بجانبه ـ فإنه مجرد رقم يساعدنا على ترتيب الرسوم تبعاً لتسلسل الأعمار، حيث إننا نمنح الأرقام الأولى للأعمار الصغرى والأرقام الكبرى للأعمار الأكثر تقدماً.



يتضح من هذه النماذج ـ وغيرها كثير ـ أن هناك ثلاثة أصناف من الصور المبهمة:

أ ـ تلك التي اكتفى فيها الطفل بتجسيد بعض أجزاء جسم المرأة بشكل مبعثر لا تجمع بينها أية بنية عامة، كالرسم رقم ٢ والرسم رقم ٨.

ب ـ يتضح الصنف الثاني في اكتفاء بعض الأطفال برسم بنية جزئية واحدة من بنيات جسم المرأة، وفي تجسيدهم بجانبها أجزاء مبعثرة غالباً ما تنتمي للجذع والأطراف، كالرسم رقم ٣ والرسم رقم ٧

ج ـ أما الصنف الأخير، وهو الذي برز بشكل كبير في رسوم أطفال هذه المرحلة، فإنه ينحصر في قدرتهم على استحضار بنية من البنيات الجسمية لصورة المرأة ـ وبخاصة الوجه والأطراف ـ دون أن يتمكنوا من تجسيد تلك البنية بشكل واضح ومنسق. ولذلك، فإن الرسوم التي تحمل الأرقام ١ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٩، تنمّ عن أن مجموعة من الأطفال ـ تصل نسبتها إلى ١٥،٣٤٪ ـ لم تتمكن من ترجمة تصوّراتها لجسم المرأة في رسوم واضحة ومنسجمة.

٢ ـ الصور الناقصة:

ونقصد بها الصور التي ينقصها على الأقل جزء واحد من أجزاء جسم المرأة. ويمكننا أن نؤكد منذ الآن على أن هذا النوع من الصور قد برز بشكل ملفت للنظر في رسوم أطفال هذه المرحلة، بحيث إنه بالرغم من أن معظمهم قد تمكّن من تجسيد الإطار العام للبنية

الجسمية لصورة المرأة، فإنهم لم يتوفقوا في رسم كل الأجزاء. ولكي يدرك القارىء ذلك، نقدم له النماذج التالية:

ـ الصور الناقصة ـ

(٤,٢) ① — (٤,٤) ② — (٥,١) ③ — (٥,٢) ④

(٥,٣) ⑤ — (٥,٤) ⑥ — (٥,٤) ⑦ — (٦,٠) ⑧ — (٦,٣) ⑨

إذا نحن تأملنا النماذج أعلاه ـ وغيرها كثير (١١١) ـ، فإننا سنلاحظ غياب مجموعة من الأجزاء المهمة من رسوم الأطفال. فمنهم من نسي رسم الشعر كالرسوم ذات الأرقام ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٨ ـ ٩. ومنهم من لم يرسم اليدين كالرسوم ذات الأرقام ١ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٧ ـ ٩. ومنهم من رسم إطار الوجه دون أن يجسد أجزاءه، كالرسمين رقمي ٧ و٨. ومنهم من اكتفى بتجسيد العينين فقط، كالرسمين رقمي ٤ و٥. وهناك من الأطفال من نسي رسم «الأنف» كالرسوم ذات الأرقام التالية: ٢ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨. وهناك من لم يجسّد «الفم» كالرسوم ذات الارقام: ٤ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨... إلى غير ذلك من الأجزاء التي لم تبرز في رسوم أطفال هذه المرحلة. ولا شك أن هيمنة هذا النوع من الصور على رسومهم إنما يدلّ على قصور كبير في قدرتهم على تجسيد تصوراتهم الذهنية المرتبطة بالأشياء والأشخاص.

٣ ـ الصور بدون جذع[1]:

وتشير هذه إلى الصور التي لا تتضمن أجزاء الجذع وبخاصة «الصدر» و«البطن». وبالرغم من أن بعض تلك الصور لم تجسد أجزاء أخرى تنتمي للوجه والأطراف، فإننا صنّفناها ضمن هذه المجموعة لأننا لم نكن نهتم بغياب تلك الأجزاء بقدر ما كنا نهتم بغياب الجذع. فهدفنا كان ينحصر في منح الأسبقية للرسوم التي لم تجسّد البنيات الجزئية ـ الوجه، الجذع والأطراف ـ على تلك التي لم تجّسد الأعضاء المكوِّنة لتلك البنيات. وقبل أن نقدّم وصفاً موجزاً لهذا النوع من الصور نقدم للقارئ النماذج التالية:

ـ الصور بدون جذع ـ

(١) صورة الإنسان بدون جذع تقابل العبارة الفرنسية: Le bonhomme-tetard.

من خلال تمعننا في هذه النماذج يتبيّن لنا أن الأطفال قد اكتفوا برسم الأطراف والوجه فقط، بحيث إن رسومهم جاءت عبارة عن دوائر - أي وجوه - تقف على خطين، أي الرجلين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه باستثناء أربعة أطفال، ربطوا الرجلين بالكفين، كما يتضح من الرسمين رقمي ٥ و١٤، فإن معظم أطفال هذه المرحلة قد جسّدوا الرجلين على شكل خطين مستقيمين ينطلقان من الرأس. كما أن هناك من جسّدهما على شكل خطوط ملتوية (الرسم رقم ١١). وإننا على اقتناع بأن استحضار الأطفال لصورة المرأة ومحاولة تجسيدها بالاعتماد على الوجه والأطراف فقط قد فرض عليهم اتباع إحدى الطُرق الأربع التالية لرسم اليدين:

* تتمثل الطريقة الأولى في رسم الأطفال لليدين انطلاقاً من الرأس، كما يتضح ذلك من الرسوم ذات الأرقام ١ - ٣ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٢ - ١٥.

* وتتمثّل الطريقة الثانية في رسم اليدين انطلاقاً من الرجلين، كما يتضح ذلك من الرسوم ذات الأرقام ٢ - ١٠ - ١٣ - ١٤.

* تنحصر الطريقة الثالثة في رسم اليدين انطلاقاً من الكتفين، كما يتضح ذلك من الرسمين رقمي ٥ - ١٤.

* وبجانب الطُرُق السابقة، هناك من الأطفال من خلط بين الطريقتين الأولى والثانية حيث رسم يداً انطلاقاً من الرأس وأخرى انطلاقاً من الرِجْل. ويمكننا أن نطلع على هذه الطريقة برجوعنا إلى الرسم رقم ١١. وهناك من الأطفال من وفّر على نفسه عناء البحث عن منطلق اليدين فلم يجسّدهما في رسمه، كما يتضح ذلك من الرسمين رقمَيْ ٤ و٦. ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن الطرق التي اتبعها الأطفال في تجسيد اليدين نقدّم له الجدول التالي:

الجدول رقم ١٩

طرق رسم أطفال المرحلة الأولى لليدين في صورة المرأة بدون جذع

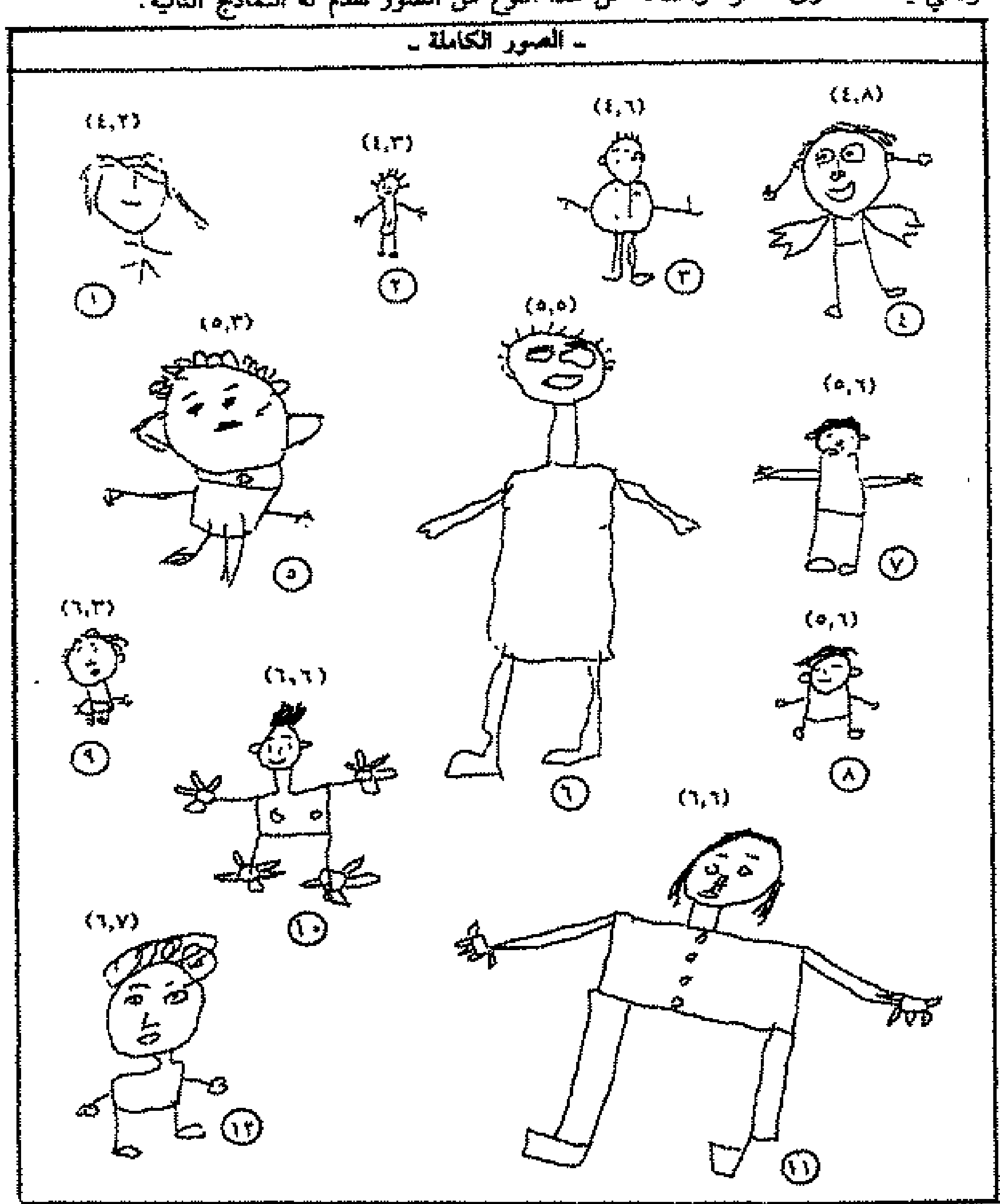
طرق رسم اليدين / النتائج	رسم اليدين من الرأس	رسم اليدين من الرجلين	رسم اليدين من الكتفين	رسم اليدين من الرأس والرجلين	عدم رسم اليدين	المجموع
المجموع	٦١	٢١	٦	٣	٩	١٠٠
النسب المئوية	٦١٪	٢١٪	٦٪	٣٪	٩٪	١٠٠٪

من خلال ما تضمنه الجدول رقم ١٩ من أرقام ونسب مئوية، نستنتج أن طريقة رسم اليدين من الرأس قد برزت بشكل كبير ومكثف (٦١٪)، ثم في الدرجة الثانية طريقة رسم اليدين انطلاقاً من الرجلين (٢١٪)، بينما احتلّت طريقة رسم اليدين انطلاقاً من الكتفين الرتبة الثالثة (٦٪)، وبالرغم من أنها نسبة ضعيفة، فإن دلالتها جدّ مهمّة، باعتبارها مؤشراً يفصح عن إدراك الأطفال لعلاقة اليدين بالجذع، مما سيمكّنهم مستقبلاً من رسم اليدين بطريقة صحيحة.

٤ ـ الصور الكاملة:

وهي الصور التي تمكّن أطفال هذه المرحلة من تجسيد بنياتها الجزئية (الوجه، الجذع، الأطراف). ونركّز هنا على عبارة «بُنيات جزئية»، باعتبار أننا قد صنّفنا صوراً تنقصها أعضاء جسمية مختلفة ضمن الصور الكاملة لأن هدفنا كان ولا يزال ينحصر في الكشف عن مدى قدرة الأطفال على رسم الكلّ قبل الجزء، والأعضاء العامة الكبيرة قبل الخاصة الصغيرة. ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن هذا النوع من الصور نقدّم له النماذج التالية.

ـ الصور الكاملة ـ



يتبين من خلال النماذج أعلاه أن معظم الأطفال قد تمكنوا من رسم البنيات الجزئية التي تتكوّن منها البنية الجسمية العامة لصورة المرأة. لكن بالرغم من توفّقهم في تجسيد تلك البنيات، فإنهم قد فشلوا في خلق نظام منسّق يُراعي خصوصية كل جزء من أجزاء جسم المرأة، ذلك الفشل الذي يُمكننا إبرازه من خلال اعتمادنا على النقطتين التاليتين:

١ ـ ترتبط أولاهما بالشكل الذي اتخذته بنية الصورة عامة، حيث إن بعض الأطفال قد ضخّموا أعضاء على حساب أعضاء أخرى، كما هو الشأن بالنسبة للرأس في الرسوم ذات الأرقام ٤ ـ ٥ ـ ١٢، وكما هو الشأن أيضاً بالنسبة للجذع في الرسمين رقم ٦ ورقم ١١. والأمر نفسه نجده في الرسم رقم ٣ من حيث تجسيده البطن، وفي الرسم رقم ١٠ لجهة تجسيده الكتفين والأصابع والقدمين. ولا شك أن تضخيم أعضاء بدل أخرى ينتج خللاً بين العلاقة التي تجمع الأجزاء بالكلّ من جهة، والأرضية بالشكل من جهة أخرى. ونعتقد أن سبب ذلك يكمن في عدم قدرة أطفال هذه المرحلة على إدراك وتصوّر الحجم الذي يتخذه كل مكوّن من مكوّنات جسم المرأة.

٢ ـ أما النقطة الثانية، فإنها ترتبط أيضاً بالحجم الذي وظّفه الطفل لتجسيد صورة المرأة. فبالرغم من أن الأوراق المخصصة للرسم ذات حجم واحد بالنسبة لجميع الأطفال، فإن أحجام رسومهم قد اختلفت وتباينت، بحيث نجد مثلاً الرسوم ذات الأرقام ١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ صغيرة جداً، وأن مثيلاتها ذات الأرقام ٣ ـ ٤ ـ ٧ ـ ١٠ ـ ١٢ متوسطة، أما الرسمان رقم ٦ ورقم ١١ فحجمهما كبير. وإننا نعتقد بأن تراوح حجم رسوم الأطفال بين الصغر والكبر لا يطرح مشكلاً مهماً من الناحية التجسيدية بقدر ما يطرحه من الناحية العاطفية، باعتبار أن الطفل غالباً ما يربط بين الحجم والقوة: فالكبير الضخم في نظره أقوى من الصغير النحيف. وقولنا إن الحجم لا يطرح مشكلاً من الناحية التجسيدية لا يكتسي أهمية علمية إلاّ في الحالة التي يستتبع فيها ذلك الحجم رسم أجزاء صغيرة لا يحتلّ فيها العضو الصغير حيّزاً مكانياً يفوق ذلك الذي يحتله العضو الكبير. وفعلاً هذا ما لاحظناه في الرسمين رقم ٢ ورقم ٨. ولذلك يمكننا أن نؤكد في هذا المجال أن رسوم الأطفال لا يمكنها أن تتخذ شكلاً مقبولاً إلا إذا هي أخذت بعين الاعتبار علاقة الشكل بالحجم. ومع الأسف فإن الأغلبية الساحقة من تلك الرسوم لم تعبّر عن تناسق دقيق ينسجم فيه الشكل مع الحجم، ويتلاءم فيه الكلّ مع الأجزاء.

انطلاقاً مما سبق، يُمكننا أن نسجل الاستنتاجين التاليين:

ـ الاستنتاج الأول: ويرتبط بالمسار التكويني للبنية الجسمية لصورة المرأة عند أطفال هذه المرحلة، وهو مسار يمتد مداه من الصور المبهمة الى الصور الكاملة مروراً بالصور الناقصة وبالصور بدون جذع. ومن ثم، فإنه مدى يتراوح معرفياً بين تجسيد يرتبط بخطوط و«خربشات» Gribouillage عامة، وتجسيد يبحث عن خلق تنسيق مقبول بين مختلف الأجزاء المكوّنة لجسم المرأة. إلا أن المثير للانتباه في هذا المجال هو أن أغلبية أطفال هذه المرحلة، أي ما يمثل ٧٠,٣٣٪، قد جسّدوا المرأة في صور ناقصة وصور بدون جذع، مما يدفعنا إلى القول بأن أطفال هذه المرحلة يتموضعون معرفياً بين التجسيد المبهم والتجسيد الكامل لصورة

المرأة، بحيث إنهم انتقلوا من رسم هذه الأخيرة من اعتمادهم على خطوط ودوائر(الصور المبهمة)، إلى اعتمادهم على الرأس والأطراف فقط (الصور بدون جذع)، ثم إلى ارتكازهم بعد ذلك على تجسيد أعضاء وإغفال أخرى (الصور الناقصة)، لكي يصلوا في الأخير إلى تجسيد أهمّ البنيات التي تتشكّل منها البنية العامة لصورة المرأة (الصورة الكاملة). وانطلاقاً من هذا التسلسل التكويني يُمكننا القول بأن رسوم أطفال هذه المرحلة قد انتقلت من المبهم إلى الواضح، ومن اللامعنى إلى المعنى، ومن الأجزاء المفككة إلى البنيات الجزئية المكوّنة لجسم المرأة.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ويرتبط بغياب بعض الأعضاء الأساسية من رسوم الأطفال، وبخاصة الأعضاء التناسلية. فباستثناء بعض الرسوم التي جسدت «الثدي» (وعددها ٢٣)، أو «السرة» (وعددها ٤٦)، فإن الرسوم الأخرى لم تحتوِ ما ينمّ عن استحضار الأطفال لأعضاء المرأة التناسلية، مما يفصح عن أن أغلبيتهم لم يتمكنوا بعد من التمييز بين الجنسين تمييزاً دقيقاً وواضحاً. فالجزء الوحيد الذي ظهر كمؤشر حاول الأطفال من خلاله التمييز بين الجنسين هو «الشعر». أما ما عدا ذلك، فإن المتأمل في رسومهم قد يتساءل حول نوع الجنس الذي جسّدوه: هل هو ذكر أم أنثى؟ وهو تساؤل مشروع سنحاول الإجابة عنه لاحقاً. أما الآن، فإننا سننتقل إلى عرض النتائج المرتبطة بالمؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة.

٥ ـ المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الأولى

سنحاول في هذه النقطة، مقاربة مكوّنات صورة المرأة من زاوية أخرى. ذلك أننا بعد أن رصدنا أهم معالم صورة المرأة لدى مختلف أطفال هذه المرحلة من خلال تصنيفنا لأقوالهم ورسومهم، سننتقل إلى رصد معالم صورة المرأة المفضّلة لديهم. ولا غرو أن ذلك الانتقال سيفرض علينا التخلّي نسبياً عن محاورة ذاكرة الطفل لمحاورة خياله، هذا الأخير الذي سيفيدنا في الكشف عن الصورة المفقودة أو المسكوت عنها، أي تلك التي استحضرها الطفل ولم يتمكّن من وصفها أو رسمها.

ولا نخفي في هذا المجال بأن هدفنا من الكشف عن المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى الأطفال ينحصر، بالأساس، في التعرّف على المسار التكويني الذي يتحكّم في تطور الجانب «الجمالي» لديهم، إذ إن وصف الأطفال لمكوّنات صورة المرأة يُعبِّر ضمنياً عن الخلفية الجمالية التي اعتمدوا عليها لوصف أو رسم تلك المكوّنات بشكل متسّق وواضح. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن كشفنا عن تلك الخلفية قد تطلب منا الاعتماد على إجراءات منهجية ثلاثة:

ـ **الإجراء الأول**: ويتمثّل في الحوار الذي أجريناه مع أطفال هذه المرحلة بهدف التعرّف على اختياراتهم المختلفة للمؤشرات التي يفضّلون توفرها في المرأة. . وهو حوار لم يشمل كل أجزاء جسم المرأة، بحيث إننا ركّزنا حديثنا مع الأطفال حول مكوّنات ثمانية هي: الوجه ـ الشعر ـ العين ـ الأنف ـ الفم ـ الهيئة ـ القامة ـ اللون. ولا نخفي هنا بأن عدم اهتمامنا

بالأجزاء الأخرى كان مقصوداً، باعتبار أنه من خلال رصدنا لمؤشرَيْ القامة والهيئة، يمكننا الكشف عن تصوّر الطفل للجذع والأطراف. ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن نوع الحوار الذي أجريناه مع أطفال هذه المرحلة نقدم له النماذج الثلاثة التالية:

* رقم (١٩)، (ب. س)، (٣، ٤): «... طيب، ذكرت لي أجزاء جسم المرأة ورسمتها، قل لي الآن كيف تريد أن يكون وجهها؟- لا أعرف - هل تريده مستديراً أم طويلاً أم عريضاً؟ (إشارة باليد لتوضيح هذه الأشكال) - مستدير - والشعر كيف تريده أن يكون؟- أسود - هل تريده طويلاً أم متوسطاً أم قصيراً؟- طويل - والعينان كيف تريدهما؟- صغيرتان - ولونهما؟- سوداوان - والفم، هل تفضّل أن يكون صغيراً أم متوسطاً أم كبيراً؟- صغير - والأنف؟- صغير أيضاً - وهل تفضّل المرأة الطويلة أم القصيرة أم المتوسطة؟- الطويلة - وهل تفضّلها بدينة أم نحيفة أم متوسطة؟- بدينة - وكيف تحب لونها؟- أبيض - ألا تحب المرأة السوداء؟ - لا - لماذا؟- سكوت...».

* رقم (١١٣)، (ز. ح)، (١، ٥): «... بعد أن ذكرت أجزاء جسم المرأة ورسمتها، أطلب منك أن تحدّد لي وجه المرأة المفضّلة لديك، هل تريده مستديراً أم عريضاً أم طويلاً؟ (إشارة باليد لتوضيح هذه الأشكال - مستديرة - وشعرها، هل تفضّله طويلاً أم قصيراً أم متوسطاً؟ - طويل - وكيف يكون لونه، أسود أم أشقر؟- أسود - ولون العينين، هل تفضّله أسود أم بنياً أم أزرق؟- أسود - وشكل فمها، كبير أم صغير أم متوسط؟- صغير - وأنفها؟- صغير - هل تفضّلها قصيرة أم طويلة؟- طويلة - وهل تفضلها نحيفة أم بدينة أم متوسطة؟- بدينة - ولونها؟- لا أعرف - هل تفضل ذات اللون الأسود أم الأبيض أم الأسمر؟- أبيض...».

* رقم (٢٣٦)، (م. ح)، (٤، ٦): «... بعد أن وصفت المرأة ورسمتها، قل لي كيف تريد أن تكون المرأة المفضّلة لديك، هل تريد أن يكون وجهها طويلاً أم عريضاً أم مستديراً؟- مستدير - وشعرها؟- طويل - وكيف يكون لونه؟- أشقر - وكيف تكون عيناها؟- صغيرتان - وكيف يكون لونهما؟- سوداوان - وفمها، هل تريده كبيراً أم متوسطاً أم صغيراً؟- صغير - وأنفها؟- متوسط - وهل تفضّلها بدينة أم نحيفة أم متوسطة؟- متوسطة - وهل تفضّلها بيضاء أم سمراء أم سوداء؟- بيضاء».

- **الإجراء الثاني**: ويرتبط بتصنيفنا للمادة التي تضمنتها الحوارات التي أجريناها مع أطفال هذه المرحلة، ذلك التصنيف الذي مكّننا من الحصول على نتائج متعددة قُمنا بتلخيصها في الجدول رقم ٢٠ الذي تطالعونه على الصفحة التالية.

الجدول رقم ٢٠

النتائج المرتبطة بالمؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الأولى

الأعمار / عناصر الاختيار	الوجه: مستدير	الوجه: مستطيل	الوجه: عريض	الشعر: طويل أسود	الشعر: طويل أشقر	الشعر: متوسط أسود	الشعر: متوسط أشقر	الشعر: قصير أسود	الشعر: قصير أشقر	العين: كبيرة سوداء	العين: كبيرة زرقاء	العين: كبيرة بنية	العين: متوسطة سوداء	العين: متوسطة زرقاء	العين: متوسطة بنية	العين: صغيرة سوداء	العين: صغيرة زرقاء	العين: صغيرة بنية	الفم: كبير	الفم: متوسط	الفم: صغير	الأنف: كبير	الأنف: متوسط	الأنف: صغير	القامة: طويلة	القامة: متوسطة	القامة: قصيرة	الهيئة: بدينة	الهيئة: متوسطة	الهيئة: نحيفة	اللون: بيضاء	اللون: سمراء	اللون: سوداء	المجموع
٤	٦٠	٢٢	١٨	٣٣	٢٤	٧	١٠	١١	١٥	٢٥	١٠	٤	٠	٢	٨	٣١	١٥	٥	٩	٢٦	٦٥	١٢	١٦	٦٩	٥٨	١٤	٢٨	٥٤	٧	٣٩	٨١	١١	٨	٨٠٠
٥	٥٤	٢٩	١٧	٣٣	١٢	٥	٧	٢٤	١٩	١٨	٩	٨	٢	٦	٣	٣٣	١٢	٩	١٠	٢٧	٦٣	١١	٢٢	٦٧	٥٣	١٨	٢٩	٤٨	١٢	٤٠	٨٤	٩	٧	١٠٠
٦	٥٨	٢٤	١٨	٢٩	٢٦	٩	٨	١٨	١٠	١٦	٣	٥	٦	٩	١١	٢٨	١٥	٧	٩	٣٠	٦١	١٠	٢٨	٦٢	٤٩	٢٦	٢٥	٤١	٢٧	٣٢	٨٠	١٣	٧	٨٠٠
المجموع	١٧٢	٧٥	٥٣	٩٥	٦٢	٣١	٢٥	٥٣	٤٤	٥٩	٢٢	١٧	٨	١٧	٢٢	٩٢	٤٢	٢١	٢٨	٨٣	١٨٩	٣٣	٦٩	١٩٨	١٦٠	٥٨	٨٢	١٤٣	٤٦	١١١	٢٤٥	٣٣	٢٢	٢٤٠٠
الرتب	١	٢	٣	١	٢			٣		٢						١	٣		٣	٢	١	٣	٢	١	١	٣	٢	١	٣	٢	١	٢	٣	

يتضح من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٢٠ أننا قد قسّمنا النتائج التي حصلنا عليها إلى ثمانية محاور، يمثّل كل واحد منها مؤشراً من المؤشرات التالية: الوجه، الشعر، العين، الفم، الأنف، القامة، الهيئة واللون. كما أننا قد قسّمنا كل محور إلى عدد من الخانات تبعاً للأوصاف التي من المحتمل أن يتصف بها كل مؤشر، حيث قسّمنا الوجه إلى: مستدير وطويل وعريض، وقسّمنا الشعر إلى: طويل أسود وطويل أشقر ومتوسط أسود ومتوسط أشقر ثم إلى قصير أسود أو أشقر. وما على القارىء إلا أن يطلع على الخانات الأخرى ليتعرّف على التقسيمات التي تضمّنها الأنف والفم والقامة والهيئة واللون. وبعد أن ضبطنا مختلف التقسيمات والاحتمالات، حدّدنا النتائج التي حصل عليها كل احتمال. فمثلاً، بالنسبة للوجه لدى أطفال سنّ الرابعة، فإن الشكل المستدير قد حصل على ٦٠ اختياراً والطويل على ٢٢ اختياراً والعريض على ١٨ اختياراً فقط. وإذا ما قمنا بعملية جمع بسيطة سنجد أن مجموع الاختيارات يساوي ١٠٠، وهو مجموع يُمثّل عدد أطفال سنّ الرابعة. ولقد اتبعنا الطريقة نفسها لتحديد نتائج الشعر والعين والمؤشرات الأخرى. وبما أن تلك المؤشرات عددها ثمانية، وبما أن كل عمر يضم ١٠٠ طفل، فإن مجموع الاختيارات التي حصلنا عليها قد بلغت ٨٠٠ اختيار. وبعد أن حدّدنا نتائج كل عمر، انتقلنا إلى ضبط المجموع العام والرتبة التي احتلها كل اختيار من الاختيارات التي ترتبط بكل مؤشر من المؤشرات الثمانية السالفة الذكر.

- **الإجراء الثالث**: ويرتبط بالطريقة التي اتبعناها في تحديد المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة. ذلك أنه بعد أن حدّدنا نتائج كل اختيار من الاختيارات المرتبطة بكل مؤشر، انتقلنا إلى ترتيبها تبعاً لمجموعها العام. ولقد اعتمدنا على المجموع العام بدل المجموع الخاص بكل عمر، باعتبار أن ترتيب أجزاء المحاور الثمانية السابقة الذكر تكاد تكون واحدة لدى كل الأعمار التي تتضمّنها هذه المرحلة. ولكي يتعرّف القارىء على المؤشرات الجسمية التي يفضّل الأطفال توفّرها في المرأة، فإننا لن نكتفي بتقديم المؤشرات التي حظيت بالرتبة الأولى أو ما سنصطلح على تسميته بـ«الاختيار الأول»، بل سنقدّم الاختيارين الآخرين اللذين يحتلان الرتبة الثانية والثالثة، وذلك رغبةً منا في أن يملك القارىء أيضاً تصوراً واضحاً عن تراتبيّة صور المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة. والجدول رقم ٢١ يلخّص تلك التراتبية.

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٢١، يتبين لنا أن الأطفال قد عبّروا عن ثلاثة اختيارات، يحتوي كل واحد منها على مؤشرات محدّدة يعتبر الأطفال أن وجودها وتوفّرها في المرأة يمنحها جمالية وتكاملاً جسمياً جذاباً. ولقد عرضنا تلك الاختيارات على أستاذ[1] متخصّص في الرسم، طالبين منه تجسيدها في رسوم ثلاثة، فكانت المحاولة طريفة، بحيث إننا حصلنا على الصور الثلاثة التي ترونها على الصفحة التالية.

---

(١) لقد قام برسم الاختيارات الثلاثة التي عبّر عنها الأطفال الأستاذ محمد المصلوحي، أستاذ الفنون التشكيلية في ثانوية ابن الهيثم بفاس.

الجدول رقم ٢١

تراتبية اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الأولى

المؤشرات / الأعمار	الاختيار الأول								الاختيار الثاني								الاختيار الثالث							
	الوجه	الشعر	العين	الفم	الأنف	القامة	البنية	الأرداف	الوجه	الشعر	العين	الفم	الأنف	القامة	البنية	الأرداف	الوجه	الشعر	العين	الفم	الأنف	القامة	البنية	الأرداف
٤ – ٥ – ٦	مستطيل	طويل أسود	صغيرة مدورة	صغير	صغير	طويلة	بدينة	بارزة	طويل	طويل أشقر	كبيرة مدورة	متوسط	متوسط	قصيرة	نحيفة	صغيرة	عريض	قصير أسود	صغيرة زرقاء	كبير	كبير	متوسطة	متوسطة	مدورة

الاختيار الأول	الاختيار الثاني	الاختيار الثالث

من خلال الصور الثلاث أعلاه التي حاولنا من خلالها تجسيد الاختيارات التي تضمنها الجدول رقم ٢١، يمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالصور الثلاث التي حصلنا عليها من خلال إجرائنا لحوار مع أطفال هذه المرحلة حول المؤشرات الجسمية التي يفضلون توافرها في المرأة. وهي صور رتّبناها تبعاً للنتائج التي قدّمناها في الجدول رقم ٢١. حيث احتلت المرأة البيضاء الممتلئة الطويلة ذات الوجه المستدير والشعر الأسود الطويل والعينين الصغيرتين السوداوين والفم والأنف الصغيرين الرتبة الأولى، بينما احتلت المرأة القصيرة النحيفة ذات اللون الأسمر والشعر الأشقر الطويل والعينين الكبيرتين السوداوين والفم والأنف الصغيرين الرتبة الثانية. أما الرتبة الثالثة، فقد احتلتها المرأة السوداء ذات الوجه العريض والشعر القصير الأسود والعينين الزرقاوين الصغيرتين والأنف والفم الكبيرين. ولقد يعترض القارىء متسائلاً: ما هي الحدود الكمية لظهور كل نموذج من هذه النماذج الثلاثة لدى أطفال هذه المرحلة؟ وهو سؤال مشروع سنحاول الإجابة عليه باعتمادنا على النتائج التي يتضمنها الجدول التالي:

الجدول رقم ٢٢

النتائج المحصل عليها في الاختيارات الثلاثة السابقة الذكر

الاختيارات / النتائج	الاختيار الأول	الاختيار الثاني	الاختيار الثالث	اختيارات مختلطة	المجموع
المجموع	٩٢	٣٣	٢٢	١٥٣	٣٠٠
النسب المئوية	٣٠,٧٪	١١,٠٪	٧,٣٪	٥١,٠٪	١٠٠٪

يتضح من خلال الأرقام والنسب التي يعرضها الجدول رقم ٢٢ أن ٩٢ طفلاً قد اختاروا المؤشرات الجسمية التي عبّر عنها الاختيار الأول، وأن ٣٣ طفلاً قد اختاروا مؤشّرات الاختيار الثاني، فيما لم يفضّل سوى ٢٢ طفلاً مؤشرات الاختيار الثالث. أما الاختيارات المختلطة ـ والتي نقصد بها جمع الأطفال بين مؤشّرات جسمية تنتمي إلى الصور الثلاث أو إلى صورتين بدل واحدة ـ فإنها برزت لدى ١٥٣ طفلاً. وانطلاقاً من هذه النتائج، يُمكننا أن نستنتج بأن الاختيار الأول هو الذي هيمن على تصوّر طفل هذه المرحلة للمرأة «النموذج»، أو ما يمكن أن نسميه تجاوزاً المرأة «المثال». ونعتقد أن السبب الكامن وراء تلك الهيمنة راجع إلى عوامل معرفية وعاطفية واجتماعية وتاريخية متعدّدة. ولا مجال هنا للتفصيل في العاملين الأولين ما دمنا قد تعرّضنا لهما سابقاً في ثنايا هذه الدراسة، ولذلك سنكتفي بالتذكير مع سلوى الخماش بأنه «ما زال المظهر الفيزيائي مسيطراً على ذهنية الفتاة وذهنية الرجل. فالصدور الممتلئة، والبطون المستديرة، والأرداف البارزة، والشعر المسترسل الأسود أو الأشقر، والشفاه الوردية الملتهبة، والوجه المستدير كطلعة البدر، والبشرة الناعمة البيضاء، والأذرع البضّة. . . ما زالت كلها عوامل أساسية لتقييم المرأة وتحديد ثمنها»[1]. ثم أضافت قائلة: «ما زالت نظرة الرجل

---

(١) سلوى الخماش: المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلّف، بيروت، دار الحقيقة، ١٩٧٩، ص ١٠٩.

تعادل «الأنوثة» باللحم الطري الذي يشبه الإسفنج»[1]. إن تقديمنا لهذين النصين لا يعني بتاتاً بأننا متفقون مع سلوى الخماش، وأننا سنتخذ حكمها على نظرة الرجل إلى المرأة كأرضية علمية نفسّر من خلالها اختيار معظم أطفال هذه المرحلة للمرأة التي تتوفر على مؤشرات الاختيار الأول، بل إن عملية التفسير تستدعي منا استحضار عوامل نفسية، كالتأثير الذي يمكن أن تحدثه صورة الأم على اختيارات الطفل؛ ومعرفية، كعلاقة الشكل بالأجزاء أو البنية بالمحتوى؛ فضلاً عن عوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية. إلاّ أنه بالرغم من ذلك، لا يُمكننا أن ننكر بأن تقديمنا لنصي الخماش السابقين كان بدافع إثارتنا لقضيتين قابلتين للبحث والاستقصاء:

ـ تنحصر أولاهما في تحكّم التطوّر التاريخي في تحوّل القيم الجمالية لدى الأفراد، بحيث يُمكننا القول مع الخماش: «فمع أن مقياس الجمال الأنثوي كان عند اليونان القدماء يتمثّل في المرأة الممتلئة قليلاً، كما يُلاحظ في التماثيل والرسوم، إلا أن هذا المقياس أخذ يتطور بشكل عام، وبتطور المجتمعات عموماً، إلى تفضيل المرأة الممتلئة، كما يُلاحظ في رسوم عصر النهضة وما تلاها»[2]، إلى أن أصبح الرجل الغربي يفضّل المرأة النحيفة ذات القامة الرشيقة.

ـ أما القضية الثانية ـ وهي الأهمّ ـ، فإنها تنحصر في طرحنا لمشكلة يمكنها أن تشكّل موضوع دراسة أخرى. وهي مشكلة تتحدد في مدى إيجاد علاقة تكوينية تجمع بين تطور مقياس الجمال عبر التاريخ ومقياس الجمال لدى الطفل خلال مساره التكويني.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بعلاقة البنية بالأجزاء، تلك العلاقة التي طبعتها في كثير من الأحيان العشوائية وعدم التنظيم، باعتبار أن ما لا يقل عن ٢٠٨ أطفال قد عبّروا عن مؤشرات جسمية غير منسجمة، حيث إن الجمع بينها قد أدى بنا إلى الحصول على صور لا تخضع لمقاييس جمالية مقبولة. فيكفي أن يتأمل القارىء الصورتين اللتين احتلتا الرتبتين الثانية والثالثة ليدرك ذلك. إذ إننا نجد الأطفال الذين اختاروا المؤشرات الجسمية للصورة التي احتلت الرتبة الأخيرة قد جمعوا بين اللون الأسود والعينين الزرقاوين والأنف والفم الكبيرين. . . وهو جمع يدلّ على أن الأطفال لم يختاروا تلك المؤشرات انطلاقاً من استحضارهم للبنية العامة لصورة المرأة، بحيث يُمكننا القول بأنهم ـ أثناء تحديدهم للمؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لديهم ـ منحوا الأولوية للجزء على الكل وللخاص على العام.

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالسابق، باعتبار أن الصور الثلاث المشار إليها لا تنمّ عن جمالية واضحة، إذ يمكننا أن نؤكد على أن مقياس الجمال يكاد يكون غائباً لدى طفل هذه المرحلة. ونركّز هنا على كلمة «يكاد» لأن كل صورة من تلك الصور تتضمّن مؤشرات إيجابية وأخرى سلبية. ولا بد من الإشارة إلى أن نسبة الإيجاب والسلب تختلف من صورة إلى

---

(١) المرجع نفسه والصفحة ذاتها. وقد أوردت نوال السعداوي الأفكار نفسها في كتابها: المرأة والجنس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤، ص ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٩.

أخرى، حيث يُمكننا القول إن تلك النسبة تزيد إيجابيتها كلما تمكن الطفل من خلق انسجام بين الأجزاء، أي كلما تمكن من تصوّر تلك الأجزاء داخل إطار عام يجمع بينها. وكلما غاب ذلك التصوّر، غاب التنسيق والانسجام، مما يؤدي إلى غياب جمالية الصورة. وتبعاً لهذه القاعدة، يُمكننا القول بأن تصور طفل هذه المرحلة للمرأة يغلب عليه عدم التنسيق على التنسيق، وتسيطر فيه الأجزاء على البنية، وتختلط فيه مقاييس الجمال إلى حد يغلب فيه الغموض على الوضوح والناقص على الكامل واللانظام على النظام.

خاتمة

انطلاقاً مما سبق، يتبين للقارىء أننا قد حاولنا الإجابة على الأسئلة الخمسة التي أوردناها في مقدمة هذا الفصل. ولقد تطلّبت منا تلك الإجابة عرض نتائج ترتبط بوصف أطفال هذه المرحلة لجسم المرأة ورسمهم له، ثم مقارنة تلك النتائج ببعضها للوقوف على أهم الفروق الموجودة بين أقوال الأطفال ورسومهم.

ولقد كان من الممكن أن نتوقف عند هذا الحد من التحليل، إلا أننا قد آثرنا في تحليل المادة التي حصلنا عليها الكشف، من جهة، عن أنواع الرسوم التي جسّد من خلالها الأطفال صورة المرأة، وللتعرّف، من جهة أخرى، عن المؤشرات الجسمية التي يفضّلون توفرها في المرأة. ولا شك أن عرضنا للنتائج لم يكن جافاً وصامتاً، لأننا كنا نسجّل وقفات متعددة لاستنتاج ما يُمكن استنتاجه ولاعطاء بُعد تفسيري للنتائج التي حصلنا عليها. ولا ننكر في هذا المجال بأن تفسيرنا لمعظم تلك النتائج كان دقيقاً ومقتضباً، باعتبار أن الإسهاب في التفسير كان سيتطلّب منا كتابة ضعف حجم هذا الفصل، ولذلك فضّلنا أن نقدم النتائج مرفقة ببعض التفسيرات التي تكشف عن دلالة ومعنى تلك النتائج.

ولا ننكر أيضاً بأننا لم نقدم للقارىء إلاّ جزءاً من النتائج التي استخلصناها من المادة التي أخضعناها للتصنيف والتحليل، باعتبار أن عرضها كاملةً كان سيفرض علينا كتابة فصل آخر قد يفوق حجمه حجم هذا الفصل. ويُمكننا القول إجمالاً بأن تلك النتائج قد أدت بنا إلى الاقتناع بالأمرين التاليين:

- ينحصر الأمر الأول في أن صورة المرأة عند أطفال هذه المرحلة لم تكتمل بعد، بحيث إن استحضارهم ووصفهم ورسمهم وتخيلهم لتلك الصورة لم يتمّ ضمن اعتمادهم على بنية عامة تحتضن أجزاء منسقة ومنسجمة، مما أدى بهم إلى الإفصاح ـ قولاً ورسماً ـ عن صور ناقصة ومشوّهة للمرأة، ولذلك غاب الجانب الجمالي من مختلف تجسيداتهم لها.

- أما الأمر الثاني، فيتمثّل في اقتناعنا بأن الأرضية التي صدرت عنها أوصاف الأطفال ورسومهم للمرأة مزدوجة يلتقي فيها المعرفي بالعاطفي. ولقد حاولنا أن نستفيد من ذلك الازدواج في تفسيرنا للنتائج، حيث توصلنا إلى تأكيد القاعدة التالية: كما ظهرت الأجزاء قبل البنية العامة اعتمدنا في التفسير على الخلفية العاطفية؛ وكلما ظهرت البنية العامة قبل الأجزاء فسّرنا ذلك بالاعتماد على الأرضية المعرفية. إلا أن هذه القاعدة لا تتميز بالثبات والسكون، بل إنها ديناميكية مرنة، حيث إن منحنا الأولوية للخلفية العاطفية لا يعني أننا نتجاوز نهائياً

الخلفية المعرفية. فهذه الأخيرة تظل حاضرة وفارضة وجودها، مما يؤكد أن صورة المرأة تتموضع فوق أرضية يلتقي فيها المعرفي بالعاطفي. وبما أننا سنتطرق في خاتمة هذا الكتاب إلى ذلك الالتقاء، فإننا سنكتفي فيما تبقى من هذا الفصل بتسجيل أهمّ الخلاصات التي توصلنا إليها من خلال تحليلنا للمادة التي عرضناها في الصفحات السابقة... وهي خلاصات يُمكننا حصرها في النقاط الخمس التالية:

١ ـ إن رسم أطفال هذه المرحلة لصورة المرأة كان أغنى تعبيراً وأكثر كثافةً من وصفهم لها.

٢ ـ إذا كان أطفال هذه المرحلة قد منحوا ـ في وصفهم للمرأة ـ الأسبقية للأجزاء على البنيات الجزئية، فإنهم قد منحوا ـ في رسومهم ـ الأولوية للبنيات الجزئية على الأعضاء المكوّنة لها، مما يدلّ على أن الخلفية المعرفية والعاطفية التي يرتكز عليها الرسم تختلف عن تلك التي يستند عليها الوصف.

٣ ـ لم يتمكن معظم أطفال هذه المرحلة من تجسيد مكوّنات جسم المرأة في رسوم كاملة ومنسّقة، ذلك أن أغلبهم قد رسم صوراً ناقصة ومبهمة، مما يدفعنا إلى القول بأن أطفال هذه المرحلة لم يتمكنوا بعد من ترجمة صورة المرأة في رسوم تحترم علاقات التجاور والفصل والترتيب والحجم والتناسق وغيرها من العلاقات التي يُعتبر حضورها ضرورياً لخلق تناسق صحيح بين البنية الجسمية العامة والبنيات الجزئية ومختلف الأعضاء.

٤ ـ كلما تقدّم الأطفال في السن، زاد وصفهم لمكوّنات جسم المرأة.

٥ ـ كلما تقدم الأطفال في السن، اتخذ رسمهم لمكوّنات جسم المرأة شكلاً مقبولاً وواضحاً.

تلك هي أهم الخلاصات التي سنحاول مناقشتها في خاتمة هذا العمل. وهي خلاصات ترتبط بتكوّن صورة المرأة في المرحلة التي تمتد بين عمر ٤ و٦ سنوات. لذلك لا يُمكننا تعميمها على الأعمار الأخرى، باعتبار أن صورة المرأة ستشهد خلالها تغيّرات مهمة. فما هي تلك التغيرات؟ سؤال سنخصص الفصلين المقبلين للإجابة عنه.

الفصل الثالث

مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل [من عمر ٧ إلى ١١ سنة]

تمهيد

بعد أن خصّصنا الفصل الثاني بكامله للكشف عن معالم وخصائص مرحلة «تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل»، سنفرد الفصل الثالث هذا للتعرّف عن مميّزات مرحلة أخرى اصطلحنا على تسميتها بـ«مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل» واستخدمنا مفهوم «التأسيس» تحديداً لسببين إثنين:

ـ يكمن السبب الأول في أن معظم الأطفال الذين تجاوزوا سنّ السادسة، إن لم نقلْ كلهم، قد عبّروا في وصفهم لجسم المرأة أو رسمهم له عن بنية عامة تتضمن بنيات جزئية متناسقة نسبياً. وهو تعبير لم نعثر عليه لدى أطفال المرحلة السابقة إلاّ بشكل ضعيف وباهت. لذلك آثرنا استعمال عبارة «تأسيس البنية العامة» لتجسيد التطوّر الذي عكسته نتائج هذه المرحلة.. وهو تطوّر مهم ما دام أنه قد مسّ البنية العامة لصورة المرأة، أي أنه مسّ عملية استحضار الصورة ووسيلة التعبير عنها. فهو إذن تطوّر يمّس عمق تصوّر الطفل للمرأة، مما أدى إلى تأسيس بنية عامة تتسم بالنظام والتناسق.

ـ أما السبب الثاني، فإنه يرتبط بالسابق، باعتبار أن عملية التأسيس لم تشمل البنية الجسمية العامة لصورة المرأة فحسب، بل امتدت لتطال البنيات الجزئية التي تتشكّل منها تلك البنية، ونعني بها: الرأس، الجذع والأطراف.. تلك البنيات التي لم تعد مجرد إطار يحتضن أجزاء مبعثرة، بل أصبحت إطاراً يطبعه النظام والتناسق، مما يدلّ على أن وصف الطفل ورسمه لصورة المرأة ينبثقان عن أرضية تصورية أكثر تطوراً من تلك التي تعرّفنا عليها في الفصل السابق.

ولا نخفي في هذا المجال بأن هذين السببين قد شكلا الركيزة العلمية التي اعتمدنا عليها للتمييز بين مرحلتَيْ «تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة» و«تأسيس بنيتها العامة». ولا ينبغي أن يُفهم من استخدامنا لكلمة «التمييز» أننا نذهب إلى حد القول بالقطيعة بين المرحلتين المذكورتين، بل إنه بالرغم من اعترافنا بأن هناك فروقاً جوهرية بينهما، فإن مفهوم «التأسيس»

يُعتبر ـ من وجهة نظرنا ـ «تبلوراً» من الدرجة الثانية، أي من درجة أرقى من تلك التي أبرزنا بعض معالمها في الفصل السابق. ولذلك، فإن مرحلة «التأسيس» تكمّل مرحلة «التبلور» من الناحية التكوينية. وما دام الأمر كذلك، فإننا سنحاول اختزال حجم هذا الفصل، باعتبار أننا سنتّبع في كتابته الخطوات ذاتها التي اتبعناها في الفصل السابق.. وهي خطوات يمكننا حصرها في المحاور الخمسة التالية:

١) البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

٢) البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم.

٣) مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم.

٤) أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم.

٥) المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة عند أطفال المرحلة الثانية.

١ ـ البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي

بما أننا قد أكّدنا في التمهيد السابق على أن الفترة الممتدة بين عمر ٧ و١١ سنة تُعتبر مرحلة تتأسس خلالها البنية العامة لصورة المرأة من جهة، وبنياتها الجزئية من جهة أخرى، فإنه أضحى من اللازم علينا أن نقسم النتائج التي حصلنا عليها ـ من خلال تصنيفنا وتحليلنا للمادة المرتبطة بالوصف اللفظي ـ إلى النقطتين التاليتين:

أ) النتائج المرتبطة بالبنية العامة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

ب) النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية المكونة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

أ ـ النتائج المرتبطة بالبنية العامة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي:

ونقصد بها النتائج المتعلقة بالبنية العامة لصورة المرأة، وهي نتائج تحاول أن تجسّد كمياً المسار التكويني الذي طبع تصوّر أطفال هذه المرحلة لمكوّنات جسم المرأة. ومن ثم فهي نتائج غزيرة ومستفيضة سيتم عرضها وتحليلها بالتدريج عبر النقطتين التاليتين اللتين سيتضمنهما هذا القسم من الفصل الثالث. ويُمكننا القول بأن ما سنقدمه في النقطة الأولى لا يعدو أن يكون تحليلاً عاماً يمسّ البنية العامة لجسم المرأة ككل دون أن يمسّ البنيات الجزئية المكوِّنة لها، ودون أن يمسّ أيضاً الأعضاء المكوّنة لتلك البنية الجزئية. أما ما سنقدمه في النقطة الثانية، فإنه يرتبط مباشرة بالبنيات الجزئية وبالأعضاء المكوّنة لها.

غير أنه بالرغم من فصلنا بين هاتين النقطتين، فإننا سنعرض النتائج المرتبطة بالبنية العامة وبالبنيات الجزئية وبالأعضاء في جدول واحد. ولكي يتمكّن القارىء من التعرّف على تلك النتائج، سنقدمها له في الجدول الجامع رقم ٢٣.

الجدول رقم ٢٣

النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي لدى أطفال المرحلة الثانية

الأعمار / أجزاء الجسم	الرأس: رأس	شعر	وجه	حاجب	عين	أشفار	خد	أنف	فم	شفة	أسنان	لسان	أذن	المجموع
٧	٧٣	٤٥	١٨	٥	٦٤	٠	٠	٦٨	٦٤	٠	٢	٦	٥٦	٤٠٠
٨	٧٨	٥٣	١٩	٤	٦٣	٠	٠	٧٣	٦٤	١	٢	٥	٦١	٤٢٢
٩	٧٨	٥١	٢٣	١١	٧٠	٨	٣	٧٥	٥٦	٠	٣	٤	٦٩	٤٥١
١٠	٨٣	٥٦	١٨	١٣	٨٠	١١	٥	٨٠	٦٤	٠	٤	٥	٧٣	٤٩٢
١١	٨٢	٦٠	٢٣	١٤	٨١	٩	٤	٦٨	٦٢	٦	٦	٤	٧٧	٤٩٥
المجموع	٣٩٤	٢٦٥	١٠١	٤٧	٣٥٧	٢٨	١٢	٣٦٤	٣١٠	٧	١٧	٢٤	٣٣٦	٢٢٦٠
النسب المئوية														٪٦٠,٧

الأعمار / أجزاء الجسم	الجذع: عنق	صدر	ثدي	بطن	ظهر	سرة	أعضاء تناسلية	المجموع
٧	٩	٢	٩	٣٢	١١	٣	٨	٧٤
٨	١١	٧	١١	٣٥	٤	٠	١٠	٧٨
٩	١٠	١٤	١٩	٣٧	٧	٠	٢٠	١٠٧
١٠	١٤	١٦	٢٣	٣٥	٨	٢	٢٤	١٢٢
١١	١٣	١٩	٢١	٤١	٧	٤	٣٢	١٣٧
المجموع	٥٧	٥٨	٨٣	١٨٠	٣٧	٩	٩٤	٥١٨
النسب المئوية								٪١٣,٩

الأعمار / أجزاء الجسم	الأطراف: كتف	ذراع	يد	كف	أصابع	أظافر	ساق	ركبة	رجل	قدم	المجموع	المجموع العام
٧	٦	٠	٧٨	٠	١٠	٠	١	٣	٨٨	٠	١٨٢	٦٥٦
٨	١	١	٧٦	٠	٩	٠	١	٣	٨٣	٠	١٧٤	٦٧٤
٩	٧	٠	٨٠	١	١٠	٢	٣	٣	٨٤	١	١٨٨	٧٤٦
١٠	٦	٢	٨١	١	١٣	١	٠	٢	٨٥	٢	١٩٣	٨٠٧
١١	٩	٥	٨٧	٠	٧	١	٧	٥	٨١	٤	٢٠٦	٨٣٨
المجموع	٢٥	٨	٤٠٢	٢	٤٩	٤	١٢	١٦	٤١٨	٧	٩٤٣	٣٧٢١
النسب المئوية											٪٢٥,٣	٪١٠٠

من خلال النتائج التي تضمنها الجدول رقم ٢٣، يُمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

ـ الاستنتاج الأول: ويرتبط بالمسار التكويني الذي أفصحت عنه مختلف النتائج الواردة في هذا الجدول. . وهو مسار يُمكننا حصر دلالته في القاعدتين التاليتين:

* تتمثل القاعدة الأولى في العبارة التالية: كلما تقدّم الأطفال في العمر، ارتفع تمدادهم لأعضاء جسم المرأة، حيث بلغ عددها ٦٥٦ عضواً في سنّ السابعة، و٦٧٤ في سنّ الثامنة، و٧٤٦ في سنّ التاسعة، و٨٠٧ في سنّ العاشرة، و٨٣٨ في سنّ الحادية عشرة، مما يعبّر عن غنى بنية صورة المرأة واكتمالها مع تقدّم الطفل في السنّ.

* أما القاعدة الثانية، فإنها تنحصر في العبارة التالية: كلما تقدّم الأطفال في العمر، ارتفع عدد الأعضاء التي يتمكنون من ذكرها أثناء وصفهم لجسم المرأة، حيث بلغ عددها ٢٣ عضواً في سنّ السابعة، و٢٤ في سنّ الثامنة، و٢٧ في السنة التاسعة، و٢٨ في السنة العاشرة، و٢٩ في السنة الحادية عشرة، مما يفصح عن أن مكوّنات بنية صورة المرأة تزداد اكتمالاً وتنوعاً بانتقال الطفل من عمر إلى آخر.

ـ الاستنتاج الثاني: ويتعلّق بالفروق الكميّة الموجودة بين مختلف النتائج التي حظيت بها البنيات الجزئية (الرأس، الجذع، الأطراف)، بحيث يُمكننا ـ من خلال تمعننا في النتائج التي تضمنها الجدول رقم ٢٣ ـ استنتاج القاعدتين التاليتين:

* ترتبط أولاهما بما أوردناه في الاستنتاج الأول. ويمكننا التعبير عن هذه القاعدة بتوظيفنا للصيغة التالية: كلما تقدّم الأطفال في السنّ، وارتفع عدد تمدادهم لمكوّنات الرأس والجذع والأطراف، بحيث نلاحظ مثلاً أن النتائج المرتبطة بمكوّنات الرأس قد ارتفعت من ٤٠٠ في سنّ السابعة، إلى ٤٢٢ في سنّ الثامنة، إلى ٤٥١ في سنّ التاسعة، إلى ٤٩٢ في سنّ العاشرة. . لتصل إلى حدود ٤٩٥ في سنّ الحادية عشرة. والقاعدة نفسها يمكن تعميمها على نتائج الجذع والأطراف. ولا شك أن غنى البنيات الجزئية سيساهم بشكل فعّال في اكتمال ونضج البنية العامة لصورة المرأة.

* أما القاعدة الثانية، فإنها تتعلق بنوع التراتبية التي خضعت لها البنيات الجزئية المكوّنة لصورة المرأة، حيث نلاحظ أن الرأس قد احتل الرتبة الأولى لدى كل الأعمار، والأطراف احتلت الرتبة الثانية، بينما احتل الجذع الرتبة الثالثة.

ولكي يتمكّن القارىء من التعرّف على الأسباب الكامنة وراء هذا الترتيب، وعن الأعضاء المكونة للبنيات الجزئية، سننتقل رأساً إلى عرض النتائج المرتبطة بتلك البنيات.

ب ـ النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية المكونة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي:

سنتناول البنيات الجزئية بالدراسة والتحليل من خلال اعتمادنا على المحاور الثلاثة التالية:

١) النتائج المرتبطة بالرأس.

٢) النتائج المرتبطة بالجذع.

٣) النتائج المرتبطة بالأطراف.

١ ـ النتائج المرتبطة بالرأس (الوجه):

من خلال قراءتنا للنتائج المتعلقة بالرأس، والتي أوردناها في الجدول رقم ٢٣، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالنتائج المرتفعة التي حصلت عليها بعض أعضاء بنية الرأس دون الأخرى، حيث نجد أن أطفال هذه المرحلة لم يتمكّنوا من وصف بعض الأعضاء بشكل مستفيض كـ«الوجه» و«الحاجبين» و«الأشفار» و«الخدين» و«الشفتين» و«الأسنان» و«اللسان»، بينما تمكّنوا من وصف أعضاء أخرى كـ«الرأس» و«الشعر» و«العينين» و«الأنف» و«الفم» و«الأذنين»، مما يدلّ على أن بنية الرأس لم تكتمل بعد لدى أطفال هذه المرحلة.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويتعلّق بالمسار التكويني الذي اتخذته بنية الرأس، ذلك المسار الذي يُمكننا حصره في القاعدة التالية: كلما تقدّم الأطفال في السنّ، زاد تعدادهم لمكونات بنية الرأس. فإذا كان طفل هذه المرحلة قد تمكّن من ذكر ١٠ أعضاء في سنّ السابعة، فإنه قد استطاع تعداد ١١ عضواً في سنّ الثامنة، و١٢ عضواً في سنّ التاسعة والعاشرة، و١٣ عضواً في سنّ الحادية عشرة، مما يفصح عن أن بنية الرأس لم تكتمل بعد لدى أطفال هذه المرحلة.

ـ **الاستنتاج الثالث:** ويرتبط بالمكانة التي احتلها كل عضو من الأعضاء المكوّنة للرأس. وهي مكانة ستفيدنا في الكشف عن الأرضية التصوّرية التي ارتكز عليها أطفال هذه المرحلة لوصف أجزاء «رأس» المرأة. إلا أنه قبل كشفنا عن تلك الأرضية، لا بد من أن نقدم النتائج التي يتضمنها الجدول التالي:

الجدول رقم ٢٤

ترتيب أجزاء بنية الرأس لدى أطفال المرحلة الثانية

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
الأجزاء / العمر	رأس	أنف	فم	عين	أذن	شعر	وجه	لسان	حاجب	أسنان	أشفار	خد	شفة
٧	٧٢	٦٨	٦٤	٦٤	٥٦	٤٥	١٨	٦	٥	٢	٠	٠	٠
الأجزاء / العمر	رأس	أنف	فم	عين	أذن	شعر	وجه	لسان	حاجب	أسنان	شفة	أشفار	خد
٨	٧٨	٧٣	٦٤	٦٢	٦١	٥٣	١٩	٥	٤	٢	١	٠	٠
الأجزاء / العمر	رأس	أنف	عين	أذن	فم	شعر	وجه	حاجب	أشفار	لسان	أسنان	خد	شفة
٩	٧٨	٧٥	٧٠	٦٩	٥٦	٥١	٢٣	١١	٨	٤	٣	٣	٠
الأجزاء / العمر	رأس	أنف	عين	أذن	فم	شعر	وجه	حاجب	أشفار	لسان	خد	أسنان	شفة
١٠	٨٣	٨٠	٨٠	٧٣	١٤	٦٥	١٨	١٣	١١	٥	٥	٤	٠
الأجزاء / العمر	رأس	عين	أذن	أنف	فم	شعر	وجه	حاجب	أشفار	أسنان	شفة	خد	لسان
١١	٨١	٨١	٧٧	٦٨	٦٢	٦٠	٢٣	١٤	٩	٦	٥	٤	٤

من خلال ما تضمّنه الجدول رقم ٢٤، يُمكننا تسجيل الملاحظات الثلاث التالية:

١ ـ ترتبط الملاحظة **الأولى** باحتلال الرأس للرتبة الأولى لدى كل أعمار هذه المرحلة، مما يشير إلى أن الأطفال قد استحضروا بنية الرأس قبل تعداد مكوّناتها. ونعتقد أن منح الأولوية للبنية على الأجزاء يُعتبر تقدماً ملموساً على المستوى المعرفي. ولا شك أن القارىء سيتساءل عن سبب احتلال الوجه للرتبة السابعة بالرغم من كونه يمثل إطاراً عاماً وبنية جزئية تتكوّن من عدة أعضاء (العين، الحاجب، الأشفار، الفم... إلخ). وهو تساؤل مشروع طرحناه بدورنا ووقفنا عنده كثيراً، بحيث إننا كنا نتوقع أن يحتل الوجه الرتبة الأولى أو الثانية. وبما أنه لم يحتل إحدى هاتين الرتبتين، فإننا قد عملنا على البحث عن الأسباب الكامنة وراء ذلك، فوجدنا أن الأغلبية الساحقة من الأطفال، ما يناهز ٣٩٢ طفلاً[1]. الذين ذكروا الرأس لم يذكروا الوجه، وأن العدد القليل منهم، وعددهم ١٠١ طفل[2]، الذين ذكروا الوجه لم يذكروا الرأس. ولذلك، فإنه إذا كان الرأس يُعتبر لدى الأغلبية بنية تحتضن أجزاء الوجه، فإن الوجه لدى بعض الأطفال هو الذي يُعتبر البنية التي تحتوي أجزاء الرأس. وتبعاً لذلك، فإننا نعتقد أن احتلال الرأس للرتبة الأولى لم يكن ليتم لولا استعمال أطفال هذه المرحلة لكلمة «رأس» بدل «وجه» للتعبير عن المنطقة الموجودة بين الشعر والعنق.. وهي بطبيعة الحال المنطقة التي يحتل فيها الوجه المكانة البارزة. ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أن الأمر الذي أثار انتباهنا لا ينحصر في استخدام طفل هذه المرحلة لكلمة: «رأس» أو «وجه» للتعبير عن بنية من البنيات الجزئية التي يتكوّن منها جسم المرأة، بل ينحصر في الرتبة التي احتلتها «الرأس»، فهي رتبة تفصح عن أن الطفل قد بدأ يذكر العام قبل الخاص، ويمنح الاولوية للبنية على الاعضاء المكوِّنة لها، وهذا في حد ذاته تطوّر مهمّ على المستوى المعرفي.

٢ ـ تنحصر الملاحظة الثانية في الرتب المتقدمة التي احتلتها أعضاء الحواس التي يتضمنها الرأس (الانف، الفم، العين، الأذن). ولا شك أنها رتب معقولة إذا أخذنا بعين الاعتبار الوظائف التي تؤديها تلك الأعضاء الحسّية. ولا نخفي هنا بأن تراجع الرتبة التي احتلها الفم من الرتبة الثالثة في سنّ السابعة والثامنة، إلى الرتبة الخامسة في سنّ التاسعة والعاشرة والحادية عشرة قد أثار انتباهنا. وهو تراجع نعتقد أن أسبابه عاطفية أكثر منها معرفية، باعتبار أن الفم، الذي كان يمثّل العضو الاساسي للإشباع وتفريغ الطاقة الليبيدية، قد أصبح يتنازل عن مركزه لاعضاء أخرى كالعين والانف والاذن. ذلك أن طفل هذه المرحلة لم يعد مرتبطاً باللّذة التي يقدمها الفم فقط، بل إنه أصبح يستمتع أيضاً بما تقدّمه له العين والاذن.

٣ ـ ترتبط الملاحظة الثالثة بالرتب المتأخرة التي احتلتها أعضاء مهمة كـ«الشعر» و«الحاجب» و«الاشفار» و«الخد» و«الشفتين» ولقد استعملنا صفة «مهمة»، لكونها الاعضاء التي تميّز المرأة عن الرجل. ولكي لا نبالغ نقول إنها تمثّل الاعضاء التي تعتمد عليها المرأة لإبراز أنوثتها. ولا شك أن احتلال تلك الاعضاء لرتب متدنية يدلّ على أن طفل هذه المرحلة يصف جسم المرأة من دون استحضار للأعضاء التي تُبرز جماليتها وأنوثتها، بحيث يمكننا أن نذهب بعيداً لنقول بأنه قد وصف

---

(١) تمثّل ٣٩٢ نسبة ٧٨,٤٪ تبعاً للقاعدة التالية: (٣٩٢×١٠٠)÷٥٠٠ = ٧٨,٤٪.

(٢) تمثّل ١٠١ نسبة ٢٠,٢٪ تبعاً للقاعدة نفسها.

جسم المرأة من خلال استحضاره لجسم الرجل. فطفل هذه المرحلة ركزّ على ذكر أعضاء تؤدي وظائف حسّية حركية وأهمل ذكر أعضاء تؤدي وظائف جمالية. وبتعبير آخر، فإنه قد توفّق في وصف ما هو مشترك بين الجنسين أكثر مما توفّق في وصف ما يميز أحدهما عن الآخر. ولا شك أن هذا القصور يشير إلى عدم اكتمال صورة المرأة عند أطفال هذه المرحلة.

٢ ـ النتائج المرتبطة بالجذع:

من خلال قراءتنا للنتائج المرتبطة بالجذع، والتي أوردناها في الجدول رقم ٢٣، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالنتائج الضعيفة التي حصلت عليها مختلف أجزاء الجذع، حيث تراوحت تلك النتائج بين صفر و٤١، مما يدلّ على أن صورة الجذع لم تكتمل بعد لدى أطفال هذه المرحلة، وأن بنيته ما زالت في مرحلة التأسيس.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويتعلّق بالمسار التكويني الذي يُمكننا أن نكشف عن معالمه من خلال قراءتنا للنتائج التي حصل عليها الجذع لدى كل عمر زمني، بحيث إن تلك النتائج قد انتقلت من ٧٤ في سنّ السابعة، إلى ٧٨ في سنّ الثامنة، إلى ١٠٧ في سنّ التاسعة، إلى ١٢٢ في سنّ العاشرة.. لتصل إلى حدود ١٣٧ في سنّ الحادية عشرة، مما يدلّ على أنه كلما تقدم الأطفال في العمر، زاد وصفهم لمكوّنات الجذع.

ـ **الاستنتاج الثالث:** ويرتبط بالرتبة التي يحتلها كل عضو من أعضاء الجذع، تلك الرتبة التي تعكس أهمية كل عضو ومكانته لدى أطفال هذه المرحلة، وسنقدمها للقارىء ملخّصة في الجدول أدناه:

الجدول رقم ٢٥

ترتيب أعضاء بنية الجذع لدى أطفال المرحلة الثانية

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
الأجزاء / العمر	بطن	ظهر	عنق	ثدي	أعضاء تناسلية	سرة	صدر
٧	٣٢	١١	٩	٩	٨	٣	٢
الأجزاء / العمر	بطن	عنق	ثدي	أعضاء تناسلية	صدر	ظهر	سرة
٨	٣٥	١١	١١	١٠	٧	٤	٠
الأجزاء / العمر	بطن	أعضاء تناسلية	ثدي	صدر	عنق	ظهر	سرة
٩	٣٧	٢٠	١٩	١٤	١٠	٧	٠
الأجزاء / العمر	بطن	أعضاء تناسلية	ثدي	صدر	عنق	ظهر	سرة
١٠	٣٥	٢٤	٢٣	١٦	١٤	٨	٢
الأجزاء / العمر	بطن	أعضاء تناسلية	ثدي	صدر	عنق	ظهر	سرة
١١	٤١	٣٢	٢١	١٩	١٣	٧	٤

من خلال تمعننا في الرتب التي احتلتها مختلف الأعضاء المكوِّنة لجذع المرأة، يُمكننا تسجيل الملاحظتين التاليتين:

١ ـ الملاحظة الأولى هي احتلال البطن للرتبة الأولى لدى كل أعمار هذه المرحلة، مما يفصح عن أن الأطفال قد استحضروا العام قبل الخاص، باعتبار أن البطن يمثّل الإطار الذي يضمّ الأعضاء الأخرى كـ«الثدي» و«السّرة» و«العضو التناسلي». إلا أن هناك من يعرض متسائلاً عن سبب احتلال الصدر لرتب متوسطة أو متأخرة (الرتبة الأخيرة في سنّ السابعة، والرتبة الخامسة في سنّ الثامنة، والرتبة الرابعة في سنّ التاسعة والعاشرة والحادية عشرة). وهو تساؤل مشروع، خاصةً إذا علمنا أن الصدر يُمثّل إطاراً لا يقلّ أهمية عن ذاك الذي يمثّله البطن. ولقد دفعنا ذلك التساؤل إلى البحث عن الأسباب الكامنة وراء احتلال الصدر لرتب متأخرة عن البطن، فوجدناها أسباباً متطابقة مع تلك التي كانت وراء احتلال الوجه لرتبة متأخرة عن الرأس، بحيث إن معظم الأطفال الذين ذكروا البطن لم يذكروا الصدر، لكون العضوين يمثّلان ـ في نظرهم ـ شيئاً واحداً. ونعتقد أن الأطفال قد منحوا الأولوية للبطن على الصدر لما له من علاقة بالإشباع وتحصيل اللّذة.

٢ ـ وترتبط الملاحظة الثانية بالرتب التي احتلتها الأعضاء التناسلية لدى مختلف أعمار هذه المرحلة، بحيث إنها انتقلت من الرتبة الخامسة لدى أطفال سنّ السابعة، إلى الرتبة الرابعة لدى أطفال سنّ الثامنة، لتستقر في الرتبة الثانية لدى أطفال سنّ التاسعة والعاشرة والحادية عشرة. مما يتيح لنا القول بأنه: كلّما تقدم الأطفال في العمر، زاد استحضارهم للأعضاء التناسلية وتعدادهم لأجزائها، مما يدلّ على أنهم أصبحوا قادرين ـ إلى حد ما ـ على التمييز بين الجنسين. ولا نخفي في هذا المجال أننا كنا نتوقع أن تحصل الأعضاء التناسلية على نتائج أفضل من التي حصلت عليها، إلا أن وجود طفلنا في مرحلة الكمون، بالإضافة إلى عامل الحياء والتحرج، قد حالا دون تزكية ذلك التوقع. كما أننا لا نخفي أيضاً أننا كنا نتوقع أن يحتل «الثدي» رتبة متقدمة على الأعضاء التناسلية، إلا أن ذلك التوقع لم يتحقق لسبب نظنه كامناً في تلاشي العلاقة الصميمية التي كانت تجمع بين الطفل وأمه، أو فلنقلْ بين الفم والثدي. فكما أن الفم قد فقد مكانته كمنطقة شبقية أساسية، فإن «الثدي» هو الآخر لم يعد يمثّل مصدر الإشباع، مما أدى بطفل هذه المرحلة إلى البحث عن بدائل أخرى للإشباع، ومن أهمها الأعضاء التناسلية. . هذه الأخيرة التي تميّزه عن المرأة وتمنحه حق التباهي برجولته.

٣ ـ النتائج المرتبطة بالأطراف:

سننتقل في هذه النقطة إلى عرض الاستنتاجات المتعلقة بالنتائج التي حصلت عليها الأطراف، وهي نتائج سبق وأن أوردناها في الجدول رقم ٢٣. ومن خلال قراءتنا لمضامين ذلك الجدول، يُمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

الاستنتاج الأول: ويرتبط بالمسار التكويني الذي يُمكننا الكشف عنه من خلال قراءتنا للنتائج التي حصلت عليها الأطراف. . تلك النتائج التي انتقلت من ١٨٢ في سنّ السابعة، إلى ١٧٤ في سنّ الثامنة، إلى ١٨٨ في سنّ التاسعة، إلى ١٩٣ في سنّ العاشرة. لتصل إلى حدود ٢٠٦ في سنّ الحادية عشرة. وهو انتقال يُعبّر بكل وضوح عن أنه كلما تقدّم الأطفال

في العمر، تنوع وصفهم لأطراف المرأة.

الاستنتاج الثاني: ويتعلق بالمكانة التي تحتلها الأعضاء المكونة للأطراف. تلك المكانة التي يُمكننا الكشف عن دلالتها بارتكازنا على مضامين الجدول رقم ٢٦ أدناه.

فمن خلال قراءتنا لمحتوى الجدول رقم ٢٦، يمكننا القول بأن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من وصف بعض الأعضاء العامة كـ«الرِجْل» و«اليد» بشكل مكثّف ومستفيض، بينما فشلوا في تعداد أعضاء أخرى كـ«الأصابع» و«الركبة» و«الكتف» و«الساق» و«الذراع» و«الكف» و«الأظافر» و«القدم» بالكثافة ذاتها، مما يدلّ على أن معظم الأطفال قد استحضروا صورتي الرِجْل واليد فعبّروا عنهما لفظياً دون أن يكترثوا بذكر الأعضاء المكونة لهما. ونعتقد أن سبب عدم ذكر الأطفال لتلك الأعضاء يرجع إلى أنهم يعتقدون أن الرِجْل واليد يختزلان الأعضاء الأخرى. إذ يمكن - في نظرهم - ذكر الرِجْل فقط ليفهم المتلقي بأنهم يقصدون الساق والركبة والقدم والأصابع... وغيرها من الأعضاء. والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لليد. ومن ثم، فإن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من وصف بنية الأطراف دون أن يهتمّوا بوصف مكوّنات تلك البنية.

الجدول رقم ٢٦

ترتيب أجزاء بنية الأطراف لدى أطفال المرحلة الثانية

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
الأعضاء / العمر	رجل	يد	أصابع	ركبة	كتف	ساق	ذراع	كف	أظافر	قدم
٧	٨٨	٧٨	١٠	٣	٢	١	٠	٠	٠	٠
الأعضاء / العمر	رجل	يد	أصابع	ركبة	كتف	ساق	ذراع	كف	أظافر	قدم
٨	٨٣	٧٦	٩	٣	١	١	١	٠	٠	٠
الأعضاء / العمر	رجل	يد	أصابع	كتف	ركبة	ساق	أظافر	كف	قدم	ذراع
٩	٨١	٨٠	١٠	٧	٣	٣	٢	١	١	٠
الأعضاء / العمر	رجل	يد	أصابع	كتف	ركبة	قدم	ذراع	كف	أظافر	ساق
١٠	٨١	٨٥	١٣	٦	٢	٢	٢	١	١	٠
الأعضاء / العمر	يد	رجل	كتف	أصابع	ساق	ذراع	ركبة	قدم	أظافر	كف
١١	٨٧	٨١	٩	٧	٧	٥	٥	٤	١	٠

يتضح مما أوردناه في النقطة الأولى من هذا الفصل أننا قد حاولنا الإحاطة بالبنية الجسمية العامة لصورة المرأة وبنياتها الجزئية. وهي إحاطة تميّزت بتقديمنا للنتائج المرتبطة بمختلف البنيات من جهة وللاستنتاجات المنبثقة عن تلك النتائج من جهة أخرى. وبالرغم من أنها استنتاجات كثيرة، فإنه بإمكاننا اختزالها في النقاط الثلاث التالية:

١ - لقد تمكن أطفال هذه المرحلة من إعطاء الأولوية للعام على الخاص وللبنية على الأعضاء، بحيث إنهم ذكروا الرأس والبطن والرِجْل واليد قبل ذكرهم للأعضاء التي تتكوّن منها تلك البنيات.

٢ ـ من خلال النتائج التي تضمّنها الجدول رقم ٢٣ نلاحظ بأن الرأس قد حصل على نتائج تفوق تلك التي حصلت عليها الأطراف والجذع لدى كل أعمار هذه المرحلة. وبالمثل، فإن الأطراف قد حصلت على نتائج تفوق تلك التي حصل عليها الجذع. فيكفي أن نشير إلى أنه من بين ٣٧٢١ وصفاً لفظياً لأعضاء جسم المرأة، استحوذ الرأس على ٢٢٦٠ وصفاً لفظياً أي ما يناهز نسبته ٦٠,٧٤٪؛ وحصلت الأطراف على ٩٤٣ وصفاً لفظياً، أي ما نسبته ٢٥,٣٤٪؛ في حين حصل الجذع على ٥١٨ وصفاً لفظياً، أي ما نسبته: ١٣,٩٢٪.. قلنا يكفي أن نشير إلى هذه النسب المئوية لندرك الأهمية التي حظي بها الرأس لدى أطفال هذه المرحلة.

٣ ـ من خلال النتائج التي عرضناها في الجدول رقم ٢٣، يُمكننا استنتاج القاعدة التكوينية التالية: كلما تقدّم الأطفال في العمر، زاد وصفهم اللفظي للبنية الجسمية لصورة المرأة ولمكوّنات بنياتها الجزئية، مما يؤكد على أن تلك الصورة تتجه نحو الاكتمال والنضج. ولا شك أنه بعد تقديمنا لهذه الخلاصات الثلاث، علينا أن ننتقل إلى تقديم النتائج المرتبطة بالرسم، لكي نتمكن بعد ذلك من عقد مقارنة بين الوصف اللفظي لطفل هذه المرحلة ورسمه.

٢ ـ البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

قبل أن نقدم للقارىء النتائج المرتبطة برسم أطفال هذه المرحلة لمكوّنات جسم المرأة، لا بد من التأكيد على أننا قد اتبعنا في الحصول على تلك النتائج الطريقة ذاتها التي اتبعناها في الفصل الثاني، حيث إننا عملنا ـ بمساعدة الأطفال ـ على ترجمة الرسوم إلى لغة ثم إلى أرقام، نلخّصها كلها في الجدول رقم ٢٧ الذي تجدونه على الصفحة التالية.

يتبيّن مما تضمنه الجدول رقم ٢٧ أنه يقدّم نتائج ترتبط بالبنيات الجزئية المكوّنة لصورة المرأة، ونعني بها: الرأس والجذع والأطراف. وهي نتائج يمكننا الخروج من قراءتها بتسجيل استنتاجات تتعلّق كل مجموعة منها ببنية من هذه البنيات الجزئية. وبما أنها بنيات ثلاث، فإننا سنقدم الاستنتاجات المتعلقة بها من خلال اعتمادنا على النقاط التالية:

١) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالرأس.
٢) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالجذع.
٣) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالأطراف.

١ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالرأس:

ويُمكننا حصرها في ثلاثة:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالفروق الكمية الموجودة بين مختلف الأعضاء المكوّنة للرأس، ذلك أن بعضها قد حصل على نتائج مرتفعة كـ«الرأس» و«الوجه» و«العين» و«الفم»، وبعضها الآخر حصل على نتائج متوسطة كـ«الجبهة» و«الذقن» و«الحاجب» و«الأذن»، بينما لم تحصل الأعضاء المتبقية إلا على نتائج ضعيفة، ونعني بها: «الأشفار» و«الأسنان» و«الشفتين» و«الخد». ولا شك أن الفروق الموجودة بين نتائج مختلف الأعضاء تحتمل قراءات متعدّدة وتساؤلات كثيرة من قبيل: لماذا تمكّن الأطفال من رسم الوجه وفشلوا في تجسيد «الخد»؟ لماذا لم يتمكّنوا من تجسيد «الشفتين»؟ لماذا لم يستطع ما يناهز نصفهم رسم «الأذنين»؟ لماذا رسم معظمهم العين بدون «أشفار»؟... وغيرها من الأسئلة التي تحتاج إلى تحليل دقيق

الجدول رقم ٢٧

النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم لدى أطفال المرحلة الثانية

	أجزاء الجسم / الأعمار	٧	٨	٩	١٠	١١	المجموع	النسبة المئوية
الرأس	رأس	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٥٠٠	
	شعر	٦٣	٦٨	٧٤	٨٣	٩١	٣٧٩	
	رقبة	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٥٠٠	
	جبهة	٦٤	٧٧	٧٤	٨١	٧٩	٣٦٥	
	حاجب	٣٩	٤٤	٤٧	٤٤	٥٣	٢٢٧	
	عين	٩٤	٩٦	٩٨	١٠٠	٩٩	٤٨٧	
	أظافر	٩	١٢	١٤	١٩	١٧	٧١	
	خد	٠	٠	١	١	١	٣	
	أنف	٦٣	٦٩	٦٨	٧٠	٧٩	٣٤٩	
	فم	٧١	٨١	٧٩	٨٦	٩٦	٤١٣	
	شفة	٢	٢	٣	٥	٩	٢١	
	أسنان	٤	٦	٥	٨	٩	٣٢	
	ذقن	٦٤	٧٠	٧١	٧٣	٨٢	٣٦٠	
	أذن	٣١	٢٧	٣٨	٤٥	٤٩	١٩٠	
المجموع		٧٠٤	٧٤٢	٧٧٤	٨١٥	٨٦٤	٣٨٩٧	٤٧,٦٪
الجذع	عنق	٦١	٤٩	٧٠	٦٢	٧٨	٣٢٠	
	صدر	٦٢	٧٢	٨١	٨٥	٩١	٣٩١	
	ثدي	١٣	١١	١٩	٢٣	٢٦	٩٢	
	بطن	٦٢	٧٧	٨١	٨٥	٨٨	٣٩٣	
	ظهر	٠	٠	٠	١	٠	١	
	سرة	٢٧	٢٥	١٦	١٤	٢٠	١٠٢	
	أعضاء تناسلية	٩	١٣	١٢	١٩	٢٢	٧٥	
المجموع		٢٢٤	٢٦٢	٢٧٩	٢٨٩	٣١٥	١٣٧٩	١٦,٨٪
الأطراف	كتف	٥٢	٥٩	٧١	٦٤	٧٤	٣٢٠	
	ذراع	٥٢	٥٧	٦٣	٦٧	٧٧	٣١٦	
	يد	٨٧	٩٠	٩٣	٩٨	٩٧	٤٦٥	
	كف	٤١	٣٨	٥٣	٥٨	٥٦	٢٤٦	
	أصابع	٦١	٦٩	٥٨	٦٨	٦٤	٣٢٠	
	أظافر	٠	٢	٠	٤	٢	٨	
	ساق	٢٦	٣٢	٣١	٤١	٢٩	١٦٠	
	ركبة	٨	١١	١٠	٩	١١	٤٩	
	رجل	٩٢	٩٤	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٤٨٦	
	قدم	٥٨	٦٢	٧١	٧٧	٧٥	٣٤٣	
	بنان	٣١	٣٤	٤٣	٤٢	٥١	٢٠١	
المجموع		٥١٢	٥٣٩	٥٩٣	٦٢٨	٦٤٦	٢٩١٩	٣٥,٦٪
المجموع العام		١٤٠١	١٥٤٢	١٦٤٤	١٧٣٢	١٨٢٨	٨١٥٠	١٠٠٪

ومستفيض قد يتطلّب منا كتابة فصل بكامله. ولذلك، فإننا سنكتفي بذكر بعض الأسباب التي كانت وراء توفّق الأطفال في تجسيد أعضاء معيّنة وإخفاقهم في رسم اعضاء أخرى. فـ«الأذن» مثلاً لم تظهر في رسوم ما يناهز نصفهم لأن الشعر كان يغطيها، مما يدلّ على أن استحضارها قد تمّ ولكن تجسيدها قد تعذّر. أما «الخد»، فإنه لم يحصل على نتائج مرتفعة لأننا لم نعتبر تجسيده صحيحاً إلاّ في الحالة التي يستخدم فيها الطفل مؤشراً معيّناً يوحي من خلاله للمشاهد بأنه جسّد «الخد» فعلاً. وبما أن الأغلبية الساحقة من الأطفال قد رسمت «الوجه» دون وضع إشارة معينة تعكس تصورهم لـ«الخد»، فإننا قد اعتبرنا رسومهم ناقصة. والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لـ«الأشفار» و«الشفتين». غير أنه بالرغم من عدم توفّق كل أطفال هذه المرحلة في تجسيد كل أجزاء الرأس، فإن النتيجة التي استوقفتنا أكثر من غيرها هي أنهم تمكّنوا جميعاً من رسم الرأس والوجه، أي من تجسيد الإطارين العامين اللذين يحتضنان الأعضاء الأخرى. ومن ثم، يُمكننا أن نؤكد على أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من تجسيد البنية الجزئية أكثر من تجسيدهم لمكوّناتها. وهو تأكيد يشير بكل وضوح إلى أن صورة المرأة لم تكتمل لديهم بعد.

ـ الاستنتاج الثاني: ويُمكننا حصره في القاعدة التالية: كلما تقدّم الأطفال في السن، زاد رسمهم لأعضاء رأس المرأة. إذ نلاحظ أن تجسيدهم لتلك الأعضاء قد انتقل من ٧٠٤ في سن السابعة، إلى ٧٤٢ في سنّ الثامنة، إلى ٧٧٢ في سنّ التاسعة، إلى ٨١٥ في سنّ العاشرة، إلى ٨٦٤ في سنّ الحادية عشرة، مما يدلّ على أن استحضار أطفال هذه المرحلة لبنية الرأس وتجسيدهم لها اتخذا مساراً تكوينياً متصاعداً.

ـ الاستنتاج الثالث: إن الفروق الكمية الموجودة بين مختلف أعضاء الرأس لا يمكن إدراك دلالتها الحقيقية إلاّ بترتيبنا لها تبعاً للنتائج التي تضمنها الجدول رقم ٢٣، وهو ترتيب لخّصنا معالمه في الجدول التالي:

الجدول رقم ٢٨

ترتيب أجزاء بنية الرأس لدى أطفال المرحلة الثانية

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	عين	فم	ذقن	جبهة	أنف	شعر	حاجب	أذن	أشفار	أسنان	شفة	خد
٧	١٠٠	١٠٠	٩٤	٧١	٦٤	٦٤	٦٣	٦٣	٣٩	٣١	٩	٤	٢	٠
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	عين	فم	ذقن	أنف	شعر	جبهة	حاجب	أذن	أشفار	أسنان	شفة	خد
٨	١٠٠	١٠٠	٩٦	٨١	٧٠	٦٩	٦٨	٦٧	٤٤	٢٧	١٢	٦	٢	٠
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	عين	فم	جبهة	شعر	ذقن	أنف	حاجب	أذن	أشفار	أسنان	شفة	خد
٩	١٠٠	١٠٠	٩٨	٧٩	٧٤	٧٤	٧١	٦٨	٤٧	٣٨	١٤	٥	٣	١
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	عين	فم	شعر	جبهة	ذقن	أنف	أذن	حاجب	أشفار	أسنان	شفة	خد
١٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٨٦	٨٣	٨١	٧٣	٧٠	٤٥	٤٤	١٩	٨	٥	١
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	عين	فم	شعر	ذقن	جبهة	أنف	حاجب	أذن	أشفار	أسنان	شفة	خد
١١	١٠٠	١٠٠	٩٩	٩٦	٩١	٨٢	٧٩	٧٩	٥٣	٤٩	١٧	٩	٩	١

يتبين مما تضمنه الجدول رقم ٢٨ أن «الرأس» و«الوجه» و«العين» و«الفم» قد حافظت على الرتب نفسها لدى كل أعمار هذه المرحلة، مما يفصح عن حضورها المكثف في رسوم الأطفال. أما «الذقن» و«الجبهة» و«الأنف» و«الشعر»، فإنها قد تأرجحت بين الرتبة ٥ والرتبة ٨ تبعاً للرتبة التي تحتلها لدى كل عمر زمني معين. بينما احتل «الحاجب» و«الأذن» و«الأشفار» و«الأسنان» و«الشفتان» و«الخد» رتباً متأخرة تتراوح بين الرتبة ٩ والرتبة ١٤.

ومن خلال تمعّننا في الرتب التي احتلتها مختلف الأعضاء يُمكننا تسجيل الملاحظتين التاليتين:

١ ـ تتعلّق الملاحظة الأولى برتبة «الرأس» و«الوجه»، تلك الرتبة التي تشير إلى أن أطفال هذه المرحلة قد منحوا الأولوية للأعضاء العامة على الخاصة، وللبنية على الأعضاء المكوِّنة لها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ظاهرة الاختزال والتكثيف التي طبعت وصف الأطفال اللفظي لوجه المرأة ورأسها قد تلاشت إن لم نقُل اختفت نهائياً من رسومهم. ذلك أنه إذا كان بإمكانهم في الوصف اللفظي أن يستعملوا كلمة «رأس» للإشارة إلى «الوجه»، فإن تلك الإمكانية قد أصبحت مستحيلة في الرسم، بحيث أضحى من المفروض عليهم أن يجسّدوا في رسومهم «الرأس» و«الوجه» معاً.

٢ ـ ترتبط الملاحظة الثانية بالرتب المتأخرة التي احتلتها الأعضاء التي عادة ما تعتمد عليها المرأة لإبراز أنوثتها، ونعني بها على الخصوص: «الحاجب»، «الأشفار»، «الشفتين»، «الخد». ولا غرو أن إهمال طفل هذه المرحلة لتلك الأعضاء إنما ينمّ عن عدم اهتمامه بجمالية المرأة، إن لم نقل عدم تمييزه بينها وبين الرجل. ولا شك أن قولنا هذا قد يكون مبالغاً فيه، ولكي نتحقّق من مدى صحته سننتقل إلى عرض النتائج المرتبطة بالجذع.

٢ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالجذع:

ويمكننا حصرها في ثلاثة:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويرتبط بالنتائج المتوسطة أو الضعيفة التي حصلت عليها مختلف الأعضاء المكونة للجذع، بحيث إن أقصاها قد بلغ ٦٢ بالنسبة لـ«الصدر» و«البطن»، و٦١ بالنسبة لـ«العنق». أما الأعضاء الأخرى فقد حصلت على نتائج تتراوح بين ٢٧ و٩. غير أنه بالرغم من ذلك، فإن أهم ما يُمكن أن نسجله في هذا المضمار ينحصر في النتيجتين اللتين حصل عليهما «الصدر» و«البطن»، باعتبارهما العضوين اللذين يُشكّلان الإطار الذي تتموضع فوقه الأعضاء الأخرى، مما يفصح عن أن طفل هذه المرحلة قد جسّد العام قبل الخاص، والبنية قبل الأعضاء.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ويتعلق بالمسار التكويني الذي يُمكننا استخلاصه من قراءتنا للنتائج التي حصل عليها الجذع لدى مختلف أعمار هذه المرحلة، حيث انتقلت تلك النتائج من ٢٣٤ في سن السابعة، إلى ٢٦٢ في سنّ الثامنة، إلى ٢٧٩ في سنّ التاسعة، إلى ٢٨٩ في سنّ العاشرة... لتصل تلك النتائج إلى حدود ٣١٥ لدى أطفال سنّ الحادية عشرة. ولا شك أن هذا التعاقب الكمّي المتدرج ينمّ عن مسار تكويني مهمّ سينتهي بالطفل ـ في مرحلة لاحقة ـ إلى اكتمال بنية صورة المرأة عنده.

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالرتب التي احتلتها مختلف الأعضاء المكوّنة للجذع، وهي رتب لخصّناها في الجدول أدناه:

الجدول رقم ٢٩

ترتيب أجزاء الجذع لدى أطفال المرحلة الثانية

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	سرة	ثدي	أعضاء تناسلية	ظهر
٧	٦٢	٦٢	٦١	٢٧	١٣	٩	٠
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	سرة	أعضاء تناسلية	ثدي	ظهر
٨	٧٧	٧٧	٥٩	٢٥	١٣	١١	٠
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	ثدي	سرة	أعضاء تناسلية	ظهر
٩	٨١	٨١	٧٠	١٩	١٦	١٢	٠
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	ثدي	أعضاء تناسلية	سرة	ظهر
١٠	٨٥	٨٥	٦٢	٢٣	١٩	١٤	١
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	ثدي	أعضاء تناسلية	سرة	ظهر
١١	٩١	٨٨	٦٨	٢٦	٢٢	٢٠	١

يتضح مما تضمنه الجدول رقم ٢٩ أن «الصدر» و«البطن» و«العنق» قد احتلت صدارة الترتيب. وهو أمر نعتبره طبيعياً لكون «الصدر» و«البطن» يشكّلان الأرضية التي تتموضع فوقها أجزاء الجذع كلها، ولكون «العنق» يُمثل العضو الذي يربط «الرأس» بـ«الجذع».

إلاّ أنه إذا كانت الرتب التي احتلتها الأعضاء السالفة الذكر متوقعة، فإن الرتبة التي احتلتها الأعضاء التناسلية والثدي تفصح عن أمرين:

* يتمثّل أولهما في فشل معظم الأطفال في التعبير عن الأعضاء التناسلية باعتمادهم على الرسم، مما يُفصح عن عدم تمكّنهم من التمييز بين الجنسين.

* أما الأمر الثاني، فيتمثّل في أن الثدي لم يحظ بالمكانة البارزة التي كان يحتلها في المرحلة السابقة. ونفضّل أن نقف عند هذا المستوى من التحليل ما دمنا سنفصّل القول في نتائج الأعضاء الأخرى أثناء تعرّضنا لمقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم. غير أنه قبل ذلك، علينا أن نقدّم أهم الاستنتاجات المرتبطة بنتائج الأطراف.

٣ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالأطراف:

ويُمكننا تحديدها في الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالمسار التكويني الذي يُمكننا استخلاصه من خلال قراءتنا للنتائج التي قدمناها في الجدول رقم ٢٣، بحيث نلاحظ بأنه كما تقدم الأطفال في السنّ، زادت قدرتهم على تجسيد مختلف الأعضاء المكوّنة للأطراف. إذ بلغ مجموع ذلك التجسيد ٣١٥ لدى أطفال سنّ السابعة، و٥٣٩ لدى أطفال سنّ الثامنة، و٥٩٣ لدى أطفال سنّ التاسعة، و٦٢٨ لدى أطفال سنّ العاشرة، و٦٤٦ لدى أطفال سنّ الحادية عشرة. وتبعاً لهذا التدرج التصاعدي في قدرة الطفل على التجسيد، يُمكننا القول بأن صورة الأطراف تغتني وتكتمل عنده كلما انتقل من سنّ إلى أخرى.

ـ **الاستنتاج الثاني:** وهو استنتاج يُمكننا استخلاص عناصره من خلال قراءتنا لمضامين الجدول أدناه:

الجدول رقم ٣٠

ترتيب أجزاء الأطراف لدى أطفال المرحلة الثانية

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
الأجزاء / العمر	رجل	يد	أصابع	قدم	كتف	ذراع	كف	أبنان	ساق	ركبة	أظافر
٧	٩٢	٨٧	٦١	٥٨	٥٢	٥٢	٤١	٣٦	٢٦	٨	٠
الأجزاء / العمر	رجل	يد	أصابع	قدم	كتف	ذراع	كف	أبنان	ساق	ركبة	أظافر
٨	٩٤	٩٠	٦٩	٦٢	٥٩	٥٧	٣٨	٣٤	٢٣	١١	٢
الأجزاء / العمر	رجل	يد	قدم	كتف	ذراع	أصابع	كف	أبنان	ساق	ركبة	أظافر
٩	١٠٠	٩٣	٧١	٧١	٦٣	٥٨	٥٣	٤٣	٣١	١٠	٠
الأجزاء / العمر	رجل	يد	قدم	أصابع	ذراع	كتف	كف	أبنان	ساق	ركبة	أظافر
١٠	١٠٠	٩٨	٧٧	٦٨	٦٧	٦٤	٥٨	٤٢	٤١	٩	٤
الأجزاء / العمر	رجل	يد	ذراع	قدم	كتف	أصابع	كف	أبنان	ساق	ركبة	أظافر
١١	١٠٠	٩٧	٧٧	٧٥	٧٤	٦٤	٥٦	٥١	٣٩	١١	٢

من خلال ترتيبنا للأجزاء التي تتكوّن منها الأطراف، يمكننا تسجيل الملاحظتين التاليتين:

١ ـ تنحصر أولاهما في احتلال الرجْل واليد للرتبتين الأولى والثانية، مما يفصح عن أن طفل المرحلة قد اهتمّ بتجسيد العام قبل الخاص.

٢ ـ أما الثانية، فتتمثّل في إخفاق معظم الأطفال في تجسيد بعض الأعضاء التي تعكس أنوثة المرأة، كـ«الأظافر» و«الساق» و«الذراع» و«الأصابع». فهذه كلها مؤشرات جسدية كنا نعتقد أنها ستثير انتباه الطفل، مما قد يدفعه إلى رسمها بنوعٍ من الدقة. إلا أن اعتقادنا هذا لم يكن صحيحاً لسبب نظنه كامناً في اهتمام الطفل ـ أثناءَ استحضاره لصورة المرأة ـ بذكر الأعضاء دون الأخذ بعين الاعتبار بُعدها الجمالي ورمزها الأنثوي. ويُمكننا أن نذهب إلى حدّ القول بأن السبب نفسه هو الذي أدّى بطفل هذه المرحلة إلى تجسيد الأعضاء الجسمية التي يشترك فيها الرجل والمرأة، دون أن يهتمّ بالأعضاء التي توظّفها هذه الأخيرة لإبراز أنوثتها كـ«الأشفار» و«الحاجب» و«الخد»... إلخ.

يتضح من خلال ما تضمنته هذه النقطة، أننا قد سجّلنا مجموعة من الاستنتاجات التي يُمكننا اختزالها في النقاط الثلاث التالية:

١ ـ لقد تمكّن أطفال هذه المرحلة من تجسيد البنيات الجزئية (الرأس، الوجه، البطن، الصدر، اليد، الرجْل) قبل تجسيدهم للأعضاء التي تتكوّن منها البنيات.

٢ ـ يتضح من النتائج أن مكوّنات الرأس قد رُسمت أكثر من غيرها، حيث استحوذت على ٣٨٩٧ أي ما نسبته ٤٧,٥٥٪، ثم تلتها الأطراف بما مجموعه ٢٩١٩ أي ما نسبته ٣٥,٦٢٪، بينما احتل الجذع الرتبة الأخيرة بما مجموعه ١٣٧٩ أي ما نسبته ١٦,٨٣٪. ولذلك، فإننا نعتقد بأن صورة المرأة لم تكتمل بعد لدى أطفال هذه المرحلة.

٣ ـ يتبيّن من النتائج أيضاً أن صورة المرأة عند أطفال هذه المرحلة تزداد غنًى ووضوحاً وتكاملاً كلما تقدموا في العمر، مما يوحي بأن تلك الصورة تتجه نحو مرحلة أكثر نضجاً واكتمالاً. ولا شك أنه وبعد أن قدّمنا نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم، يحق لنا أن نعقد مقارنة بين نتائجهما للخروج برؤية واضحة عن مواطن تجانسهما وتباينهما.

٣ ـ مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم لدى أطفال المرحلة الثانية

بعد أن خصّصنا النقطتين السابقتين من هذا الفصل للتعرّف على مكوّنات صورة المرأة من خلال تكميمنا لوصف الطفل ورسمه، سنفرد هذه النقطة لمقارنة نتائج الوصف والرسم بهدف الكشف عن مدى تشابههما أو اختلافهما. ولن نقف عند حد رصد ذلك التشابه أو الاختلاف، بل سنحاول أن نتحقّق من مدى دلالتهما إحصائياً لكي تمنح نتائجنا سنداً علمياً يسمح لنا بقراءتها قراءةً دقيقةً ومضبوطةً.

ولكي نتمكّن من الإحاطة بأهم مواطن الاختلال أو التشابه الموجودة بين نتائج الوصف

اللفظي ونتائج الرسم سنعتمد في مقارنتهما على المستويين التاليين:

أ) مقارنة النتائج على المستوى الكمّي.

ب) مقارنة النتائج تبعاً لتراتبية أجزاء جسم المرأة.

أ ـ مقارنة النتائج على المستوى الكمّي:

لقد تطلّب منا عقد تلك المقارنة إنجاز عمليات إحصائية معقدة لا مجال لذكرها في هذا الصدد، ما دمنا قد أوضحنا طريقة تطبيقها في النقطة الثالثة من الفصل السابق. ولذلك سنكتفي بتقديم النتائج والتعليق عليها من خلال اعتمادنا على الجدول التالي:

الجدول رقم ٣١

مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم لدى أطفال المرحلة الثانية

العمر	الفئة / الأجزاء	الرأس	الجذع	الأطراف	المجموع	المتوسط	ع	قيم (ت)	الدلالة
٧	الوصف	٤٠٠	٧٤	١٨٢	٦٥٦	٢٨,٥	٢٩,٦	٢,٥٧	٩٨٪
	الرسم	٧٠٤	٢٣٤	٥١٣	١٤٥١	٥٠,٠	٢٩,١		ثقة
٨	الوصف	٤٢٢	٧٨	١٧٤	٦٧٤	٢٨,١	٣٠,١	٢,٦٩	٩٨٪
	الرسم	٧٤٢	٢٦٢	٥٣٩	١٥٤٣	٥١,٤	٣١,٥		ثقة
٩	الوصف	٤٥١	١٠٧	١٨٨	٧٤٦	٢٧,٨	٢٩,١	٣,٢٥	٩٨٪
	الرسم	٧٧٢	٢٧٩	٥٩٣	١٦٤٤	٥٤,٨	٣٢,١		ثقة
١٠	الوصف	٤٩٢	١٢٢	١٩٣	٨٠٧	٢٧,٨	٣٠,٢	٢,٩٩	٩٨٪
	الرسم	٨١٥	٢٨٩	٦٢٨	١٧٣٢	٥٤,١	٣٤,٣		ثقة
١١	الوصف	٤٩٥	١٣٧	٢٠٦	٨٣٨	٢٨,٩	٣٠,٢	٣,٥٦	٩٨٪
	الرسم	٨٦٤	٣١٥	٦٤٦	١٨٢٥	٥٨,٩	٣٣,٦		ثقة
المجموع العام للوصف		٢٢٦٠	٥١٨	٩٤٣	٣٧٢١	٢٨,٢	٢٩,٦	٧,٣٧	٩٩٪
المجموع العام للرسم		٣٨٩٧	١٣٧٩	٢٩١٩	٨١٩٥	٥٣,٩	٢٩,١		ثقة

من خلال ما تضمّنه الجدول رقم ٣١، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول**: يتضح من خلال القيم التائية، قيم (ت)، التي حصلنا عليها أن الفرق بين وصف طفل هذه المرحلة لصورة المرأة ورسمه لها فرق صميمي وجوهري زكّته

نتائج الأعمار كلها، حيث وصلت قيمة (ت) إلى حدود ٢,٥٧ لدى أطفال سنّ السابعة، و٢,٦٩ لدى أطفال سنّ الثامنة، و٣,٢٥ لدى أطفال سنّ التاسعة، و٢,٩٩ لدى أطفال سنّ العاشرة، و٣,٥٦ لدى أطفال سنّ الحادية عشرة. فهذه القيم التائية كلها مرتفعة وعالية، حيث وصلت دلالتها إلى حدود ٩٨٪ من الثقة و٢٪ من الشك. وسيلاحظ القارىء بأننا لم نكتفِ بحساب قيم (ت) المرتبطة بكل عمر زمني على حدة، بل إننا تجاوزنا ذلك إلى حساب مدى دلالة الفرق الموجود بين المتوسط العام للوصف اللفظي والمتوسط العام للرسم، فوجدناه مرتفعاً جداً، حيث وصل إلى حدود ٧,٣٧، مما يفصح ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ عن أن الفرق بين الوصف اللفظي والرسم لدى أطفال هذه المرحلة عميق ودالّ.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالسابق، حيث يُمكننا التأكيد على أن سبب الفرق الجوهري الموجود بين الوصف اللفظي والرسم يكمن في فشل أطفال هذه المرحلة في توظيف الوصف اللفظي بالكثافة نفسها والتنوع ذاته اللذين وظفوا بهما الرسم. ومن ثم، فإننا نعتقد أن السبب لا يكمن في عملية الاستحضار ذاتها بقدر ما يكمن في الوسيلة التعبيرية التي استعملها الأطفال لترجمة ما استحضروه. ولا شك أن النتائج التي يتضمنها الجدول رقم ٣١ تزكّي ذلك الاعتقاد. إذ يكفي أن نشير إلى أن نتيجة «الوجه» (الرأس) قد وصلت في الوصف إلى ٤٠٠ وفي الرسم إلى ٧٠٤ في سنّ السابعة، وأن نتيجة الأطراف قد بلغت في الوصف حدود ١٨٢ وفي الرسم حدود ٥١٣ لدى أطفال العمر نفسه، لندرك السبب الحقيقي الذي كان وراء حصولنا على قيم تائية دالّة. إلا أنه مع ذلك قد يعترض القارىء متسائلاً: إذا كانت الفروق بين وصف الأطفال للمرأة ورسمهم لها صميمية ودالّة، فلماذا جمع الباحث بينهما في مرحلة واحدة؟ إلا يمكن القول بأن الرسم متقدم جداً على الوصف؟ وهو اعتراض وجيه سنحاول الإجابة عنه في النقطة الثانية من هذه المقارنة.

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالمسار التكويني الذي يُمكننا الكشف عن معالمه من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٣١. وهي مضامين يُمكن أن نسجل بصددها الملاحظتين التاليتين:

١ ـ تتمثّل أولاهما في الزيادة التدريجية التي خضعت لها متوسطات الرسم، حيث انتقلت من ٥٠,٠ في السنة السابعة، إلى ٥١,٤ في السنة الثامنة، فـ ٥٤,٨ في سنّ التاسعة، فـ٥٤,١ في سنّ العاشرة، لتصل إلى حدود ٥٨,٩ في سنّ الحادية عشرة، مما يزكّي صحة القاعدة المعروفة: كلما تقدّم الطفل في السنّ، زاد تجسيده لمكوّنات صورة المرأة.

٢ ـ أما الملاحظة الثانية، فإنها ترتبط بالاستقرار والثبات اللذين طبعا نتائج الوصف اللفظي، بحيث إن متوسطاته لم تعرف زيادة واضحة، فهي تراوحت بين ٢٨,٥ لدى أطفال سنّ السابعة، و٢٨,٩ لدى أطفال سنّ الحادية عشرة، مروراً بـ٢٨,١ لدى أطفال سنّ الثامنة، و٢٧,٨ لدى أطفال سنّ التاسعة، و٢٧,٨ لدى أطفال سنّ العاشرة. مما يعبّر عن أن متوسطات الوصف لم تدعم إحصائياً القاعدة التي أوردناها في نهاية الملاحظة السابقة. وقد يتساءل

القارىء قائلاً: إذا كان الباحث يدعي بأن متوسطات الوصف اللفظي يطبعها الثبات إن لم نقل التراجع، فإن مجموع الأعضاء التي ذكرها الأطفال في سنّ السابعة ليست هي نفسها في الأعمار الأخرى، حيث انتقل ذلك المجموع من ٦٥٦ إلى ٦٧٤ إلى ٧٤٦ ثم ٨٠٧ ليصل إلى ٨٣٨ لدى أطفال سنّ الحادية عشرة. فكيف يُمكننا أن نفسّر ثبات المتوسطات في الوقت الذي يزداد فيه وصف الطفل لمكوّنات جسم المرأة كلما انتقل من سنّ إلى أخرى. وهو تساؤل مشروع، إلاّ أن الرد عليه بسيط، باعتبار أن حسابنا للمتوسطات ـ كما أوضحنا ذلك في النقطة الثالثة من الفصل السابق ـ يعتمد على القاعدة البسيطة التالية: المتوسط هو ناتج قسمة مجموع ما ذكره أطفال عمر معيّن من أعضاء على مجموع الأعضاء التي برزت في أوصافهم. ومن ثم، فإذا كان أطفال سنّ السابعة قد ذكروا ٢٣ عضواً من أعضاء جسم المرأة، وأطفال سنّ الثامنة قد تمكّنوا من تعداد ٢٤ عضواً، وأطفال سنّ التاسعة ذكروا ٢٧ عضواً، وأطفال سنّ العاشرة والحادية عشرة ذكروا ٢٩ عضواً، فإنه أصبح من المفروض علينا، لتطبيق القاعدة السابقة، أن نقسم المجاميع التي تضمنها الجدول رقم ٢٣، وهي: ٦٥٦ ـ ٦٧٤ ـ ٧٤٦ ـ ٨٠٧ ـ ٨٣٨، على عدد الأعضاء التي تمكّن أطفال كل عمر زمني من ذكرها وتعدادها. حيث سنقسم مثلاً ٦٥٦ على ٢٣، و٦٧٤ على ٢٤، . . . وهكذا حتى نصل إلى تقسيم ٨٣٨ على ٢٩. فإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار القاعدة السابقة، فإننا سننتهي إلى القول بأن الزيادة في مجموع الأوصاف اللفظية ليست مبرراً كافياً لإثبات التقدّم نحو النضج والاكتمال، اللّهم إذا كانت تلك الزيادة كبيرة كما هو الشأن بالنسبة لنتائج الرسم.

وبعد أن قدّمنا هذا التوضيح، سننتقل إلى مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم باعتمادنا على أرضية إحصائية أخرى.

ب ـ مقارنة النتائج تبعاً لتراتبية أعضاء جسم المرأة في الوصف اللفظي والرسم:

بعد أن صنفنا مادتيْ الوصف اللفظي والرسم حسب أعمار هذه المرحلة، وبعد أن رتّبنا مكوّنات جسم المرأة تبعاً لكثافة ظهورها في الوصف من جهة وفي الرسم من جهة أخرى، حصلنا على النتائج التي يقدمها الجدول الجامع رقم ٣٢ الذي تجدونه على الصفحة التالية.

من خلال تمعننا في الرتب التي احتلتها مختلف الأعضاء المكونة للبنية الجسمية لصورة المرأة في الوصف اللفظي والرسم، كما هي مبيّنة في الجدول رقم ٣٢، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويتمثّل في اختلاف الرتب التي احتلتها مختلف الأعضاء المكوّنة لصورة المرأة في الوصف عن تلك التي احتلتها في الرسم. فباستثناء «العنق» الذي احتل الرتبة ١٤، فإن الأعضاء الأخرى لم تحظَ بالمكانة نفسها في الوصف والرسم معاً. ويُمكننا رصد ذلك الاختلاف وإدراك معالمه حينما نلاحظ أن الأطراف ـ وبخاصة «الرجل» و«اليد» ـ قد احتلّت صدارة الترتيب في الوصف، فتبعها «الرأس» وبعض أجزائه، كـ«الأنف» و«العين» و«الأذن» و«الفم» و«الشعر»، بينما احتلت مكونات الجذع رتباً تراوحت بين ٩ و١٤. أما إذا

الجدول رقم ٣٢

مقارنة بين نتائج الوصف اللفظي والرسم

تبعاً للرتبة[1] التي احتلها كل عضو من أعضاء جسم المرأة

الرتب	أعضاء الجسم / نتيجة التعبير	الوصف اللفظي	أعضاء الجسم / نتيجة التعبير	الرسم
١	رجل	٤١٨	رأس	٥٠٠
٢	يد	٤٠٣	وجه	٥٠٠
٣	رأس	٣٩٢	عين	٤٨٧
٤	أنف	٣٦٤	رجل	٤٨٦
٥	عين	٣٤٧	يد	٤٦٥
٦	أذن	٣٣٦	فم	٤١٣
٧	فم	٣١٠	صدر	٣٩٦
٨	شعر	٢٦٥	بطن	٣٩٣
٩	بطن	١٨٠	شعر	٣٧٩
١٠	وجه	١٠١	جبهة	٣٦٥
١١	أعضاء تناسلية	٩٢	ذقن	٣٦٠
١٢	ثدي	٨٣	أنف	٣٤٩
١٣	صدر	٥٨	قدم	٣٤٣
١٤	عنق	٥٧	عنق	٣٢٠
١٥	أصابع	٤٩	كتف	٣٢٠
١٦	حاجب	٤٧	أصابع	٣٢٠
١٧	ظهر	٣٧	ذراع	٣١٦
١٨	أشفار	٢٨	كف	٢٤٦
١٩	كتف	٢٥	حاجب	٢٢٧
٢٠	لسان	٢٤	بنان	٢٠٦
٢١	أسنان	١٧	أذن	١٩٠
٢٢	ركبة	١٦	ساق	١٦٠
٢٣	خد	١٢	سرة	١٠٢
٢٤	ساق	١١	ثدي	٩٢
٢٥	سرة	٩	أعضاء تناسلية	٧٤
٢٦	ذراع	٨	أشفار	٧١
٢٧	قدم	٧	ركبة	٤٩
٢٨	شفة	٧	أسنان	٣٢
٢٩	أظافر	٤	شفة	٢١
٣٠	كف	٢	أظافر	٨
٣١	ذقن	٠	خد	٣
٣٢	بنان	٠	ظهر	١
	المجموع	٣٧٢١		٨١٩٠
	النسبة	٣١,٢٪		٦٨,٨٪

المجموع العام	١١٩١١	١٠٠٪

(١) لقد اعتمدنا على الرتب التي احتلتها أعضاء جسم المرأة تبعاً للنتائج العامة التي حصلت عليها، أي تبعاً للمرحلة ككل وليس لدى كل عمر من أعمار هذه المرحلة.

انتقلنا إلى قراءة نتائج الرسم، فإننا سنجد أن «الرأس» و«الوجه» قد احتلا الصدارة، فتبعهما بعض أعضاء الأطراف كـ«الرِجْل» و«اليد»، بينما لم يحتل «الصدر» و«البطن» إلا الرتبتين ٧ و٨.

ويُمكننا أن تختزل الفروق الموجودة بين رتب البنيات الجزئية في الوصف عن رتبها في الرسم بتوظيفنا للسلسلتين التاليتين:

- الوصف اللفظي: من الأطراف إلى الرأس إلى الجذع.
- الرسم: من الرأس إلى الأطراف إلى الجذع.

لا شك أن قارىء هاتين السلسلتين سيُلاحظ بأن الاختلاف بين الرتب التي احتلتها البنيات الجزئية في الوصف وفي الرسم بسيط جداً، طالما أن الجذع قد احتل الرتبة الأخيرة. ونركّز هنا على الجذع باعتباره يمثّل البنية الجزئية الوسطى التي تربط بين البنيتين الأخريين. ومن ثم، فإنه لو احتل الجذع رتبة متقدمة في الوصف دون الرسم أو العكس، لنتجت عن ذلك انعكاسات تكوينية عميقة قد يتطلّب منا تفسيرها الفصل بين مراحل تكوّن صورة المرأة في الوصف اللفظي ومراحل تكونها في الرسم. أما أسبقية الأطراف على الرأس أو العكس فلا أهمية له في نظرنا.

غير أن ما أثار انتباهنا في النتائج التي تضمّنها الجدول رقم ٣٢ تكمن في مدى تتابع رتب البنيات الجزئية السابقة الذكر في كلام الطفل ورسمه. وبتعبير آخر: هل عبّر طفل هذه المرحلة لفظاً ورسماً عن البنيات الجزئية بشكل متعاقب لا تتخلله الأعضاء الصغيرة؟ أم أن ذلك التعبير كان يجمع بين ما هو عام وما هو خاص؟

إن إجابتنا على هذا السؤال تفرض علينا أن نقارن نتائج الوصف بنتائج الرسم من زاوية أخرى. ذلك أنه إذا كان صحيحاً أن طفل هذه المرحلة قد ذكر «الرِجْل» و«اليد» و«الرأس»، فإنه لم يذكر «البطن» إلا بعد أن ذكر «الأنف» و«العين» و«الأذن» و«الفم» و«الشعر»، أي بعد أن ذكر مجموعة من الأعضاء المكوِّنة لبنية الرأس، مما سبب في إحداث شرخ بين بنيات الأطراف والرأس والجذع، باعتبارها بنيات كان من المفروض أن تظهر في كلام طفل هذه المرحلة قبل أي عضو آخر. أما إذا قرأنا نتائج الرسم، فإننا سنلاحظ تقلصاً في ذلك الشرخ، بحيث إننا لا نجد بين الرأس والأطراف إلا «العين»، وبين الأطراف والجذع إلا «الفم» مما يفصح عن أن الأطفال قد تمكّنوا ـ إلى حد ما ـ من منح الأولوية للبنيات الجزئية على الأعضاء المكوِّنة لها. إلا أنه بالرغم من ذلك، فإنهم لم يصلوا بعد إلى حد تصوّر البنيات الجزئية أولاً ثم تعداد أو رسم مكوِّناتها ثانياً. ولذلك، فإن صورة المرأة عند أطفال هذه المرحلة لم تكتمل بعد.

- الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالرتبة التي احتلّتها الأعضاء التناسلية في الوصف اللفظي والرسم، وهي رتبة تنمّ عن أن طفل هذه المرحلة قد تمكّن من ذكر تلك الأعضاء أكثر من رسمه لها. ونعتقد أن سبب ذلك يكمن في اختلاف الكلام عن التجسيد، ذلك أنه من الممكن أن يذكر الطفل الأعضاء التناسلية للمرأة دون أن يتمكّن من رسمها. إذ إن كلامه في هذه

الحالة لا يرتبط باستحضار مصور بقدر ما يرتبط باستحضار لفظي منبثق عن صورة ذهنية لا نعرف مدى وضوحها واكتمالها. فالطفل - فيما نعتقد - غالباً ما يتعرف على الأعضاء التناسلية للجنس الآخر، إما عن طريق المشاهدة أو عن طريق سماع أسمائها على ألسنة الراشدين أو من هم أكبر منه سناً. تلك الأسماء التي يحتفظ بها في ذاكرته، وعادةً ما يتمكّن من استحضارها دون أن يعرف مقابلها المادي. وإننا لنرجّح أن يكون الطفل قد تعرّف على الأعضاء التناسلية للمرأة عن طريق السماع أكثر من المشاهدة، باعتبار أنها الأعضاء الأكثر تستراً واختفاء عن أعين الأطفال والراشدين. ولذلك احتلّت تلك الأعضاء رتبة لا بأس بها في الوصف (الرتبة ١١)، ومتأخرة في الرسم (الرتبة ٢٥). ولا شك أن القارىء سيزكّي ترجيحنا هذا حينما سيطلع على الرسوم الحقيقية التي أنجزها الأطفال.

- الاستنتاج الثالث: ويتعلّق بالفرق الكمّي الكبير بين نسبة الوصف (٣١,٢٣٪) ونسبة الرسم(٦٨,٧٧٪). . وهو فرق يدفعنا إلى إعادة طرح السؤال التالي: إذا كانت الفروق صميمية وجوهرية بين وصف الأطفال لصورة المرأة ورسمهم لها، فلماذا جمع الباحث بينهما في مرحلة واحدة؟ وهو سؤال مشروع ما دمنا قد أكدنا فيما سبق على أن القيم التائية(ت) والنسب المئوية التي حصلنا عليها تعبّر بما لا يدع مجالاً للشك بأن الاختلاف جوهري ودال بين الوسيلتين: الوصف اللفظي والرسم. ولكي نتخلص من وطأة هذا السؤال، ما علينا إلا أن نبيّن للقارىء بأن جمعنا بين الوسيلتين الآنفتي الذكر في مرحلة واحدة أمر مشروع أيضاً لأسباب سبق وأن أشرنا إليها باستمرار في ثنايا النقاط السالفة من هذا الفصل. ذلك أننا نعتقد بأن وقوف الباحث - وبخاصة في البحوث ذات الصبغة التكوينية - عند حدود النتائج الإحصائية قد يوقعه في أخطاء كبيرة، باعتبار أن تلك النتائج لا تعبّر إلا عن كثافة ظهور عضو معيّن وعن هزالة ظهور عضو آخر، أو عن اختفائه اختفاء كلياً. ونرى أن الفرق بين قوة أو ضعف ظهور عضوٍ معين لا يؤدي بالضرورة إلى التأكيد على قوته أو ضعفه من الناحية التكوينية. إذ يمكن لعضو كـ«الرأس» - الذي برز في رسوم كل أطفال هذه المرحلة - أن يتطابق ويتساوى من الناحية التكوينية مع «الرأس» الذي لم يظهر في كلام أطفال المرحلة العمرية نفسها إلا ٣٩٢ مرة. فبالرغم من أن الفرق الكمّي بينهما كبير (١٠٨)، فإن ذلك لا يعني بالضرورة عدم وجود تجانس بين وصف الطفل لـ«الرأس» ورسمه له على المستوى التكويني، طالما أن ذلك المستوى يخضع للقاعدة التالية: كلما سجّلنا لدى الأطفال أسبقية البنية على الأجزاء، قلنا إنهم يوجدون في مرحلة واحدة. ولا غرو أنه من خلال تأملنا في النتائج التي تضمّنها الجدول رقم ٣٢ نجد أن الأطفال قد تمكّنوا من ذكر ورسم البنيات الجزئية قبل الأعضاء المكوّنة لها. فهم لم يذكروا أو يرسموا «العين» قبل «الرأس»، و«الثدي» قبل «البطن» و«القدم» قبل «الرجل»، مما يزكّي تجانس وتماثل نتائج الرسم بنتائج الوصف اللفظي. ولذلك يمكننا القول بأن الفروق التي سجلناها على المستوى الإحصائي لا تنفي الوحدة والتجانس على مستوى استحضار صورة المرأة والتعبير عنها بواسطة الكلام أو الرسم. فإذا كانت هناك فروق على مستوى قوة أو ضعف النتائج المرتبطة بالأعضاء المكوّنة لجسم المرأة، فإن نتائج البنيات الجزئية التي تحتضن تلك الأعضاء قد عبّرت عن تجانس في تمثّل طفل هذه المرحلة لصورة المرأة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تعرّضنا لمشكل الفرق الموجود بين الوصف اللفظي والرسم لا نقصد من ورائه إثارة نقاش عام لا مبرر له، بل إننا نبغي من ورائه محاورة طروحات توصلت إلى تأكيد عكس ما توصلنا إليه. وإننا نفضّل أن نؤجل ذلك الحوار إلى نهاية هذا الكتاب، لأننا سننتقل حالاً إلى عرض نماذج من رسوم أطفال هذه المرحلة. وهو عرض سيُمكّن القارىء من تكوين فكرة واضحة عن الطريقة أو الطُرُق التي اعتمدها الأطفال لتجسيد صورة المرأة.

٤ ـ أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

بعد أن خصّصنا النقطة الثانية من هذا الفصل لعرض النتائج الكميّة التي تعكس مدى قدرة طفل هذه المرحلة على استحضار صورة المرأة وتصوّر مكوّناتها ومواقع تلك المكوّنات على جسدها، سننتقل في هذه النقطة إلى تقديم الرسوم الحقيقية التي تمكّن أطفال هذه المرحلة من إنجازها. وهي رسوم كثيرة ومتنوعة قمنا بفرزها وتصنيفها فحصلنا على الأنواع التي يقدمها الجدول التالي:

الجدول رقم ٣٣

أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال رسوم أطفال المرحلة الثانية

أنواع الصور / الأعمار	الصور المبهمة	الصور الناقصة	الصور بدون جذع	الصور ذات الأطراف المشوهة	الصور المجسدة للأعضاء الجنسية	الصور الكاملة	الصور ذات البعد الجمالي	المجموع
٧	٧	٢٦	٢١	١٣	٥	٢٤	٤	١٠٠
٨	٣	٢٣	١٨	١٨	٩	٢٢	٧	١٠٠
٩	٠	١٩	١٦	١٦	١٤	٢١	١٤	١٠٠
١٠	٠	١٥	٩	١٣	٢٢	٢٢	١٩	١٠٠
١١	٠	١٦	٥	٨	٧٥	٢٢	٢٤	١٠٠
المجموع	١٠	٩٩	٦٩	٦٨	٧٥	١١١	٦٨	٥٠٠
النسبة المئوية	٪٢,٠	٪٢٠,٠	٪١٣,٨	٪١٣,٦	٪١٥,٠	٪٢٢,٠	٪١٣,٦	٪١٠٠

يتبيّن من الأرقام التي تضمّنها الجدول رقم ٣٣ أننا قد صنّفنا رسوم الأطفال لصورة المرأة سبعة أنواع: الصور المبهمة، الصور الناقصة، الصور بدون جذع، الصور ذات الأطراف المشوهة، الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية، الصور الكاملة، وأخيراً الصور التي عكست أنوثة المرأة وجماليتها. ومن خلال قراءتنا للنتائج المرتبطة بكل نوع من الأنواع السابقة الذكر، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ الاستنتاج الأول: ويتمثل في الفروق الكمية التي أفصحت عنها النسب الواردة في أسفل الجدول رقم ٣٣، وهي فروق وإن كانت في معظمها ضئيلة وبسيطة، فإنها تحمل في ذاتها دلالة عميقة. فيكفي أن نقارن بين نسبة الصور المبهمة (٢٪) ونسبة الصور الكاملة (٢٢,٢٪)، لندرك التقدم الكبير الذي حققه طفل هذه المرحلة في تجسيده لمكوّنات صورة المرأة.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالسابق، ذلك أن السبب في حصول الصور المبهمة على نسبة ضعيفة جداً راجع إلى أنها لم تظهر إلاّ في رسوم أطفال سنّ السابعة، وسنّ الثامنة، مما يدلّ على أحد الاحتمالين التاليين:

* فإما أن سنّ السابعة وسن الثامنة تنتميان إلى مرحلة «تبلور مكوّنات صورة المرأة» التي تضم الأعمار ٤ ـ ٥ ـ ٦ سنوات، باعتبار أن الصور المبهمة قد برزت فيما يناهز ٤٦ رسماً من رسومهم.

* وإما أن تعتبر هاتين السّنّين فترة انتقالية يمرّ بها الطفل للخروج من مرحلة «تبلور مكوّنات صورة المرأة» لولوج مرحلة «تأسيس البنية الجسمية لتلك الصورة».

ولا نخفي هنا أننا نميل إلى ترجيح الاحتمال الثاني، باعتبار أنه بالرغم من تجسيد بعض أطفال سنّ السابعة والثامنة لجسم المرأة في رسوم مبهمة، فإن ذلك لا يعني أنهم منحوا الأسبقية للجزء على الكلّ وللأعضاء على البنية.

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالمسار التكويني الذي يُمكننا الكشف عنه من خلال قراءتنا للنتائج التي تضمنها الجدول رقم ٣٣، وهو مسار يُمكننا ضبطه في القاعدة التالية: كلما تقدم الأطفال في العمر، اتخذ رسمهم للمرأة شكلاً أكثر اكتمالاً وتناسقاً. ذلك أنه من خلال تمعّننا في مضامين هذا الجدول، نلاحظ تناقص الصور المبهمة والناقصة وبدون جذع وذات الأطراف المشوهة كلما تقدم الطفل في العمر. وفي المقابل، نُلاحظ تزايد الصور الكاملة والمجسّدة لأنوثة المرأة وجماليتها، مما ينمّ عن تقدم ملموس في قدرة طفل هذه المرحلة على استحضار صورة المرأة وتجسيدها. إلا أنه بالرغم من ذلك، فإنه من الواجب علينا أن ننصح القارىء بألا يرتكز على القاعدة الآنفة الذكر ليصل إلى الاعتقاد بأن فئتيْ الصور الكاملة وذات البعد الجمالي هما اللتان برزتا بشكل مكثف ومستفيض في رسوم أطفال هذه المرحلة. فمثل هذا الاعتقاد خاطىء في نظرنا، لأنه باستثناء الصور الكاملة والصور ذات البُعد الجمالي وجزء من الصور التي جسّدت الأعضاء الجنسية، فإن كل الأنواع الأخرى تدخل ضمن نوع الصور الناقصة. وما تقسيمنا لها إلى مبهمة وناقصة ومشوّهة الأطراف وبدون جذع إلاّ تقسيم منهجي ساعدنا على تحديد المجال الذي برز فيه النقص أكثر من غيره. ومن ثم، فإن النسبة الحقيقية للصور الناقصة ليست ١٩,٨٪، بل هي ٥٧,٢٪[1]. ولا غرو أنها نسبة مرتفعة تدفعنا إلى القول

---

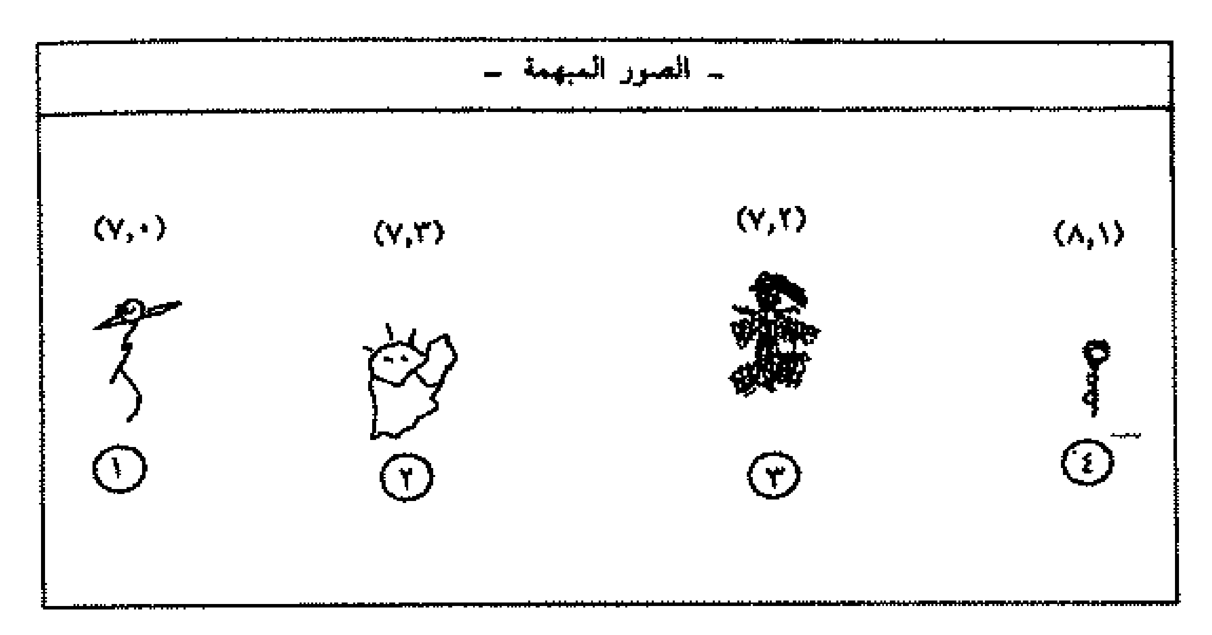
(١) لقد حصلنا على هذه النسبة (٥٧,٢٪) بجمعنا بين نسب الصور المبهمة والناقصة وبدون جذع وذات الأطراف المشوهة وجزء من الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية (أي: ٢ + ١٩,٨ + ١٣,٨ + ١٣,٦ + ٨ = ٥٧,٢٪). ولقد أضفنا جزءاً من نسبة الصور التي جسّدت الأعضاء التناسلية، لكننا أضفنا ٨٪ بدل ١٥٪ لأن ٧٪ من تلك الصور كاملة.

بأن ما يزيد عن نصف أطفال هذه المرحلة لم يتمكّنوا من تجسيد معظم أعضاء جسم المرأة. وهو قول يحتاج إلى تفسير دقيق سنؤجل تقديمه إلى نهاية هذا الكتاب.

ولا شك أنه بعد تقديمنا لأهم الاستنتاجات المرتبطة بنتائج البنيات الجسمية لصورة المرأة، يحق لنا أن ننتقل الآن إلى تقديم نماذج من كل نوع من أنواع الصور المذكورة أعلاه.

١ ـ الصور المبهمة:

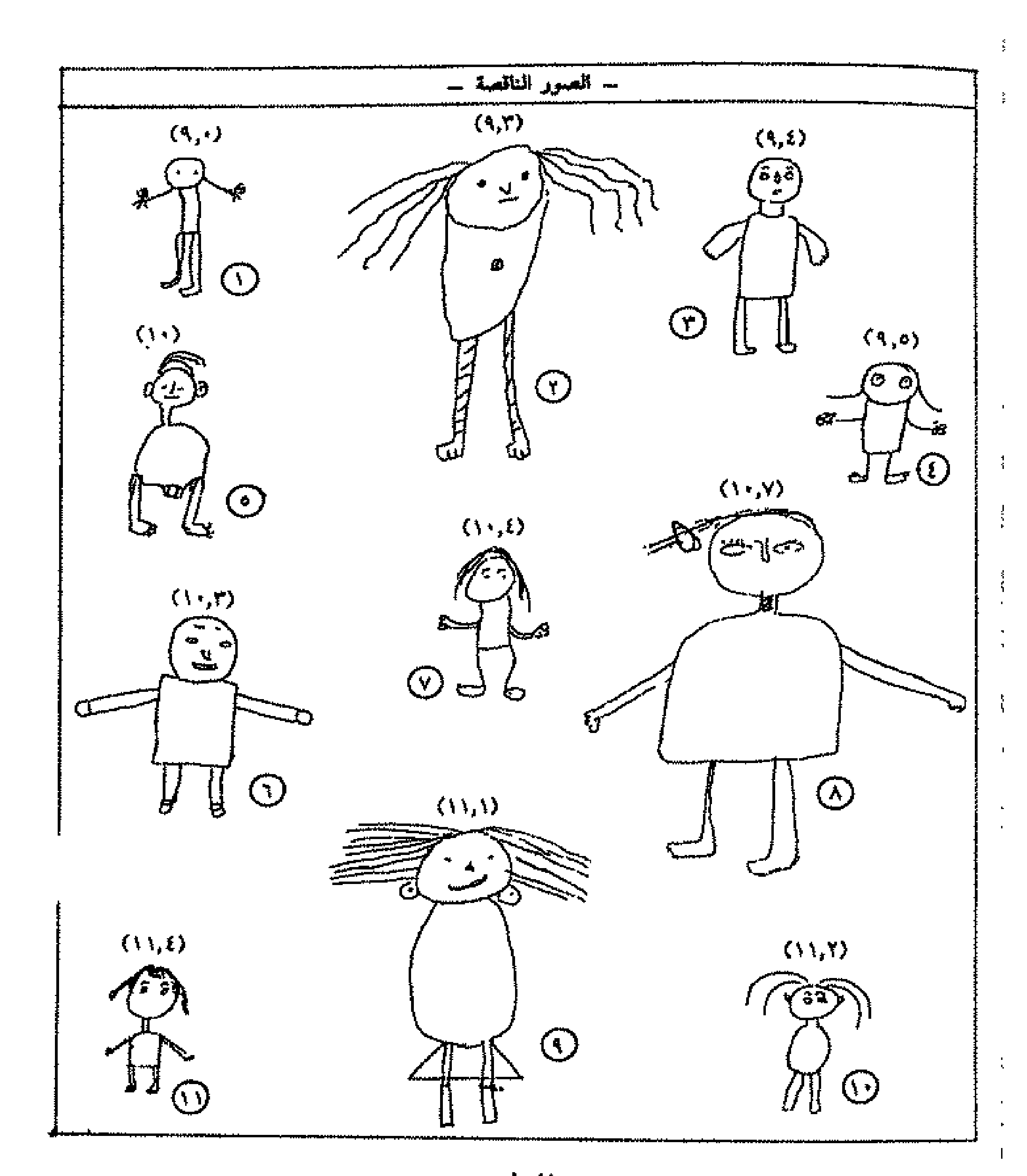
لكي يتعرّف القارىء على هذا النوع من الصور نقدم له النماذج الأربعة التالية:



يتضح من هذه الرسوم أن بعض الأطفال الذين ينتمون إلى هذه المرحلة ـ وعددهم ١٠ ـ لم يتمكنوا من تجسيد مكوّنات صورة المرأة بشكل واضح، بحيث إن المتأمل في تلك الرسوم ـ بالرغم من كونها قد جسّدت أعضاءً يمكن فهم معناها كـ«الوجه» و«اليد» و«الرجل»... إلخ ـ لن يستطيع التأكد من أن الطفل قد رسم امرأة أو شيئاً آخر. فباستثناء الرسم رقم ٣ الذي جسد «الرجلين» و«اليدين» و«الرأس»، فإن الرسوم الأخرى أقرب إلى «الخربشات» منها إلى الرسوم التي تُراعي قوانين إدراك المكان وتمثّله. ولا مجال هنا لتكرار ما سبق قوله بصدد ظهور هذا النوع من الصور لدى أطفال هذه المرحلة. إذ إن ذلك الظهور لا يعني ارتباطهم بالمرحلة السابقة بقدر ما يشير إلى أن كل مسار تكويني يحتاج إلى فترة انتقالية. وإننا نعتبر ظهور الصور المبهمة لدى بعض أطفال سنّ السابعة والثامنة بمثابة الجسر الرابط بين مرحلة تبلور مكوّنات صورة المرأة ومرحلة تأسيس البنية العامة لتلك الصورة.

٢ ـ الصور الناقصة:

وهي الصور التي لم يتمكن أطفال هذه المرحلة من تجسيد أحد أعضائها أو إحدى بنياتها الجزئية. ولكي يتمكّن القارىء من أخذ فكرة واضحة عن هذا النوع من الصور نقدّم له النماذج التالية:


— الصور الناقصة —
(٩,٠)
١
(٩,٣)
٢
(٩,٤)
٣
(٩,٥)
٤
(١٠)
٥
(١٠,٣)
٦
(١٠,٤)
٧
(١٠,٧)
٨
(١١,١)
٩
(١١,٢)
١٠
(١١,٤)
١١

إن الرسوم التي تضمنتها صفحة الصور الناقصة ليست سوى نماذج لـ ٩٩ رسماً من رسوم أطفال هذه المرحلة. وهي رسوم لم تجسّد مجموعة من أعضاء الرأس والجذع والأطراف. وينبغي أن نشير في هذا الصدد إلى أن ٥٤ رسماً من مجموع الرسوم الناقصة لم تجسد «الأذن»، و٣٦ لم تجسد «الحاجبين»، و١٤ لم تجسد «الفم»، و١٣ لم تجسد «الأنف»... كما يمكننا القول بأن ٥٩ من تلك الرسوم لم تجسد عضوين، كما هو الشأن مثلاً في الرسم رقم ١١ الذي لم يجسد «الفم» و«الأنف»، والرسم رقم ٣ الذي لم يجسد «الشعر» و«الأذنين»، والرسم رقم ٢ الذي لم يرسم «اليدين» و«الحاجبين». كما أن ٢٤ رسماً من مجموع الرسوم الناقصة لم تجسّد ثلاثة أعضاء، كما هي الحال بالنسبة للرسم رقم ٤ الذي لم يجسد «الحاجبين» و«الأنف» و«الفم». وبالإضافة إلى ذلك، فإن ١٣ رسماً من تلك الرسوم لم تجسد أربعة أعضاء، كما هو بادٍ في الرسم رقم ١ الذي نسي «الشعر» و«الأنف» و«الفم» و«الأذنين». غير أنه بالرغم من ذلك، فإن كل الرسوم التي تدخل ضمن هذا النوع من الصور قد تمكّنت من تجسيد البنيات الجزئية، وبخاصة الرأس والجذع والرجلين. ولا بد من الإشارة إلى أننا نعتبر الطفل الذي نسي تجسيد «العين» أكثر تقدماً من الذي نسي رسم «اليد»، باعتبار أن الأولى عضو والثانية بنية جزئية تتكوّن من أعضاء متعدّدة. فنسيان العضو لا يمكن مقارنته بنسيان البنية. وتبعاً لذلك، يمكننا القول بأن الرسوم ذات الأرقام: ١ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٧ أكثر تقدماً من الرسوم ذات الأرقام: ٢ ـ ٥ ـ ٩ ـ ١٠ بالرغم من أن هذه الأخيرة أكثر تجسيداً للأعضاء من الأولى. ولا شك أن القارىء سيُلاحظ بأننا قد ركّزنا في هذه النقطة على الرأس والأطراف فقط، وهي ملاحظة وجيهة ستفرض علينا تخصيص نقطة مستقلّة لعرض الرسوم التي لم تجسّد الجذع.

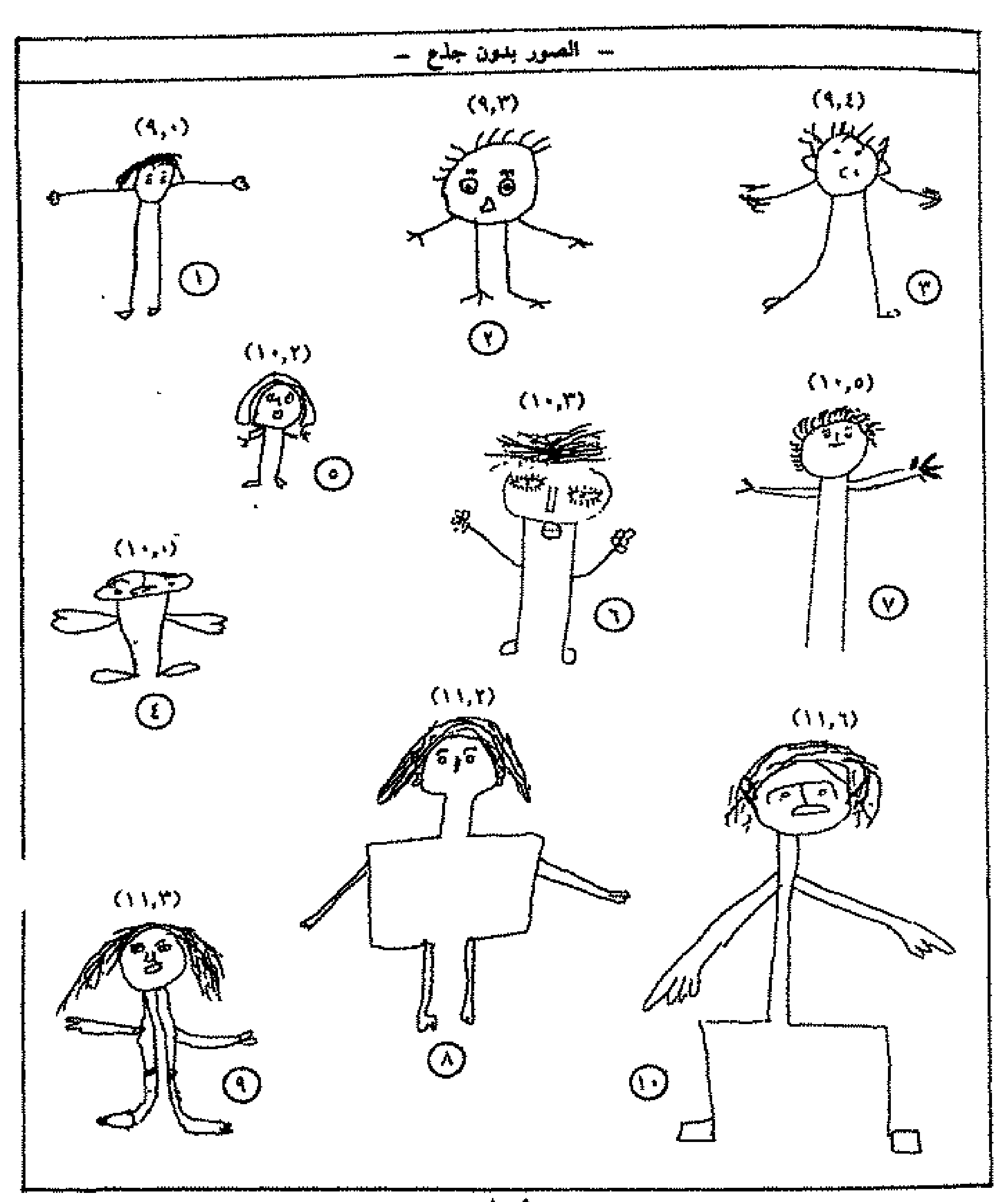
٣ ـ الصور بدون جذع:

وهي الصور التي لم تتضمن أعضاء الجذع، وبخاصة «البطن» و«الصدر»، باعتبارهما يُشكّلان البنيتين الجزئيتين اللتين تحتويان على مجموعة من الأجزاء. ونشير هنا إلى أننا نقصد بهذا النوع من الصور كل الرسوم التي جسّدت الرأس والأطراف فقط. ولكي يتمكن القارىء من أخذ فكرة واضحة عن هذا النوع من الصور نقدم له النماذج التي ترونها على الصفحة التالية:

من خلال النماذج المعروضة في صفحة الصور بدون جذع، يُمكننا تسجيل القاعدتين التكوينيتين التاليتين:

ـ **القاعدة الأولى**: إن عدم رسم بعض الأطفال للجذع يعني ضمنياً أنهم لم يتمكّنوا من تجسيد أعضائه سواء استحضروها على المستوى الذهني أم لم يستحضروها، مما ينمّ عن قصور كبير في تمثّلهم لصورة المرأة إلى حد قد يدفعنا إلى القول بأنهم لم يتمكّنوا من التمييز بين الجنسين.

ـ **القاعدة الثانية**: ويُمكننا حصرها في العبارة التالية: كما انتقل الطفل من ربط اليدين بالرأس إلى ربطهما بالرجلين ثم بالكتفين، اعتبرنا ذلك تقدماً ملموساً في قدرته على تجسيد صورة المرأة. ولقد حاولنا تصنيف كل الرسوم التي تدخل ضمن «الصور بدون جذع» تبعاً للقاعدة السابقة، فحصلنا على النتائج البادية في الجدول رقم ٣٤.


- الصور بدون جذع -
(٩,٠)
(٩,٣)
(٩,٤)
١
٢
٣
(١٠,٢)
(١٠,٣)
(١٠,٥)
٥
٦
٧
(١٠,١)
٤
(١١,٢)
(١١,٦)
(١١,٣)
٨
٩
١٠

الجدول رقم ٣٤

طرق رسم اليدين في صورة المرأة بدون جذع

طرق رسم اليدين	رسم اليدين انطلاقاً من الرأس	رسم اليدين انطلاقاً من الرجلين	رسم اليدين انطلاقاً من الكتفين	المجموع
المجموع	١٧	٣٩	١٣	٦٩
النسبة المئوية	٢٤,٦٪	٥٦,٥٪	١٨,٩٪	١٠٠٪

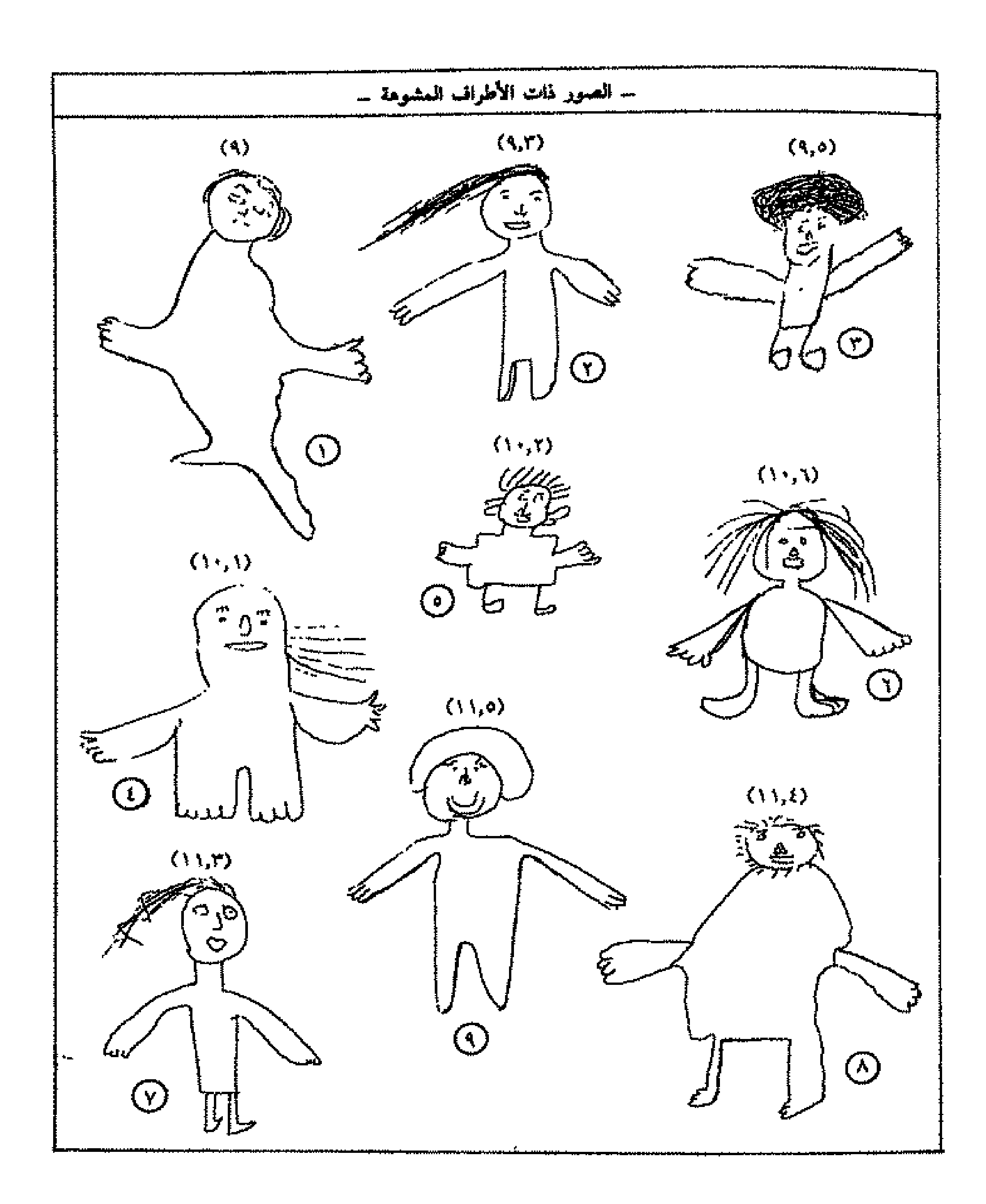
يتضح من الأرقام والنسب التي يقدمها الجدول رقم ٣٤ أن ٢٤,٦٪ من الأطفال قد جسدوا يدي المرأة انطلاقاً من الرأس، كما نلاحظ ذلك في الرسوم ذات الأرقام: ١ ـ ٢ ـ ٣، وأن ٥٦,٥٪ منهم قد ربطوا اليدين بالرجلين كما هو بادٍ في الرسوم ذات الأرقام: ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧، كما أن ١٨,٩٪ من أولئك الأطفال قد ربطوا اليدين بالكتفين كما هو ظاهر في الرسوم ذات الأرقام: ٨ ـ ٩ ـ ١٠. ولقد أدخلنا رقم ١٠ ضمن مجموعة الصور بدون جذع ـ بالرغم من أنه قد ربط بين اليدين والعنق[1] ـ باعتبار أن هذا الأخير أقرب إلى الكتفين منه إلى الرجلين أو الرأس. ولذلك، فإننا نعتبر الرسم رقم ١٠ متقدماً عن الرسوم التي ربطت اليدين بالرأس أو الرجلين. وانطلاقاً من هذه القاعدة يمكننا أن نعتبر الرسم رقم ٨ أكثر تطوراً ونضجاً من الرسوم الأخرى، باعتبار أنه جسّد اليدين بطريقة تكاد تكون صحيحة، بل يمكننا أن نذهب إلى حد القول بأن الرسوم التي جسّدت اليدين انطلاقاً من الكتفين تُعتبر مؤشرات تنمّ عن انتقال الطفل من إنجاز رسوم ناقصة إلى إنجاز رسوم تجسّد المكوّنات الجسمية لصورة المرأة بشكل مقبول ومتناسق.

٤ ـ الصور ذات الأطراف المشوهة:

إلى جانب الأنواع السابقة، لاحظنا أن عدداً لا يستهان به من أطفال هذه المرحلة ـ وعددهم ٦٨ ـ قد جسدوا أطراف المرأة بشكل أثار انتباهنا، بحيث إنه بدل أن يرسموا «اليدين» باعتمادهم على «الكف» و«الأصابع»، وأن يرسموا «الرِّجْلين» بتوظيفهم لـ«القدمين» و«الأصابع»، فإنهم جمعوا بين تلك الأعضاء فجسّدوا بشكل يكاد يتخذ صورة أجنحة العصافير، بحيث إنه كدنا أن نسمي هذا النوع بـ«الصورة العصفورية». ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن هذا النوع من الصور نقدم له بعض النماذج التي ترونها على الصفحة التالية.

---

(١) بالرغم من أن الرسم رقم ١٣ يحتمل قراءات متعددة، فإننا قد أكدنا بأنه قد ربط بينْ اليدين والعنق، باعتبار أننا قد سألنا الطفل عن اسم العضو الذي جسّده بين الرأس والرجلين، فأجابنا بأنه «العنق».

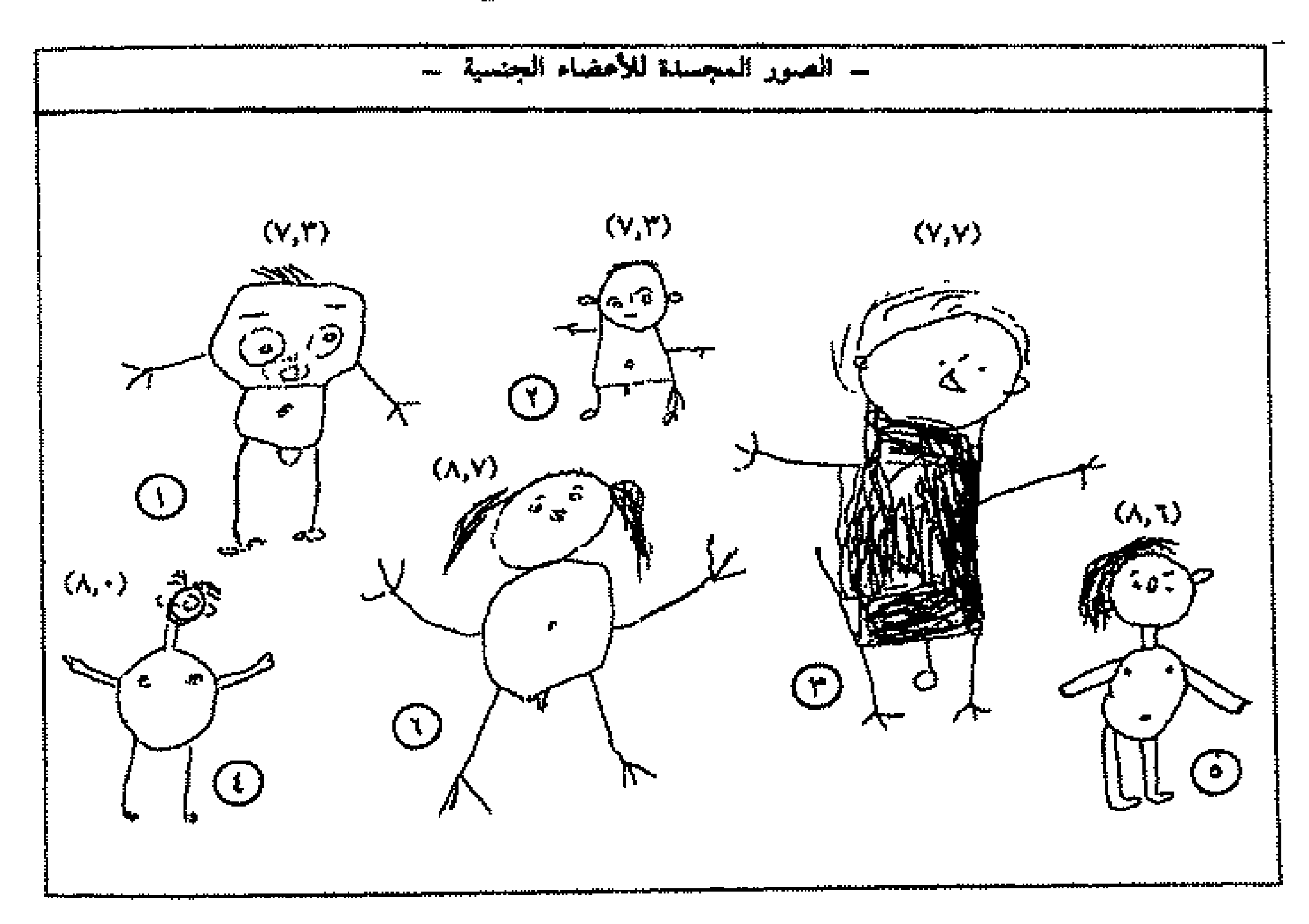


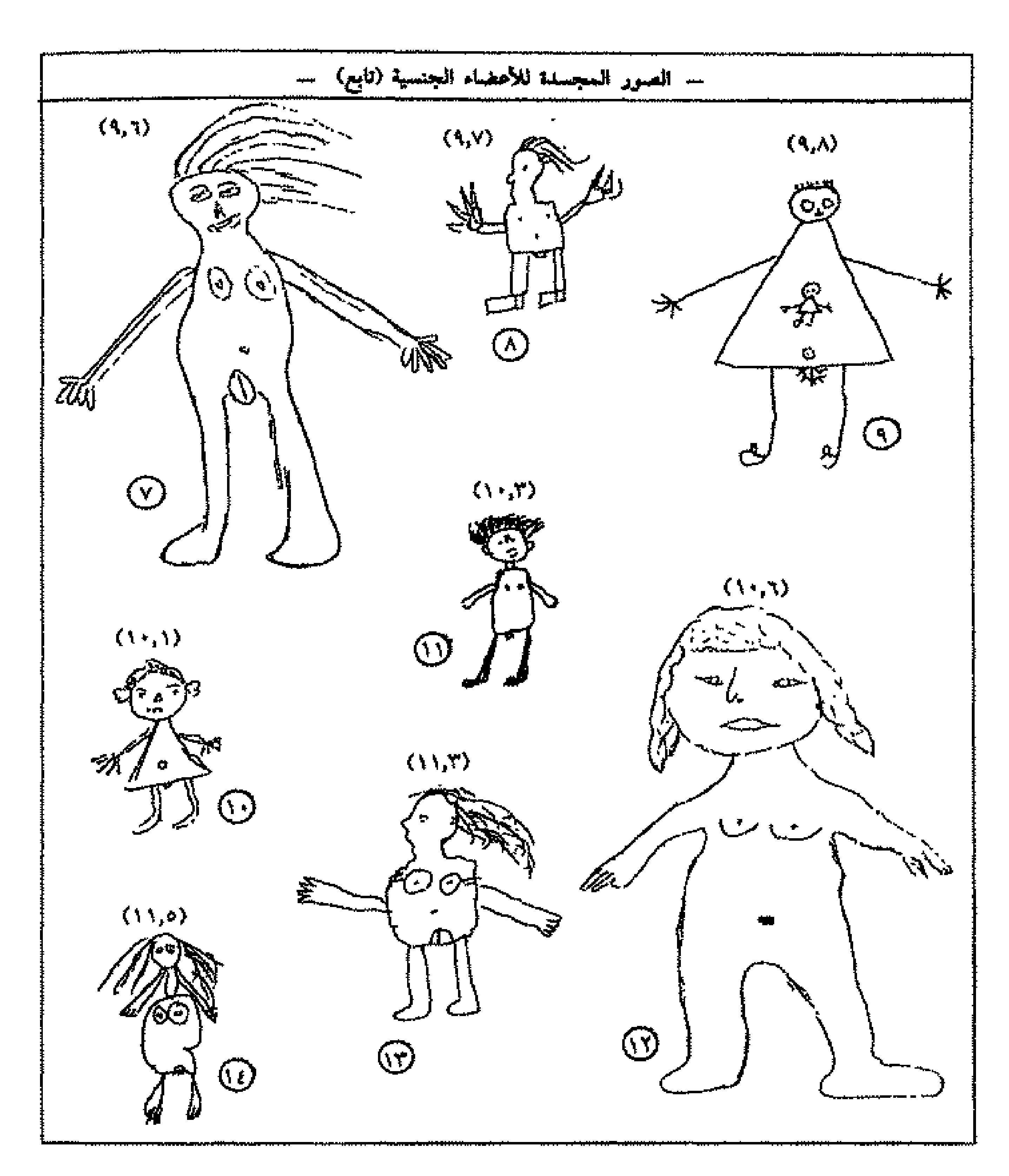
ـ الصور ذات الأطراف المشوهة ـ
(٩)
(٩,٣)
(٩,٥)
١
٢
٣
(١٠,٢)
(١٠,٦)
(١٠,١)
٥
٦
٤
(١١,٥)
(١١,٤)
(١١,٣)
٧
٩
٨

يتضح من خلال نماذج الصور ذات الأطراف المشوهة، أن الأطفال قد ضخموا الأطراف، وبخاصة «اليدين»، بحيث نلاحظ أنهم لم يتمكّنوا من عزل «الكف» عن «الأصابع»، كما هي الحال في الرسوم ذات الأرقام: ١ - ٢ - ٣ - ٤... ٩، و«القدم» عن «الأبنان»، كما يتضح ذلك في الرسمين: ١ و١٤؛ كما أن هناك من لم يجسّد «القدم» نهائياً، كما يتبين ذلك في الرسمين: ٢ و٩. وإننا نعتقد بأن هذه الظاهرة تجد تفسيرها في صعوبة انتقال الطفل من تجسيده للشيء انطلاقاً من رؤيته، أي انطلاقاً من حضوره في مجاله الإدراكي المباشر، إلى تجسيده للشيء نفسه باعتماده على صورة ذلك الشيء فقط، أي تجسيده له بارتكازه على عملية الاستحضار. وهي عملية عادةً ما تؤدي إلى اختلاف الشيء المجسّد بواسطة الرسم عن مقابله المادي. وهذه معضلة سنفصّل القول فيها في خاتمة هذا الكتاب.

٥ ـ الصورة المجسدة للأعضاء الجنسية:

ونعني بها كل الرسوم التي تمكّن الطفل من خلالها تجسيد الأعضاء الجنسية للمرأة. ونقصد بتلك الأعضاء «الثدي» و«السرة» و«العضو التناسلي». وقبل أن نسجّل بعض الخصائص التي تتميز بها تلك الرسوم، نؤثر أن نقدم منها للقارىء النماذج التالية:





— الصور المجسدة للأعضاء الجنسية (تابع) —

من خلال تمعّننا في كل الرسوم التي جسّدت الأعضاء الجنسية للمرأة، والتي قدمنا منها ١٤ نموذجاً فقط، توصلنا إلى تصنيفها في مجموعات متعددة تبعاً للخاصيتين التاليتين:

ـ الخاصية الأولى: وتتمثّل في تصنيفنا لتلك الرسوم حسب عدد الأعضاء الجنسية التي تمكنت من تجسيدها، حيث إننا حصلنا على سبع مجموعات رتبناها ـ تبعاً لأهميتها التكوينية ـ في الجدول التالي:

الجدول رقم ٣٥

الأعضاء الجنسية حسب ظهورها في رسوم أطفال المرحلة الثانية[1]

نوع الأعضاء / النتائج	السرة فقط	الثدي فقط	الثدي والسرة	العضو التناسلي فقط	السرة والعضو التناسلي	الثدي والعضو التناسلي	السرة والثدي والعضو التناسلي	المجموع
المجموع	٥٠	٤٩	١٩	٣٢	١٩	١٠	١٤	١٩٣
النسب المئوية	٢٥,٩٪	٢٥,٤٪	٩,٨٪	١٦,٦٪	٩,٩٪	٥,٢٪	٧,٢٪	١٠٠٪

يتضح من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٣٥ أننا قد راعينا في ترتيب مضامينه مساراً تكوينياً دقيقاً، حيث إننا بدأنا من أبسط ما يمكن تجسيده كـ«السرة» و«الثدي» كما في الرسم رقم ٤، وانتهينا بأعقدها، ونعني بها الرسوم التي جمعت بين «السرة» و«الثدي» و«العضو التناسلي»، كما يتضح ذلك في الرسوم ذات الأرقام: ٧ ـ ٨ ـ ١٣. وبين البسيط والمعقد نجد أنواعاً ثلاثة تمّ في أولها الجمع بين «الثدي» و«السرة»، كما هو الشأن في الرسمين رقم ٥ ورقم ١٢، وتم في ثانيها الجمع بين «السرة» و«العضو التناسلي»، كما يتضح ذلك في الرسوم ذات الأرقام: ١ ـ ٢ ـ ٦ ـ ٩ ـ ١٠، بينما تم الجمع في الثالث بين «الثدي» و«العضو التناسلي»، كما هو الشأن في الرسمين رقم ١١ و رقم ١٤. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد

---

(١) إن الأرقام التي تضمنها هذا الجدول لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الجدول رقم ٢٧، حيث نلاحظ بأن مجموع الأطفال الذين تمكنوا من تجسيد العضو التناسلي يساوي ٧٥، وعدد الذين جسدوا «الثدي» يصل إلى ٩٢، أما عدد الذين جسدوا «السرة» فيبلغ ١٠٢. فانطلاقاً من هذه المعطيات يمكن للقارىء أن يدرك معنى الأرقام التي تضمّنها الجدول أعلاه. وذلك من خلال اعتماده على الطريقة البسيطة التالية: لتحديد مجموع الرسوم التي جسدت العضو التناسلي مثلاً، علينا أن نجمع بين نتائج الخانات: ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧، أي ٣٢ + ١٩ + ١٠ + ١٤ = ٧٥. والطريقة نفسها يمكن اتباعها للحصول على مجموع الأعضاء الجنسية الأخرى. فلحساب مجموع «الثدي» مثلاً، علينا إضافة المجاميع التي تتضمنها الخانات: ٢ ـ ٣ ـ ٦ ـ ٧، أي: ٤٩ + ١٩ + ١٠ + ١٤ = ٩٢، وهو المجموع ذاته الذي أوردناه في الجدول رقم ٢٧.

إلى أننا نعتبر انتماء رسم ما إلى الخانة الرابعة (أي تجسيد «العضو التناسلي» فقط) أكثر تطوراً ونضجاً من الرسوم التي تنتمي إلى الخانتين: الثانية(«الثدي» فقط)، والثالثة(«الثدي» و«السرة»). وتبعاً للترتيب هذا، فإننا اعتبرنا انتماء معظم رسوم أطفال سنّ السابعة والثامنة إلى الخانات الثلاث الأولى أمراً معقولاً وسليماً من الناحية التكوينية، بحيث يمكننا القول بأنه كلما تقدّم الأطفال في العمر، تمكنوا من تجسيد الأعضاء الجنسية للمرأة[1]، ولا سيما «الثدي» و«العضو التناسلي».

الخاصية الثانية: وترتبط بالكيفية التي جسّد بها أطفال هذه المرحلة العضو التناسلي للمرأة، تلك الكيفية التي مكّنتنا من تصنيف رسومهم في المجموعات الثلاث التالية:

الجدول رقم ٣٦

أشكال تجسيد أطفال المرحلة الثانية للعضو التناسلي للمرأة

أشكال التجسيد	شكل ذكوري	شكل مبهم	شكل أنثوي	المجموع
المجموع	٢١	٣٧	١٧	٧٥
النسبة المئوية	٢٨,٠٪	٤٩,٣٪	٢٢,٧٪	١٠٠٪

يتبين من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٣٦ أن طفل هذه المرحلة قد جسّد العضو التناسلي للمرأة باعتماده على أحد الأشكال الثلاثة التالية:

* الشكل الذكوري: ويشير إلى تجسيد الأطفال للعضو التناسلي للمرأة من خلال استحضارهم للعضو التناسلي للرجل. ويمكن للقارىء أن يدرك ذلك بوضوح برجوعه إلى الرسوم ذات الأرقام: ٢ ـ ٣ ـ ٦ ـ ١١.

* الشكل المبهم: وهو عبارة عن دائرة في أسفل الجذع، كما يتضح ذلك من الرسوم ذات الأرقام: ١ ـ ٨ ـ ١٠ ـ ١٤. ولقد اعتبرناها مبهمة لكونها لم تجسّد بوضوح العضو التناسلي سواء أكان في شكله الذكوري أو الأنثوي.

* الشكل الأنثوي: وهو الذي تمكّن الطفل من خلاله تجسيد العضو التناسلي للمرأة بشيء من الوضوح، كما يتبين ذلك من الرسوم ذات الأرقام: ٧ ـ ٩ ـ ١٣.

ومن خلال ما سبق، يُمكننا أن نسجل الاستنتاجين التاليين:

ـ الاستنتاج الأول: ويرتبط بالفروق الكمية الموجودة بين هذه الأشكال، بحيث يُمكننا

---

(١) لقد تعمّدنا عدم تقديم جدول نربط فيه بين مدى قدرة أطفال هذه المرحلة على تجسيد الأعضاء الجنسية للمرأة وبين عمرهم الزمني باعتبار أننا سنكرر ما سبق وأن قدمناه في الجدول رقم ٢٧. ولا شك أنه من خلال اطلاع القارىء على مضامين ذلك الجدول، سيتمكّن من الحكم على مدى صحة القاعدة التي تقول بأنه كلما تقدم الطفل في العمر، زاد تجسيده للأعضاء الجنسية للمرأة.

القول بأن الشكل المبهم قد برز أكثر من غيره في رسوم الأطفال التي جسّدت العضو التناسلي للمرأة، مما يدلّ على أن طفل هذه المرحلة قادر على استحضار العضو التناسلي للمرأة أكثر مما هو قادر على تجسيده في رسوم واضحة.

ـ **الاستنتاج الثاني**: وهو استنتاج ذو بعد تكويني، حيث إن الرسوم التي حصلنا عليها في هذا النوع قد دلّت على أنه كلما تقدّم الطفل في السن، تمكّن من تجسيد العضو التناسلي للمرأة بشكل واضح ومقبول. ولا شك أن مضامين الجدول التالي ستبرهن على صحة هذا الاستنتاج:

الجدول رقم ٣٧

أشكال تجسيد العضو التناسلي للمرأة حسب أعمار المرحلة الثانية

أشكال التجسيد / الأعمار	٧	٨	٩	١٠	١١	المجموع
الشكل الذكوري	٦	٧	٥	٢	١	٢١
الشكل المبهم	٣	٦	٤	١٢	١٢	٣٧
الشكل الأنثوي	٠	٠	٣	٥	٩	١٧
المجموع	٩	١٣	١٢	١٩	٢٢	٧٥

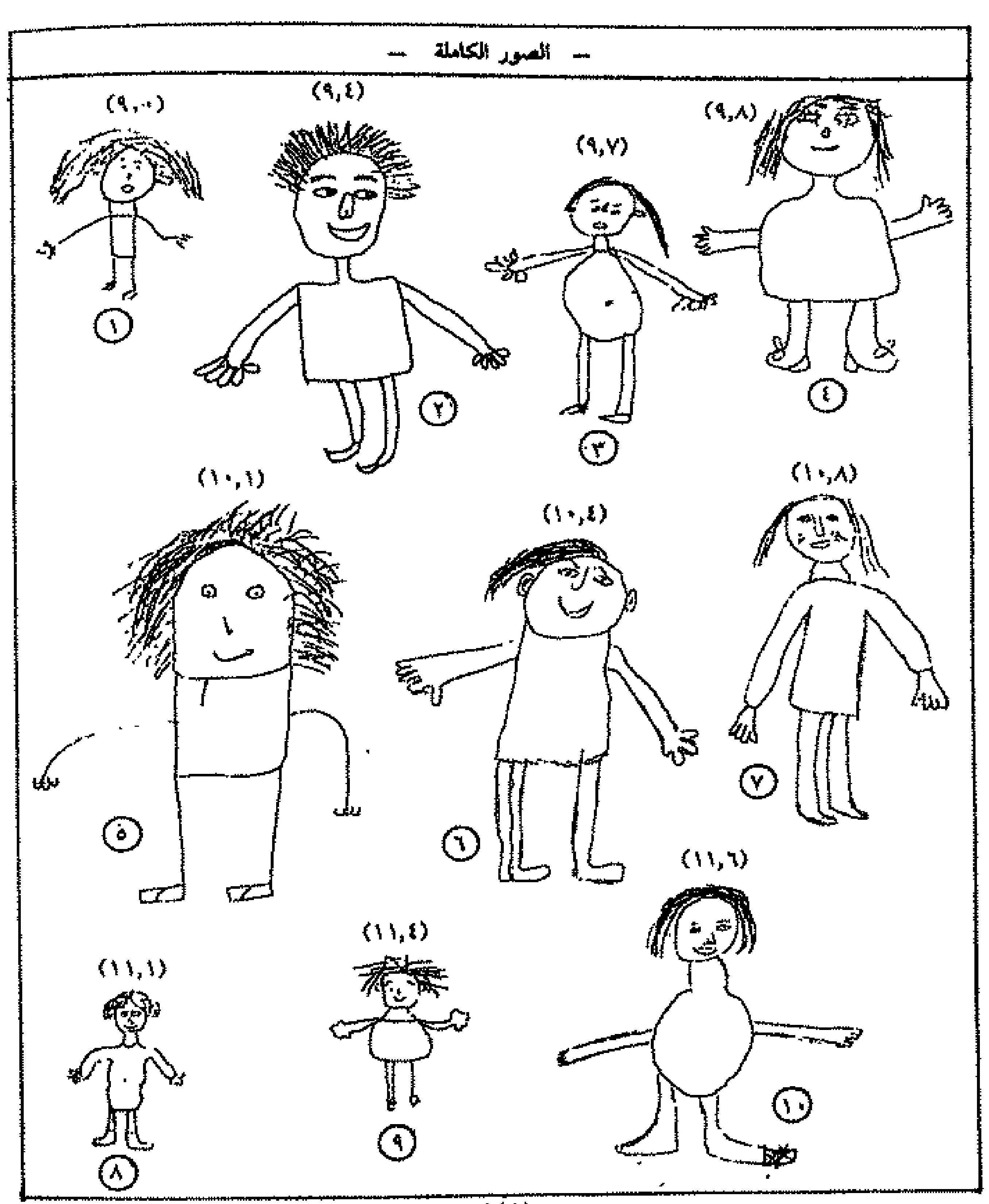
٦ ـ **الصور الكاملة**:

وهي الرسوم التي تمكّن من خلالها طفل هذه المرحلة من تجسيد أهم مكوّنات صورة المرأة، وبنياتها الجزئية (الرأس، الجذع، الأطراف). ونركّز هنا على البنيات الجزئية لأن كل رسم تمكّن من تجسيدها يُعتبر ـ في نظرنا ـ كاملاً. ولكي يتعرّف القارىء على هذا النوع من الصور نقدم له النماذج التي ترونها في الصفحة التالية.

من خلال تمعّننا في نماذج الصور الكاملة، وغيرها كثير، يُمكننا تسجيل الملاحظات الثلاث التالية:

١ ـ بالرغم من أن ما يناهز ٢٢,٢٪ من أطفال هذه المرحلة قد تمكنوا من تجسيد أهمّ المكوّنات الجسمية لصورة المرأة، فإن ذلك التجسيد لم يخضع لتقنيات محكمة ولتصوّر مضبوط يُراعي التناسق والانسجام بين الأعضاء والبنيات الجزئية من جهة، وبين هذه الأخيرة والبنية العامة من جهة أخرى. بحيث إن هناك من الأطفال من ضخم «الرأس» (كالرسمين رقم ٢ ورقم ٥)، أو «اليدين» (كالرسوم ذات الأرقام: ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٥)، أو «الفم» (كالرسم رقم ٢)، أو «البطن» (كالرسوم ذات الأرقام: ٣ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠)... مما قد يدفعنا إلى القول بأنه نادراً ما كنا نعثر على رسم يعبّر عن انسجام مقبول بين البنيات الجزئية المكونة لصورة المرأة، كما هو الشأن مثلاً في الرسم رقم ٧.

٢ ـ بالرغم من أننا قد أطلقنا اسم «الصور الكاملة» على هذه النماذج فإن ذلك لا


— الصور الكاملة —
(٩,٠)
(٩,٤)
(٩,٧)
(٩,٨)
١
٢
٣
٤
(١٠,١)
(١٠,٤)
(١٠,٨)
٥
٦
٧
(١١,٦)
(١١,٤)
(١١,١)
٨
٩
١٠

يعني أبداً أننا بمجرد رؤيتنا لها أو لغيرها نستنتج بأن الطفل قد رسم «امرأة». فيكفي أن يتأمل القارىء الرسوم ذات الأرقام: ٢ ـ ٥ ـ ٦ ليدرك مدى القصور التصويري والجمالي اللذين تعكسهما تلك الرسوم، بحيث إن طفل هذه المرحلة لم يتمكّن من إبراز شكل المرأة وصورتها وأنوثتها. وتبعاً لما سبق، فلا بد أن يكون القارىء على علم بأننا لا نستخدم كلمة «الكاملة» بمعنى الكمال، بل بمعنى توفّق الطفل في تجسيد أهمّ البنيات الجزئية والمكونات الجسمية التي تتشكل منها صورة المرأة.

٣ ـ إننا صراحة لم نتمكّن من خلال قراءتنا لـ«الصور الكاملة» أن نكشف عن خصائص معيّنة نستطيع الارتكاز عليها لتصنيف وترتيب تلك الصور تبعاً لتعاقب تكويني محدد. ونعتقد أن سبب ذلك يكمن في فصلنا بين الصور الكاملة والصور ذات البعد الجمالي. فما يمكننا تأكيده من الناحية التكوينية لا يتجاوز ما سيقدمه الجدول التالي من أرقام.

الجدول رقم ٣٨

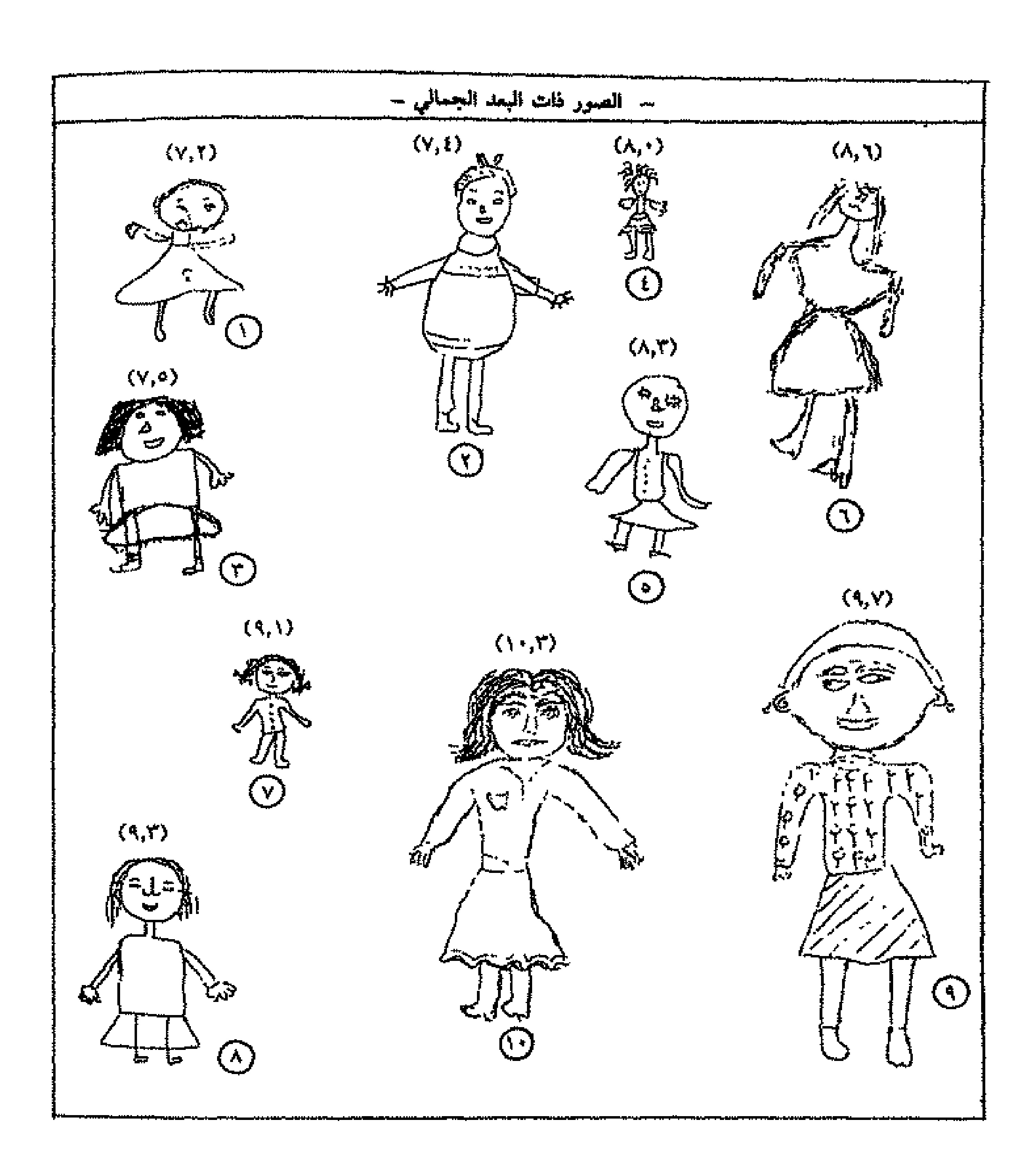
نتائج الصور الكاملة حسب أعمار المرحلة الثانية

الأعمار / النتائج	٧	٨	٩	١٠	١١	المجموع
المجموع	٧	١٤	٢٣	٢٩	٣٨	١١١
النسب المئوية	٦,٣٪	١٢,٦٪	٢٠,٧٪	٢٦,١٪	٣٤,٣٪	١٠٠٪

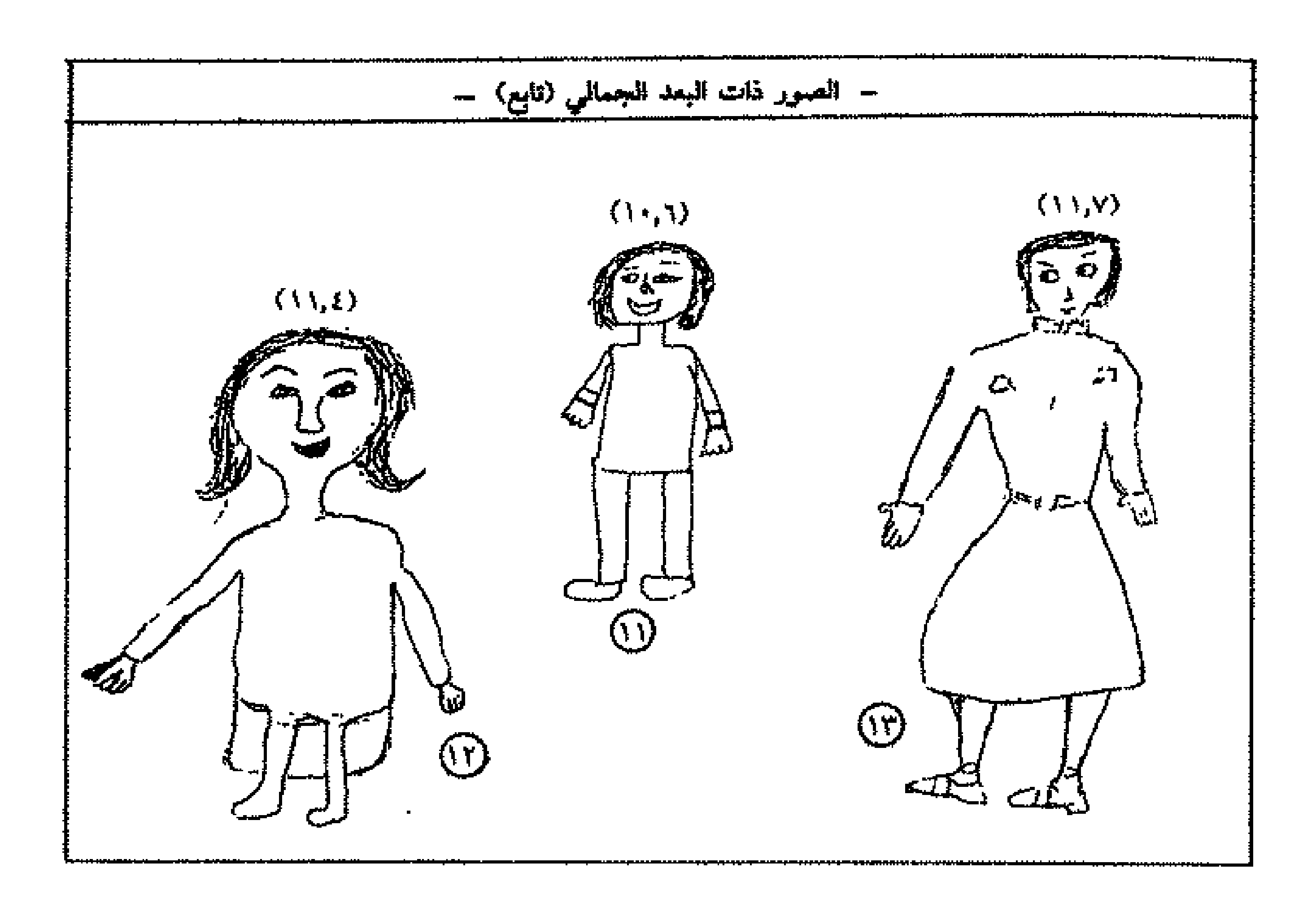
يتضح مما تضمنه الجدول رقم ٣٨ أنه كلما تقدم الأطفال في السن، زادت قدرتهم على إنتاج الصور الكاملة، مما يدلّ على أنهم مُقبلون في المراحل اللاحقة على إنتاج المزيد من تلك الصور.

٧ ـ الصور ذات البعد الجمالي:

نقصد بهذا النوع من الصور كل الرسوم التي بمجرد أن يراها المشاهد يقتنع بأن الطفل قد جسّد صورة المرأة. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن استعمالنا لصفة «الجمال» لا يعني أننا لا ندخل في هذا الصنف من الصور إلا تلك التي تمكّن الطفل من خلق انسجام وتناغم بين مكوناتها إلى حد استمتاع المشاهد برؤيتها والوقوف أمام روعتها، بل إنه يكفينا أن ندرك بأن الطفل قد تمكّن من خلق تناسقٍ نسبي بين البنيات الجزئية المكوِّنة لصورة المرأة لتصنف رسمه ضمن هذا النوع من الصور. ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن ذلك النوع نقدم له بعض النماذج على الصفحتين التاليتين.



ـ الصور ذات البعد الجمالي ـ



– الصور ذات البعد الجمالي (تابع) –

من خلال تمعننا في الرسوم التي تدخل ضمن الصور ذات البعد الجمالي يمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

الاستنتاج الاول: ويمكننا حصره في القاعدة التالية: كلما تقدم الأطفال في العمر، تمكّنوا من تجسيد مكوّنات صورة المرأة بشكل أكثر دقة وجمالية. فيكفي أن نقارن بين الرسوم ذات الأرقام: ١ ـ ٤ ـ ٦ ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٣ لنتأكد من صحة وسلامة هذه القاعدة. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أنه بالرغم من أن بعض الأطفال ممن هم في سنّ السابعة والثامنة تمكّنوا من إنجاز رسوم تنمّ عن تمكنهم من إبراز جمالية المرأة(كما هو الشأن في الرسم رقم ٢)، فإن القاعدة المذكورة تظل صحيحة. ولا مجال هنا لتوضيح الأسباب الكامنة وراء ذلك، باعتبار أن الكشف عن الأرضية العلمية لهذه القاعدة ستفرض علينا أن نتعرّض للميكانيزمات الذهنية التي يرتكز عليها طفل هذه المرحلة لتمثل صورة المرأة ولاستحضارها ولتجسيدها حسب مقاييس دقيقة تراعي علاقة الشكل بالأرضية التكوينية، والجزء بالكل، والعضو بالبنية. لذلك نفضل تأجيل الحديث عن تلك الأرضية إلى خاتمة الكتاب.

الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالقاعدة المذكورة، حيث إن تصنيفنا لرسوم أطفال هذه

المرحلة قد مكّننا من الحصول على النتائج التي يقدمها الجدول التالي:

الجدول رقم ٣٩

تجسيد جمالية المرأة حسب أعمار المرحلة الثانية

الأعمار / النتائج	٧	٨	٩	١٠	١١	المجموع
المجموع	٤	٥	١٤	١٨	٢٧	٦٨
النسب المئوية	٥,٩٪	٧,٣٪	٢٠,٦٪	٢٠,٥٪	٣٩,٧٪	١٠٠

يتبيّن من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٣٩ أن النتائج التي حصلنا عليها تزكي القاعدة السابقة الذكر، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن طفل هذه المرحلة قد ميّز - إلى حد ما - بين الجنسين على المستوى التصويري. وهو مستوى نعلم جميعاً صعوبته وتعقّده وما يتطلبه من دقة في الإنجاز، إذ إنه ليس من السهل أن يجسد المرء كل ما يستحضره. ونعتقد أن النقطة التالية ستوضّح لنا الفرق بين ما هو مجسّد فعلاً في رسوم الأطفال وما كان ينبغي أن تجسّده تلك الرسوم.

٥ - المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثانية

بعد أن خصّصنا النقاط الأربع السابقة للكشف عن المكوّنات الجسمية لصورة المرأة من خلال اعتمادنا على وسيلتيْ الوصف اللفظي والرسم، وبعد أن قدّمنا للقارىء نماذج من تلك الرسوم، وبعد أن عقدنا مقارنة بين نتائج الوصف ونتائج الرسم، سننتقل في هذه النقطة إلى مقاربة صورة المرأة من زاوية أخرى، ونعني بها تلك التي كان من المفروض أن تبرز في كلام أطفال هذه المرحلة وفي رسومهم، أي أن تبرز في وصفهم وتجسيدهم لمكوّنات صورة المرأة. ومن ثم، فإنها تُعتبر الزاوية المسكوت عنها، أو فلنقلْ الزاوية الغائبة قولاً ورسماً والحاضرة خيالاً وتمثّلاً. ولا شك أن عقدنا لمقارنة بين ما أفصح عنه الأطفال في وصفهم للمرأة ورسمهم لها وبين ما أفصح عنه خيالهم من مؤشرات جسمية يفضلّون توفرها فيها، سيفتح أمامنا فرصة التحقق من مدى مطابقة الواقعي للخيالي، والمعبَّر عنه للمسكوت عنه.

ولكي نجعل القارىء على علم بالفروق الموجودة بين الصور التي عبَّر عنها طفل هذه المرحلة والصور التي كان من المتوقع أن يعبِّر عنها، أجرينا حواراً معه فحصلنا على مادة أخضعناها للفرز والتصنيف فحصلنا على نتائج مستفيضة سنلخّصها في الجدول الجامع رقم ٤٠ على الصفحة التالية.

الجدول رقم ١٠

النتائج المرتبطة بالمؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثانية

	موشرات الاختيار / الأعمار	<	>	هـ	ب	ت	المجموع	الرتبة
	المجموع	٨٠٠	٨٠٠	٨٠٠	٨٠٠	٨٠٠	٤٠٠٠	
اللون	سوداء	٥	٤	٠	٦	٥	٢٠	٣
	سمراء	٢٢	٢٣	٢٩	٤٣	٤٨	١٦٥	٢
	بيضاء	٧٣	٧٣	٧١	٥١	٤٧	٣١٥	١
البنية	نحيفة	٢٩	٢٦	١٥	١٣	٩	٩٢	٣
	متوسطة	٢٩	٥٦	٦٦	٧٥	٧٩	٣٠٥	١
	بدينة	٤٢	١٨	١٤	١٢	١٢	٩٨	٢
القامة	قصيرة	٢١	١٩	٢٠	٨	٧	٧٥	٣
	متوسطة	٢٨	٥١	٦٢	٧٧	٨٤	٣٠٢	١
	طويلة	٥١	٣٤	١٨	١٥	٩	١٢٧	٢
الأنف	صغير	٤٩	٥٢	٥٣	٤٧	٤١	٢٤٢	١
	متوسط	٤٦	٤١	٤٦	٥٠	٥٧	٢٤٠	٢
	كبير	٥	٧	١	٣	٢	١٨	٣
الفم	صغير	٥٧	٥٧	٥١	٤٨	٤٥	٢٥٨	١
	متوسط	٣٧	٣٥	٤٢	٤٩	٥٤	٢١٧	٢
	كبير	٦	٨	٧	٣	١	٢٥	٣
العين	صغيرة بنية	٤	٧	١٦	٢	٤	٣٣	
	صغيرة زرقاء	١٤	١٦	١٣	٥	٤	٢	
	صغيرة سوداء	٢١	١٠	١١	٣	١٠	٥٥	
	متوسطة بنية	١١	١٤	١٧	٢٥	١٢	٧٩	٢
	متوسطة زرقاء	١٠	١٣	١٦	٢٢	١٥	٧٦	٣
	متوسطة سوداء	٧	٩	٢٣	٢٤	٤١	١٠٤	١
	كبيرة بنية	٥	٣	١	١	١	١١	
	كبيرة زرقاء	١١	١٢	٣	١١	٣	٤٠	
	كبيرة سوداء	١٧	١٢	٥	٧	١٠	٥١	
الشعر	قصير أشقر	١٢	٨	٥	٥	٥	٣٥	
	قصير أسود	٢٢	١٧	١٣	١١	١١	٧٤	
	متوسط أشقر	٩	٨	١٦	١٥	١٥	٦٣	
	متوسط أسود	١٠	١٥	١٣	٢٢	٢٦	٨٦	٢
	طويل أشقر	١٦	١٨	٢٤	٢٢	٥	٨٥	٣
	طويل أسود	٣١	٣٤	٢٩	٢٥	٣٨	١٥٧	١
الوجه	عريض	١٩	٢٠	١٤	٩	١٨	٨٠	٣
	مستطيل	٢٠	٢٣	٢١	١٣	١٦	٩٣	٢
	مستدير	٦١	٥٧	٦٥	٧٨	٦٦	٣٢٧	١

يتضح من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٤٠ أنه بالإضافة إلى تقديمنا للنتائج المرتبطة بالمؤشرات الجسمية التي تم اختيارها من قبل كل أعمار هذه المرحلة، خصّصنا عمودين في أسفل الجدول لتقديم المجموع العام الذي حصل عليه كل مؤشّر من جهة، ولتحديد المؤشّرات التي احتلت الرتب الثلاث الأولى من جهة أخرى.

من خلال قراءتنا لمضامين هذا الجدول يُمكننا أن نستنتج بسهولة أن الوجه المستدير قد حصل على الرتبة الأولى، والمستطيل على الرتبة الثانية، بينما احتل العريض الرتبة الثالثة. ويمكن للقارىء أن يتبع الطريقة نفسها ـ باعتماده على الرتب التي حددناها في العمود الأخير ـ لقراءة المؤشرات المرتبطة بـ«الشعر» و«العين» و«الأنف» و«الفم» و«الهيئة» و«القامة» و«اللون». ولا بد من الإشارة إلى أننا قد اعتمدنا في ترتيب تلك المؤشّرات على المجموع العام بدل الاعتماد على النتائج المرتبطة بكل عمر من الأعمار التي تتضمنها هذه المرحلة. ومن هنا، فإن صورة المرأة التي سنحصل عليها صورةٌ عامةٌ لا تعير اهتماماً كبيراً لبعض الاختلافات الموجودة بين أعمار هذه المرحلة. ولذلك فإننا لا نخفي أننا قد اعتمدنا على العام أكثر من الخاص، باعتبار أننا لم نتمكّن من إيجاد تطابق تام بين مختلف المؤشّرات الجسمية التي يفضّل أطفال كل عمر زمني توفّرها في المرأة.

غير أن ذلك لا يعني أننا لم نعثر على بعض مواطن التشابه بين المؤشّرات التي أفصح عنها أطفال هذه المرحلة، بحيث إن معظمهم قد منح الأولوية للوجه المستدير وللشعر الأسود الطويل. كما أنه باستثناء أطفال سنّ الحادية عشرة، فإن أطفال الأعمار الأخرى قد منحوا الأسبقية للمرأة ذات اللون الأبيض. وبالمثل، فإنه باستثناء أطفال سنّ السابعة، فإن الآخرين يفضّلون المرأة ذات الهيئة والقامة المتوسطتين. أما بالنسبة لـ«الأنف» و«الفم»، فإن ذوي الأعمار ٧ ـ ٨ ـ ٩ سنوات يفضلونهما صغيرين، بينما يؤثر أطفال سنّ العاشرة والحادية عشرة المرأة ذات «الفم» و«الأنف» المتوسطين. ولا شك أن القارىء، من خلال تمعّنه في النتائج التي تضمنها الجدول رقم ٤٠، سيلاحظ بأن «العين» تشكل المؤشّر الجسمي الذي اختلف أطفال هذه المرحلة في تحديد مواصفاته الجمالية أكثر من أي مؤشّر آخر. إذ إن أطفال سنّ السابعة يفضّلون المرأة ذات العينين الصغيرتين السوداوين، وأطفال سنّ الثامنة يفضّلون العينين المتوسطتين الزرقاوين، وأطفال سنّ التاسعة والحادية عشرة يؤثرون ذات العينين المتوسطتين السوداوين، أما أطفال سنّ العاشرة فيحبّذون ذات العينين البنيتين المتوسطتين.

وانطلاقاً من الاختلافات التي اقتصرنا على ذكر بعضها فقط، آثرنا الاعتماد على النتائج العامة للحصول على صورة المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة. وهي صورة قابلة للتعديل حسب خصوصية نتائج كل عمر زمني. ويمكننا أن نلخص أهم الصور التي أفصح عنها أطفال هذه المرحلة من خلال تقديمنا للاختيارات الثلاثة كما يلخصها الجدول رقم ٤١ على الصفحة التالية.

الجدول رقم ٤١

تراتبية اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثانية

الاختيار	الاختيار الأول		الاختيار الثاني		الاختيار الثالث	
	المؤشرات	الاختيارات	المؤشرات	الاختيارات	المؤشرات	الاختيارات
	وجه	مستدير	وجه	مستطيل	وجه	عريض
	شعر	طويل اسود	شعر	متوسط أسود	شعر	طويل أشقر
	عين	متوسطة سوداء	عين	متوسط بنية	عين	متوسطة زرقاء
	فم	صغير	فم	متوسط	فم	كبير
	أنف	صغير	أنف	متوسط	أنف	كبير
	قامة	متوسطة	قامة	طويلة	قامة	قصيرة
	هيئة	متوسطة	هيئة	بدينة	هيئة	نحيفة
	لون	أبيض	لون	أسمر	لون	أسود

بعد تحديدنا لأهم المؤشرات الجسمية التي فضّل أطفال هذه المرحلة توفرها في المرأة، وبعد أن حذّدنا الاختيارات الثلاثة الأولى التي حصلت على نتائج مرتفعة، عرضناها على أستاذ متخصص في الرسم، فطلبنا منه تجسيدها في رسوم تعكس بشكل تقريبي ما تضمّنه هذا الجدول (الجدول رقم ٤١). فكانت المحاولة مشجعة، حيث تمكّنا ـ بمساعدة الأستاذ محمد المصلوحي ـ من تجسيد الاختيارات الثلاثة السالفة في الرسوم التالية:

الاختيار الأول	الاختيار الثاني	الاختيار الثالث

من خلال تأملنا لهذه الرسوم، يُمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويرتبط بمكوّنات الصور الثلاث التي حصلنا عليها من خلال فرزنا وتصنيفنا لمختلف المؤشرات التي فضّل أطفال هذه المرحلة توفّرها في المرأة، وهي صور رتبناها تبعاً للنتائج التي قدّمناها في الجدول رقم ٤١، حيث احتلّت المرأة البيضاء المتوسطة القامة والهيئة، ذات الوجه المستدير والشعر الأسود الطويل والعينين الصغيرتين السوداوين والفم والأنف الصغيرين الرتبة الأولى. أما نظيرتها السمراء ذات القامة الطويلة والهيئة الممتلئة والفم والأنف المتوسطين والعينين المتوسطتين البنيتين والشعر الأسود المتوسط والوجه الطويل فقد احتلّت الرتبة الثانية. بينما احتلّت المرأة السوداء القصيرة القامة النحيفة الجسم ذات الفم والأنف الكبيرين والشعر الأشقر الطويل والعينين الزرقاوين المتوسطتين والوجه العريض الرتبة الثالثة.

ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن الصور الثلاث المبينة أعلاه صور عامة قابلة للتصحيح والتعديل تبعاً للنتائج التي حصل عليها كل عمر من أعمار هذه المرحلة. غير أنه بالرغم من ذلك، فإنه يُمكننا القول إجمالاً بأن الصورة ذات الرتبة الأولى قد برزت في كلام الأطفال أكثر من الصورتين الأخريين.

ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن الحدود الكمية لظهور كل صورة من الصور الثلاث المذكورة، نقدّم له الجدول التالي:

الجدول رقم ٤٢

النتائج المرتبطة باختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة لدى أطفال المرحلة الثانية

الاختيارات / النتائج	الاختيار الأول	الاختيار الثاني	الاختيار الثالث	الاختيار المختلط	المجموع
المجموع	١٠٤	٧٩	١٨	٢٩٩	٥٠٠
النسب المئوية	٢٠,٨٪	١٥,٨٪	٣,٦٪	٥٩,٨٪	١٠٠٪

لا شك أن ما سيثير انتباه قارىء مضامين الجدول رقم ٤٢ ينحصر في النتيجة التي حصلت عليها الصور ذات المؤشرات المختلطة (٥٩,٨٪)، مما يدفعنا إلى القول بأن ما يناهز ٢٩٩ طفلاً قد عبّروا عن مؤشرات لا تتطابق والصور الثلاث، حيث إننا غالباً ما نجد الأطفال يجمعون مثلاً بين اللون الأبيض والأنف المتوسط والوجه العريض، أو بين مؤشرات لا تتوافق وما تضمنته الاختيارات السالفة. وهذا بالضبط ما دفعنا إلى القول بأن تلك الاختيارات تتسم بالعمومية، باعتبارها تعبّر عن نتائج مرحلة بكاملها أكثر مما تعبّر عن نتائج عمر زمني معين.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ويرتبط بعلاقة البنية بالأجزاء، تلك العلاقة التي يُمكننا من خلالها الكشف عن مدى جمالية صورة المرأة التي استحضرها أطفال هذه المرحلة وعبّروا عن أهمّ

مكوّناتها. ولعلّ القارىء يتفق معنا في أن الصورة التي احتلت الرتبة الأولى تحظى بتناسق جمالي لا يُمكن إنكاره، حيث إن ما لا يقلّ عن ١٠٤ أطفال قد تخيّلوا تلك الصورة، أي صورة المرأة ذات الوجه المستدير والعينين السوداوين الصغيرتين والفم والأنف الصغيرين والشعر الأسود الطويل والقامة والهيئة المتوسطتين. إننا نعتقد بأن وصف مكوّنات جسم المرأة بهذه الدقة يدلّ على أن طفل هذه المرحلة كان يحدد مواصفات مختلف الأعضاء انطلاقاً من ارتكازه على بنية عامة، أي أنه كان يذكر تلك الأعضاء من خلال اعتماده على إطار محدد سلفاً. ومن ثم، فإن تناسق تلك الأعضاء لم يكن نتيجة الصدفة، بل نتيجة تصوّر الطفل لبنية عامة تنتظم داخلها تلك الأعضاء. ولا شك أنه كلما تصوّر الطفل البنية قبل الأجزاء، كانت الصورة المعبّر عنها أكثر تناسقاً وجمالية؛ وكلما غابت تلك البنية، كانت تلك الصورة أقل انسجاماً وجماليةً. ونعتقد أن أغلبية أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من استحضار البنية قبل الأعضاء، والكل قبل الجزء، والعام قبل الخاص. وهذا في حد ذاته يُعتبر تطوّراً مهمّاً لا يمكن إغفاله وإنكاره.

خاتمة

انطلاقاً مما تضمّنه هذا الفصل، يتضح للقارىء أننا قد تمكّنا من الكشف عن البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال اعتمادنا على مستويات معرفية ثلاثة: الوصف اللفظي، الرسم، الخيال والتوقع. وهي مستويات أفادتنا نتائجها في التعرّف على صورة المرأة في بُعديها الواقعي والمتخيّل.

ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أن تفسيرنا لمعظم الاستنتاجات التي استخلصناها من مختلف النتائج الواردة في هذا الفصل كان مقتضباً ومركّزاً، إن لم نقلْ جافاً في بعض الأحيان، بحيث إننا كنا نقف عند حدود تسجيل أهمّ الاستنتاجات والملاحظات التي كانت تمليها علينا طريقة قراءتنا لتلك النتائج. ولقد فضّلنا تسجيل ما هو أهم لكي لا نزيد من ضخامة حجم هذا الفصل من جهة، ولكي نقدّم تفسيرات سنضطر لتكرارها في خاتمة الكتاب من جهة أخرى. ولذلك آثرنا أن نقدم للقارىء ـ في نهاية هذا الفصل ـ أهم الخلاصات التي سنحاول تفسيرها ومناقشة مضامينها فيما بعد. وهي خلاصات يُمكننا حصرها في النقاط الخمس التالية:

١ ـ تتمثّل الخلاصة الأولى في أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من استحضار صورة المرأة والتعبير عن بنياتها الجزئية بواسطة الوصف اللفظي والرسم.

٢ ـ تنحصر الخلاصة الثانية في الفروق الدالّة الموجودة بين وصف الأطفال لصورة المرأة ورسمهم لها، بحيث يُمكننا القول بأن رسومهم أغنى تعبيراً وأكثر تنوعاً من وصفهم اللفظي لمكوّنات جسم المرأة.

٣ ـ الخلاصة الثالثة هي أن رسوم أطفال هذه المرحلة قد سجّلت تقدماً ملموساً في قدرتها على تجسيد صورة المرأة. فبالرغم من أن الصور الناقصة ما زالت تستحوذ على معظم الرسوم، فإن الصور الكاملة وذات البُعد الجمالي قد برزت بشكل لا بأس به لدى

أطفال هذه المرحلة، مما يفصح عن تمثّلهم للعلاقات المكانية كالتجاور والفصل والترتيب والحجم والمحيط.

٤ ـ تتمثّل الخلاصة الرابعة في قُدرة عدد لا يُستهان به من أطفال هذه المرحلة على تجسيد الأعضاء الجنسية للمرأة، مما يشير إلى إدراكهم للفروق الجسمية التي تميّز بين الجنسين.

٥ ـ تنحصر الخلاصة الخامسة والأخيرة في الفرق الموجود بين صورة المرأة التي جسّد الأطفال مكوّناتها، وصورة المرأة التي كان من المفروض أن تبرز في رسومهم. مما يسمح لنا بالقول بأن أطفال هذه المرحلة قد وجدوا صعوبات كبيرة في خلق تناسق بين المرجع والصورة الذهنية والوسيلة التعبيرية. ذلك أن رسم الطفل للمرأة أو صفة لها ـ باعتماده على الصورة الذهنية التي كوّنها عنها ـ قد فرضا عليه صعوبات معرفية كبيرة لاستحضار تلك الصورة أولاً، وللتعبير عنها بواسطة الكلام أو الرسم ثانياً. ولقد كان من الممكن أن تختفي تلك الصعوبات لو أننا قدّمنا صورة المرأة للطفل، فطلبنا منه تعداد مكوّناتها الجسمية أو تجسيد تلك المكوّنات باعتمادهم على ورقة وقلم. إلا أننا لم نستخدم تلك الإمكانية، باعتبار أن تعرّفنا على مدى تطابق منطوق الطفل ومرسومه يُعتبر الركيزة العلمية التي اعتمدنا عليها لتحديد مراحل تكون صورة المرأة عنده.

تلكم هي أهمّ الخلاصات التي سنحاول مناقشتها في نهاية الكتاب، وذلك انطلاقاً من مقارنتها بالخلاصات التي سبق وأن سجّلناها في الفصل الثاني، وبتلك التي سنخرج بها من خلال تحليلنا لنتائج الفصل المقبل.

الفصل الرابع

مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل [من عمر ١٢ إلى ١٤ سنة]

تمهيد

بعد أن أفردنا الفصل الثاني من هذا الكتاب للتعرّف على خصائص ومميزات مرحلة «تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل»، وبعد أن خصصنا الفصل الثالث للكشف عن أهم الأعمال التي ساهمت في تأسيس البنية العامة لتلك الصورة، فإننا سنفرد هذا الفصل لعرض معالم ومميّزات مرحلة أخرى اصطلحنا على تسميتها بـ«مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل». ولكي يكون القارىء على علم بالدلالة التي نمنحها لمفهوم «الاكتمال»، نقدّم رأساً الملاحظتين التاليتين:

١ ـ تقوم الملاحظة الأولى على أن استعمالنا لمفهوم «الاكتمال» لا يعني أبداً تمكّن جميع أطفال هذه المرحلة من وصف أو رسم الأعضاء المكوّنة لصورة المرأة، بل إنه يعني توفّق أغلبيتهم في وصف وتجسيد البُنيات الجزئية ـ الرأس والجذع والأطراف ـ بشكل ينمّ عن أن هناك انسجاماً وتلاؤماً بين استحضارهم لتلك البنيات والتعبير عنها. فنحن لسنا أمام طفل يصف أو يرسم أجزاء جسم المرأة بصفة عشوائية، بل إننا أمام طفل يُحاول جاهداً أن يصف ويرسم تلك الأجزاء باعتماده على نظام محدّد يفرضه عليه تصوّره واستحضاره لصورة المرأة. وهذا، في حد ذاته، يُعتبر تطوراً مهمّاً على مستوى خلق تناسق بين ما هو عام وما هو خاص، أي بين البنية العامة والبنيات الجزئية التي تتكوّن منها، ثم بين هذه الأخيرة والأعضاء التي يتشكّل منها جسم المرأة. فمثل هذا الانسجام يُعبّر ـ في نظرنا ـ عن تكامل كان غائباً بشكل كبير خلال مرحلة «التبلور» وبشكل نسبي خلال مرحلة «التأسيس». ولذلك اصطلحنا على تسمية هذه المرحلة بمرحلة «اكتمال البنية العامة لصورة المرأة»، بالرغم من أننا على علم بأن بعض مكوّناتها لم تكتمل بعد لدى معظم أطفال هذه المرحلة.

٢ ـ تنحصر الملاحظة الثانية في العلاقة التي تجمع بين مفهوم «اكتمال» البنية العامة وقدرة طفل هذه المرحلة على التمييز بين الجنسين، بحيث يمكننا القول منذ الآن بأن كل الأطفال قد تمكّنوا من ذكر الأعضاء الجسمية التي تميّز المرأة عن الرجل. وإننا نعتقد بأن ذلك التمييز هو الذي يمنح للبنية الجسمية معناها ودلالتها العميقة. إذ إننا أصبحنا أمام أطفال

لا يعرفون الفروق الجسمية الدقيقة التي تميّز بين الجنسين فحسب، بل يعرفون أيضاً انعكاسات تلك الفروق على المستوى الجنسي والاجتماعي والأخلاقي. ولا نخفي في هذا المجال بأننا نعتبر مجرد إدراك الطفل لتلك الفروق تطوّراً مهمّاً يفصح ضمنياً عن اكتمال البنية الجسمية لصورة المرأة عنده. وتبعاً لما سبق، فإننا نتمنى ألا يفهم القارىء من استخدامنا لمفهوم «الاكتمال» بأن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا جميعاً من استحضار صورة المرأة والتعبير عن مكوّناتها الجسمية بشكل تام ونهائي، بل إن دلالة «الاكتمال» تنحصر، على الخصوص، في قدرة الأطفال على إدراك الفروق الجسمية من جهة، وفي قدرتهم على خلق نظام أكثر تناسقاً بين البنية العامة والبنيات الجزئية والأعضاء من جهة أخرى.

ولكي يتمكّن القارىء من التعرّف بشكل مفصّل على خصائص هذه المرحلة، فإننا سنقسم مضامين هذا الفصل إلى النقاط الخمس التالية:

١) البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

٢) البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم.

٣) مقارنة بين نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم.

٤) أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم.

٥) المؤشّرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال المرحلة الثالثة.

١ ـ البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي

بما أن المحاور التي يتشكّل منها هذا الفصل لا تختلف عن تلك التي عرضناها في الفصلين السابقين، فإننا سنعمل على تجاوز بعض التوضيحات واختزال بعض الاستنتاجات الطويلة في فقرات جدّ مركّزة. ولذلك ـ وبدون أي تمهيد ـ يُمكننا القول بأننا سنقسم محورنا الأول هذا إلى نقطتين:

أ) النتائج المرتبطة بالبنية العامة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

ب) النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية المكوّنة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي.

أ ـ النتائج المرتبطة بالبنية العامة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي:

بعد أن أجرينا حوارات مستفيضة مع أطفال هذه المرحلة، وبعد أن صنّفناها تبعاً للمكونات الجسمية الواردة فيها، حصلنا على مادة غزيرة بوّبناها في جداول متعدّدة، ثم انتقلنا إلى تحديد عدد ظهور كل عضو من أعضاء جسم المرأة في كلام أطفال هذه المرحلة[1]. وبما أنه يتعذر علينا تقديم تلك الجداول كلها في ثنايا هذا الفصل، فإننا قد لخصنا نتائجها في الجدول العام رقم ٤٣ الذي تجدونه على الصفحة التالية.

---

(١) تضم هذه المرحلة ٣٠٠ طفل، باعتبار أن كل عمر من الأعمار الزمنية التي تشتمل عليها يحتوي على ١٠٠ طفل.

الجدول رقم ٤٣

النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي لدى أطفال المرحلة الثالثة

مكونات الجسم / الأعمار		١٢	١٣	١٤	المجموع	النسب المئوية
الرأس	رأس	٩٤	٩٨	٩٩	٢٩١	
	شعر	٦٥	٨٣	٨٩	٢٣٧	
	وجه	١٧	٢٦	٢٨	٧١	
	جبهة	٤	٦	٧	١٧	
	حاجب	١٩	٢١	٢٣	٦٣	
	عين	٨١	٩٢	٩٩	٢٧٢	
	أشفار	١٦	١٩	٢١	٥٦	
	خد	١٢	١١	١١	٣٤	
	أنف	٨٣	٩٤	٩١	٢٦٨	
	فم	٨٦	٩٣	٩٨	٢٧٧	
	شفة	٢٦	٤٤	٥٣	١٢٣	
	أسنان	٩	٣	٥	١٧	
	لسان	٨	٦	٣	١٧	
	ذقن	١	٧	٩	١٧	
	أذن	٨٣	٩٠	٨٩	٢٦٢	
المجموع		٦٠٤	٦٩٣	٧٢٥	٢٠٢٢	٥١,٤٪
الجذع	عنق	٢٧	٣٤	٥١	١١٢	
	صدر	٣٩	٦٧	٦١	١٦٧	
	ثدي	٣٢	٣٨	٤١	١١	
	بطن	٧٨	٨٣	٩٠	٢٥١	
	ظهر	١١	١٦	١٢	٣٩	
	سرة	٧	١٠	١٠	٢٧	
	أعضاء تناسلية	٣٨	٤٧	٦١	١٤٦	
المجموع		٢٣٢	٢٩٥	٣٢٦	٨٥٣	٢١,٧٪
الأطراف	كتف	١٥	١٦	١٥	٤٦	
	ذراع	١٢	١٤	١٥	٤١	
	يد	٩١	٩٩	١٠٠	٢٩٠	
	كف	١١	١٦	١٤	١١١	
	أصابع	٢٤	٣٨	٦٤	١٢٦	
	أظافر	٧	١٢	١٢	٣١	
	ساق	١٤	٢٠	٢٣	٥٧	
	ركبة	١٤	٢١	١٦	٥١	
	رجل	٩١	١٠٠	١٠٠	٢٩١	
	قدم	١٨	٣٤	٣٠	٨٢	
المجموع		٢٩٧	٣٧٠	٣٨٩	١٠٥٦	٢٦,٩٪
المجموع العام		١١٣٣	١٣٥٨	١٤٤٠	٣٩٣١	١٠٠٪

من خلال قراءتنا للنتائج العامة التي تضمّنها الجدول رقم ٤٣، يمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويرتبط بالمسار التكويني الذي عبّرت عنه مختلف النتائج التي قدّمها هذا الجدول، وبخاصة تلك التي أفصحت عنها المجاميع العامة. ذلك أنه كلما انتقلنا من عمر إلى آخر، لاحظنا زيادة في قدرة الأطفال على تعداد ووصف أجزاء جسم المرأة. فيكفي للقارىء أن يُقارن بين المجموع العام الذي حصل عليه أطفال سن الثانية عشرة (١١٣٣)، وذلك الذي حصل عليه أطفال سن الثالثة عشرة (١٣٥٨)، وأطفال سن الرابعة عشرة (١٤٤٠)، ليدرك أن مكوّنات صورة المرأة هي في تطوّر تكويني مستمر.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ونعتبره تتمة للسابق، ذلك أن التطوّر المستمر الذي طبع صورة المرأة لا يعني أن أطفال هذه المرحلة لم تكتمل صورتها لديهم، بل إن ذلك التطوّر يرتبط بقدرة الأطفال أنفسهم على تعداد أجزاء جسم المرأة بشكل مستفيض ومكثف، أكثر من ارتباطه بظهور بعض المكوّنات الجسمية للمرأة لدى أطفال عمر زمني محدد دون أطفال العمرين الآخرين. فبالرغم من أن «الفم» مثلاً قد انتقل مجموعه من ٨٦ إلى ٩٣ إلى ٩٨، تبعاً لانتقال الأطفال من عمر إلى آخر، فإن ذلك لا يعني أن أطفال سنّ الرابعة عشرة قد تمكّنوا من تعداد أجزاء لم يتمكّن نظائرهم في سنّ الثانية عشرة وسن الثالثة عشرة من تعدادها. فمجموع الأجزاء التي تمّ ذكرها من جانب أطفال هذه المرحلة هو ٣٢ جزءاً، بدءاً بـ«الرأس» وانتهاء بـ«القدم». ومن ثم، يمكننا أن نسجل في هذا المضمار استنتاجاً ذا صيغة مركّبة: إذا كانت مكوّنات صورة المرأة لدى أطفال هذه المرحلة ما زالت في حاجة إلى المزيد من التطوّر، فإنه مع ذلك كله نستطيع القول بأن بنية تلك الصورة قد اكتملت لديهم. ومن ثم، فإن أطفال هذه المرحلة يتعايش لديهم القصور جنباً إلى جنب مع الاكتمال، أي اكتمال البنية العامة بجانب القصور في تعداد كل الأجزاء المكوّنة لها. فيكفي أن يُقارن القارىء بين نتائج «الرِجْل» (٩١ ـ ١٠٠ ـ ١٠٠)، ونتائج «الأظافر» (٧ ـ ١٢ ـ ١٢)، ليدرك الازدواج السابق وليفهم سبب الفروق الموجودة بين تمكّن الأطفال من وصف أعضاء معيّنة وإخفاقهم في وصف أعضاء أخرى.

ـ **الاستنتاج الثالث**: ويتعلّق بالنتائج التي حصلت عليها مختلف البنيات الجزئية التي تكوّن صورة المرأة. ذلك أنه من خلال تأملنا لتلك النتائج نستنتج أن الرأس يحتل الرتبة الأولى، والأطراف الرتبة الثانية، بينما يحتل الجذع الرتبة الثالثة. وبالرغم من أن النتائج التي أوردناها في الجدول رقم ٤٣ تزكّي هذا الترتيب، فإن هذا الأخير ما زال في حاجة إلى المزيد من التوضيح، باعتبار أن المجاميع التي اعتمدنا عليها للحصول على ذلك الترتيب منبثقة عن بنيات جزئية لا تضمّ عدد الأعضاء نفسها، بحيث إن أجزاء الرأس ليست مساوية لأجزاء الجذع ولا لأجزاء الأطراف. ومن ثم، فإن النتائج التي حصلت عليها كل بنية جزئية (الرأس: ٢٠٢٢، الجذع: ٨٥٣، الأطراف: ١٠٥٦) لا تعكس رتبتها الحقيقية، ما دام الفرق الموجود بينها راجعاً إلى احتواء بعضها على مكوّنات تفوق بكثير ما تحتويه الأخرى. ولهذا السبب،

آثرنا أن نقارن بين نتائج تلك البنيات باعتمادنا على المتوسطات بدل النتائج العامة. وهي متوسطات لخصناها في الجدول التالي:

الجدول رقم ٤٤

متوسطات البنيات الجزئية المكونة لصورة المرأة

البنيات الجزئية	الرأس	الجذع	الأطراف
المجموع العام	٢٠٢٢	٥٨٣	١٠٥٦
عدد مكونات البنية[١]	٤٥	٢١	٣٠
المتوسطات[٢]	٤٤,٩	٤٠,٦	٣٥,٢

انطلاقاً من المتوسطات التي تضمنها الجدول رقم ٤٤، يمكننا تعديل الترتيب الذي أوردناه سابقاً ليصبح على الشكل التالي: الرأس في الرتبة الأولى (٤٤,٩٣)، والجذع في الرتبة الثانية (٤٠,٦١)، بينما تحتلّ الأطراف الرتبة الأخيرة (٣٥,٢). ونعتقد أن المكانة المهمة التي أصبح الجذع يحتلّها تحمل دلالة عميقة سنحاول الكشف عنها في نهاية الكتاب.

وبعد تقديمنا لأهم الاستنتاجات المرتبطة بالبنية العامة لصورة المرأة، نعتقد أيضاً أن بإمكاننا أن ننتقل الآن إلى عرض أهمّ ما يمكن استنتاجه من خلال قراءتنا للنتائج المتعلّقة بالبنيات الجزئية المكونة لتلك الصورة.

ب ـ النتائج المرتبطة بالبنيات الجزئية المكونة لصورة المرأة من خلال الوصف اللفظي:

بما أنه قد سبق لنا وحصرنا تلك البنيات الجزئية في ثلاث، فإننا سنتناولها واحدةً واحدة تبعاً للترتيب التالي:

١ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الرأس:

ويُمكننا حصرها في ثلاثة:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالفروق الكميّة الموجودة بين مختلف الأعضاء المكوِّنة

---

(١) لقد حصلنا على عدد مكوّنات كل بنية جزئية بجمعنا لعدد الأجزاء التي تمكّن كل عمر زمني من ذكرها. فبما أن كل الأعمار قد تمكّنت من ذكر ١٥ عضواً من أعضاء الرأس، فإننا حصلنا على ٤٥ كرقم يُجسّد ما تمكّن أطفال هذه المرحلة من تعداده. والأمر نفسه طبقناه للحصول على أجزاء بنيتَي الجذع والأطراف.

(٢) لقد حصلنا على المتوسطات من خلال تقسيمنا للمجاميع العامة على عدد مكوّنات البنية. فمتوسط الرأس مثلاً يساوي: ٢٠٢٢ ÷ ٤٥ = ٤٤,٩٣. ولقد طبقنا الطريقة عينها للحصول على متوسطَي الجذع والأطراف.

للرأس. ذلك أن الأغلبية الساحقة من أطفال هذه المرحلة قد تمكنوا من وصف أعضاء كـ«الرأس» و«الفم» و«الأنف» و«العينين» و«الشعر» و«الأذن» بشكل مكثّف يفوق وصفهم لأعضاء أخرى كـ«الشفتين» و«الحاجب» و«الوجه» و«الأشفار» و«الخد» و«الأسنان» و«اللسان» و«الجبهة» و«الذقن»، مما يفصح عن أن هذه الأعضاء الأخيرة لم تبرز في كلام الأطفال بشكل مقبول، بالرغم من أننا على يقين بأنهم يعرفونها. ونعتقد أن سبب تجاوزهم لذكر تلك الأعضاء يكمن في اختزالهم لمجموعة من الأعضاء في عضو واحد، بحيث إن الطفل يعتقد أن ذكره لـ«العين» مثلاً سيعفيه من تعداد أجزاء أخرى كـ«الحاجبين» و«الأشفار». والأمر نفسه يُمكن قوله بالنسبة لـ«اليد» و«الرجل» و«الفم» و«الوجه» و«الرأس».. وغيرها من الأعضاء.

ـ الاستنتاج الثاني: بالرغم من تأكيدنا في النقطة السابقة التي أفردناها لعرض النتائج المرتبطة بالبنية العامة لصورة المرأة على أن تلك البنية قد اكتملت لدى أطفال هذه المرحلة، فإن ذلك لا يُعفينا من القول بأن اكتمال البنية لا يعني ضمنياً اكتمال العناصر المكوِّنة لها، حيث إننا نعتقد بأن تلك العناصر ستظل في تطوّر مستمر حتى بعد سنّ الرابعة عشرة. ولذلك فإن قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٤٣ تفصح لنا عن قاعدة سبق وأن أكدناها في مواضع شتى من الفصل السابق.. وهي قاعدة مفادها أن تقدم الطفل في العمر يؤدي به إلى تنويع وتكثيف وصفه وتعداده لأجزاء جسم المرأة، حيث نجد النتائج المرتبطة بالرأس قد انتقلت من ٦٠٤ لدى أطفال سنّ الثانية عشرة، إلى ٦٩٣ لدى أطفال سنّ الثالثة عشرة، لتصل إلى حدود ٧٢٥ لدى أطفال سنّ الرابعة عشرة. غير أنه بالرغم من صلابة تلك القاعدة، فإن تعميمها بشكل آلي قد يُسقطنا في أخطاء متعددة. إذ إننا قد وجدنا في كثير من الحالات أن أطفال سنّ الثالثة عشرة قد تمكّنوا من وصف أعضاء معيّنة أكثر من نظائرهم في سنّ الرابعة عشرة. فيكفينا أن نقرأ النتائج المرتبطة بـ«الأنف» و«اللسان» و«الأذن» و«الصدر» و«الظهر» و«الكتف» و«الكف» و«الركبة» و«القدم»، لنتأكد من ذلك. ومن ثم يُمكننا القول إن القاعدة السابقة تظل صحيحة في حالة عقدنا مقارنةً بين النتائج العامة التي حصل عليها كل عمر من الأعمار التي تضمّها هذه المرحلة. أما في حالة إجرائنا لمقارنات دقيقة بين النتائج التي حصل عليها كل مكوّن من مكوّنات جسم المرأة لدى أطفال هذه المرحلة، فإن القاعدة السالفة الذكر ستفقد صلابتها وقدرتها التعميمية.

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالمكانة التي حظيت بها مختلف أعضاء «الرأس» لدى أطفال هذه المرحلة. وهي مكانة يُمكننا الكشف عنها باعتمادنا على النتائج التي يتضمنها الجدول رقم ٤٥ على الصفحة التالية.

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٤٥، يُمكننا تسجيل الملاحظتين التاليتين:

١ ـ تتمثّل الملاحظة الأولى في الرتب المتقدمة التي احتلها «الرأس» وبعض الأعضاء ذات الوظائف الحسّية كـ«الفم» و«الأنف» و«الأذن» و«العين». وهي أعضاء حصلت على نتائج جد مرتفعة تراوحت بين ٨١ و٩٩، مما يدلّ على أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من استحضار الأعضاء البارزة في وجه المرأة والتعبير عنها بواسطة الكلام. ولا مجال هنا لإثارة

الجدول رقم ٤٥
ترتيب أجزاء بنية الرأس لدى أطفال المرحلة الثالثة

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
الأجزاء / العمر	رأس	فم	أنف	أذن	عين	شعر	شفة	حاجب	وجه	أشفار	خد	أسنان	لسان	جبهة	ذقن
١٢	٩٤	٨٦	٨٣	٨٣	٨١	٦٥	٢٦	١٩	١٧	١٦	١٢	٩	٨	٤	١
الأجزاء / العمر	رأس	أنف	فم	عين	أذن	شعر	شفة	وجه	حاجب	أشفار	خد	ذقن	جبهة	لسان	أسنان
١٣	٩٨	٩٤	٩٣	٩٢	٩٠	٨٣	٤٤	٢٦	٢١	١٩	١١	٧	٦	٦	٣
الأجزاء / العمر	رأس	عين	فم	أنف	شعر	أذن	شفة	وجه	حاجب	أشفار	خد	ذقن	جبهة	أسنان	لسان
١٤	٩٩	٩٩	٩٨	٩١	٨٩	٨٩	٥٣	٢٨	٢٣	٢١	١١	٩	٧	٥	٣

سبب احتلال «الوجه» لرتب متأخرة (الرتبة ٩ لدى أطفال سنّ الثانية عشرة، والرتبة ٨ لدى أطفال سنّ الثالثة عشرة والرابعة عشرة)، ما دمنا قد تطرقنا إلى ذلك في الفصل السابق، وما دمنا قد أكدنا غير ما مرة في ثنايا هذه الدراسة بأن ذكر الطفل لـ«الرأس» قد يوهمه بأنه قد وصف الأعضاء التي توجد بين «الشعر» و«العنق».

٢ ـ أما الملاحظة الثانية، فإنها ترتبط بالرتب التي احتلتها بعض الأعضاء التي تحظى بدلالة خاصة لدى المرأة، ونعني بها: «الشعر» و«الشفتين» و«الحاجبين» و«الأشفار» و«الخدين». ولا نخفي في هذا المجال بأن النتيجة التي حصلت عليها «الشفتان» قد أثارت انتباهنا أكثر من غيرها. إذ إن مجموعهما قد انتقل من ٢٦ لدى أطفال سنّ الثانية عشرة، إلى ٤٤ لدى أطفال سنّ الثالثة عشرة، ليصل إلى حدود ٥٣ لدى أطفال سنّ الرابعة عشرة، مما يدلّ على أن طفل هذه المرحلة قد بدأ يمنح بعض الأعضاء دلالةً خاصة. فإذا كنا قد اعتبرنا النتائج التي حصل عليها «الفم» (٨٦ ـ ٩٣ ـ ٩٨) عادية ومعقولة باعتباره يمثّل قناة الإشباع والتواصل، فإن نتائج «الشفتين» تضفي على ذلك الإشباع معنى عاطفياً قد يدفعنا إلى القول بأنه معنى جنسي أكثر منه بيولوجي. وبالمثل، فإن بعض الأعضاء التي حصلت على نتائج ضعيفة جداً لدى أطفال المرحلة السابقة قد أصبحت خلال هذه المرحلة تسترعي اهتمام الأطفال. فيكفي أن نقرأ النتائج التي حصل عليها «الحاجبان» و«الأشفار» و«الخدان» لندرك ذلك. ونعتقد أن التقدم النسبي الذي عرفته نتائج تلك الأجزاء الجسمية الدقيقة إنما يعكس رغبة الأطفال في إبراز أنوثة المرأة وجمالها، تلك الأنوثة التي ستتضح للقارىء حينما سيطلع

على ما ستتضمنه النقطة التالية من نتائج واستنتاجات، باعتبارها نقطة سنخصصها للنتائج المرتبطة بالجذع، أي بالبنية الجزئية التي تتضمّن أعضاء تُعبِّر عن أنوثة المرأة وخصوصيتها. فما هو مقدار وصف أطفال هذه المرحلة لتلك الأعضاء؟ وإلى أي حد تمكّنوا من إبراز تلك الخصوصية؟

٢ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الجذع:

من خلال قراءتنا للنتائج التي تضمنها الجدول رقم ٤٣، يمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويتعلّق بالمسار التكويني الذي يُمكننا أن نستشفه من خلال قراءتنا للمجموع العام الذي حصلت عليه الأعضاء المكوّنة لجذع المرأة. فيكفينا أن نقرأ المجموع الذي حصل عليه الجذع لدى أطفال سنّ الثانية عشرة (٢٣٢) وسنّ الثالثة عشرة (٢٩٥) وسنّ الرابعة عشرة (٣٢٦)، لندرك بأن تقدم الأطفال في العمر يستتبع زيادةً في قدرتهم على تعداد مكوّنات جذع المرأة.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ويُمكننا صياغته باعتمادنا على المعطيات التي يقدمها الجدول التالي:

الجدول رقم ٤٦

ترتيب أجزاء بنية الجذع لدى أطفال المرحلة الثالثة

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
الأجزاء / العمر	بطن	صدر	أعضاء تناسلية	ثدي	عنق	ظهر	سرة
١٢	٧٨	٣٩	٣٨	٣٢	٢٧	١١	٧
الأجزاء / العمر	بطن	صدر	أعضاء تناسلية	ثدي	عنق	ظهر	سرة
١٣	٨٣	٦٧	٤٧	٣٨	٣٤	١٦	١٠
الأجزاء / العمر	بطن	صدر	أعضاء تناسلية	عنق	ثدي	ظهر	سرة
١٤	٩٠	٦١	٦١	٥١	٤١	١٢	١٠

من خلال ما تضمّنه الجدول رقم ٤٦، يمكننا استنتاج الأمرين التاليين:

١ ـ يتمثل أولهما في احتلال «البطن» و«الصدر» للرتبتين الأوليين، مما يدلّ على أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من استحضار صورة البنية الجزئية قبل تعدادهم للأجزاء المكوّنة لها. والحقيقة أن وصف الأطفال لتلك البنية جدّ معبِّر من الناحية الكمية، حيث تراوح

تعدادهم لـ«البطن» بين ٧٨ و٩٠، وذكرهم لـ«الصدر» بين ٣٩ و٦١. وبالرغم من التفاوت الموجود بين نتائج «البطن» و«الصدر»، فإننا على يقين بأن أطفال هذه المرحلة يعرفونهما معاً، إلاّ أن ما جعل نتائجهما تتفاوت من جهة، ولا تصل إلى ذروتها (١٠٠) من جهة أخرى، هو أن معظم الأطفال الذين ذكروا «البطن» لم يذكروا «الصدر» والعكس بالعكس، بحيث إن الطفل يعتقد أن ذكره لـ«الصدر» سيعفيه من ذكر «البطن». ولذلك، فإنه بالرغم من ضعف النتائج التي حصل عليها «الصدر» بالمقارنة مع تلك التي حصل عليها «البطن»، فإننا ما زلنا نعتقد بأن بنية الجذع قد اكتملت لدى أطفال هذه المرحلة.

٢ ـ أما الأمر الثاني، فإنه يرتبط بالنتائج التي حصلت عليها الأعضاء الجنسية للمرأة، وبخاصة «عضوها التناسلي» و«الثدي». فهي نتائج ضعيفة بالمقارنة مع عمر أطفال هذه المرحلة، إذ إننا كنا ننتظر منهم وصف تلك الأعضاء بشكل مكثّف ومستفيض. ولا نخفي في هذا المجال بأننا فوجئنا حينما وجدنا أن نتائج «العضو التناسلي» قد تراوحت بين ٣٨ و٦١، ونتائج «الثدي» بين ٣٢ و٥١، ونتائج «السرة» بين ٧ و١٠.. مما دفعنا إلى التأكد ـ كما فعلنا في الفصل السابق ـ في مدى قدرة أطفال هذه المرحلة على التمييز بين الجنسين. إذ إننا أثناء محاورتنا لهم كنا نسألهم عن الأعضاء الجسمية التي تميّز المرأة عن الرجل. وبالرغم من أن السؤال كان محرجاً، فإن إصرارنا على الحصول على أجوبتهم كان كبيراً، لأن تلك الأجوبة تمثّل مادة أساسية للحسم في مسألة مهمة من مسائل البحث. وبعد تصنيفنا لتلك الأجوبة حصلنا على النتائج التي يقدمها الجدول التالي:

الجدول رقم ٤٧

التنائج المرتبطة بالمؤشرات الجسمية التي وظفها الأطفال للتمييز بين الجنسين

المؤشرات / الأعمار	الشعر	الثدي	العضو التناسلي	أعضاء أخرى صوت، إنجاب..	المجموع
١٢	٣٩	٨٩	٧٨	٣١	٢٣٧
١٣	٢٨	٩٧	٩٢	٢٢	٢٣٩
١٤	٤٧	٩٤	٩٨	١٦	٢٥٥
المجموع	١١٤	٢٨٠	٢٦٨	٦٩	٧٣١

انطلاقاً مما تضمنه الجدول رقم ٤٧، يمكننا إدراك الفروق الموجودة بين تعداد الطفل للأعضاء الجنسية للمرأة من خلال وصفه لمكوّناتها الجسمية ككل، وتعداده للأعضاء نفسها من خلال إقامته مقارنة بين جسم المرأة وجسم الرجل، بحيث إن الأغلبية الساحقة من الأطفال قد تمكّنوا من ذكر «الثدي» و«العضو التناسلي»، باعتبارهما يُمثّلان المكوِّنين الجسميين اللذين يُميزان بين الجنسين. وحتى الأطفال الذين لم يتمكنوا ـ لسبب من الأسباب ـ من ذكر

هذين المكوّنين، فإنهم يعرفونهما حق المعرفة، باعتبار أننا أثناء محاورتنا لهم، لم نكن نسمع منهم كلمة «لا أعرف»، بل إنهم كانوا يفضّلون السكوت المرفق بالابتسامة الخجولة مع توجيه نظرهم إلى الجانب أو إلى الأسفل.

٣ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الأطراف:

من خلال قراءتنا للنتائج الواردة في الجدول رقم ٤٣، يُمكننا أن نسجّل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويتعلّق بالارتفاع التدريجي الذي طبع النتائج المرتبطة بالأطراف، حيث انتقلت من ٢٩٧ في سنّ الثانية عشرة، إلى ٣٧٠ في سنّ الثالثة عشرة، لتصل إلى حدود ٣٨٩ في سنّ الرابعة عشرة. ومن هنا يُمكننا القول بأن تلك النتائج تخضع لمسار تكويني جدّ محدّد، حيث إن التقدم في العمر يستتبع زيادةً في قدرة أطفال هذه المرحلة على تعداد مكوّنات الأطراف.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويُمكننا استخلاص عناصره من خلال قراءتنا لمضامين الجدول التالي:

الجدول رقم ٤٨

ترتيب أجزاء بنية الأطراف لدى أطفال المرحلة الثالثة

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
الأجزاء / العمر	رجل	يد	أصابع	قدم	كتف	ساق	ركبة	ذراع	كف	أظافر
١٢	٩١	٩١	٢٤	١٨	١٥	١٤	١٤	١٢	١١	٧
الأجزاء / العمر	رجل	يد	أصابع	قدم	ركبة	ساق	كتف	كف	ذراع	أظافر
١٣	١٠٠	٩٩	٣٨	٣٤	٢١	٢٠	١٦	١٦	١٤	١٢
الأجزاء / العمر	رجل	يد	أصابع	قدم	ساق	ركبة	كتف	ذراع	كف	أظافر
١٤	١٠٠	١٠٠	٦٤	٣٠	٢٣	١٦	١٥	١٥	١٤	١٢

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٤٨، يمكننا أن نستنتج بأن «الرِجْل» و«اليد» ـ باعتبارهما العضوين اللذين يُشكلان بنية الأطراف ـ قد احتلتا الرتبتين الأوليين. وحتى القلّة القليلة من الأطفال الذين فشلوا في ذكر هذين العضوين، كانت على علم بهما، بحيث إننا على يقين من أن سبب ذلك الفشل راجع إما إلى النسيان وإما إلى الضغط الذي فرضه موقف الاستجواب على نفسية بعض الأطفال. وقد يلاحظ القارىء أن كل الأعضاء ـ ما عدا «الرِجْل» و«اليد» ـ قد حصلت على نتائج متوسطة أو هزيلة، وهي ملاحظة وجيهة قد تؤدي بالقارىء إلى الاقتناع بأن البنية الجسمية لصورة المرأة لم تكتمل بعد عند أطفال هذه المرحلة. وهو اقتناع لا نخفي هنا رفضنا له، باعتبار أن بنية الأطراف هي أكثر البنيات الجزئية

تعرضاً للاختزال، بحيث إن معظم الأطفال قد اكتفوا بذكر عضو واحد للإشارة إلى مجموعة من الأعضاء. فذكرهم لـ«الرِّجل» مثلاً يوهمهم بأنهم قد أحاطوا بكل الأجزاء المكوِّنة لها «كالساق» و«الركبة» و«القدم»... إلخ، كما أن ذكرهم لـ«اليد» يسقطهم في الوهم ذاته. ولذلك لم تحصل الأعضاء المكوّنة لـ«الرجل» و«اليد» على نتائج مرتفعة، بالرغم من أن أطفال هذه المرحلة يعرفونها حق المعرفة. فإذا كان تحليلنا صحيحاً، فإن ظاهرة الاختزال التي طبعت وصف الأطفال لمكوّنات جسم المرأة ستختفي أثناء رسمهم لها، باعتبار أن الرسم لا يمنح الأطفال إمكانية التعبير عن مجموعة من الأعضاء من خلال تجسيدهم لعضو واحد. ومن ثم، فإن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو: إلى أي حد يُمكننا القول إن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من تجسيد أهمّ، أو فلنقلْ كل مكوّنات البنية الجسمية لصورة المرأة؟

٢ ـ البنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

بعد أن خصّصنا النقطة السابقة لتقديم النتائج التي حصلنا عليها من خلال تحليلنا وتصنيفنا للمادة التي جمعناها بواسطة إجرائنا لحوارات مستفيضة مع أطفال هذه المرحلة حول مدى قدرتهم على تعداد المكوّنات الجسمية لصورة المرأة، فإننا سنفرد هذه النقطة لعرض النتائج التي حصلنا عليها من خلال ترجمتنا لرسوم الأطفال إلى أرقام. هذه الأرقام التي يُمكننا تلخيصها في الجدول العام رقم ٤٩ على الصفحة التالية.

من خلال تمعّننا في مضامين الجدول رقم ٤٩، يُمكننا تسجيل استنتاجات متعدّدة ترتبط كل مجموعة منها ببنية من البنيات الجزئية المكوِّنة لجسم المرأة. ولكي تتخذ تلك الاستنتاجات شكلاً منظماً، فإننا سنقدمها باعتمادنا على المحاور الأربعة التالية:

أ) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالبنية العامة.

ب) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الرأس.

ج) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الجذع.

د) الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الأطراف.

أ ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة بالبنية العامة:

ويُمكننا تحديدها في ثلاثة استنتاجات:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بزيادة قدرة أطفال هذه المرحلة على تجسيد مكوّنات جسم المرأة بفعل تقدمهم في العمر، حيث إننا نلاحظ أن النتائج العامة قد انتقلت من ١٩٦٤ لدى أطفال سنّ الثانية عشرة، إلى ٢١٠٠ لدى أطفال سنّ الثالثة عشرة، لتصل إلى حدود ٦٢٦٣ لدى أطفال سنّ الرابعة عشرة. ولا شك أن ذلك الانتقال يعبّر ضمنياً عن مسار تكويني يخضع للعلاقة التي تجمع بين التقدم في العمر والقدرة على التجسيد.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويتعلّق بالثبات الذي يكاد يطبع قدرة أطفال هذه المرحلة على استحضار صور أعضاء جسم المرأة وتجسيدها، بحيث إن رسومهم قد احتضنت مجموعة من الأعضاء يتراوح عددها بين ٣٠ و٣١، مما يدلّ على أن البنية العامة لصورة المرأة قد اكتملت

الجدول رقم ٤٩

النتائج المرتبطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم لدى أطفال المرحلة الثالثة

	أجزاء الجسم / الأعمار	١٢	١٣	١٤	المجموع	النسب المئوية
الرأس	رأس	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٣٠٠	
	شعر	٩٣	٩٥	٩٧	٢٨٥	
	وجه	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٣٠٠	
	جبهة	٩٤	١٠٠	١٠٠	٢٩٤	
	حاجب	٦٩	٦٧	٧٨	٢١٤	
	عين	٩٤	٩٥	٩٨	٢٨٧	
	أشفار	١٧	١٩	٢٦	٦٢	
	خد	٧	١١	١٤	٣٢	
	أنف	٨٩	٩٦	٩٨	٢٨٣	
	فم	٩٢	٩٨	٩٧	٢٨٧	
	شفة	١٣	١٢	١٦	٤١	
	أسنان	٣	٢	٠	٥	
	ذقن	٨٦	٩٣	٩٧	٢٧٦	
	أذن	٨٠	٧٢	٨٥	٢٣٧	
المجموع		٩٣٧	٩٦٠	١٠٠٦	٢٩٠٣	٤٦,٣٪
الجذع	عنق	٧١	٨٩	٨٢	٢٤٢	
	صدر	٩٣	٩٧	٩٦	٢٨٦	
	ثدي	٣٢	٣٩	٣٥	١٠٦	
	بطن	٩٣	٩٧	٩٦	٢٨٦	
	ظهر	٠	٠	٠	٠	
	سرة	٢١	٢٨	٣٦	٨٥	
	أعضاء تناسلية	٢٧	٢٨	٣٥	٩٠	
المجموع		٣٣٧	٣٧٨	٣٨٠	١٠٩٥	١٧,٥٪
الأطراف	كتف	٨٠	٩١	٩٣	٢٦٤	
	ذراع	٨١	٨٧	٩١	٢٥٩	
	يد	٨٢	٩٢	٩٤	٢٦٨	
	كف	٦١	٧٣	٨١	٢١٥	
	أصابع	٦٦	٧٩	٨٥	٢٣٠	
	أظافر	٠	٣	٥	٨	
	ساق	٥٥	٥٦	٦٤	١٧٥	
	ركبة	١٥	١٤	٢١	٥٠	
	رجل	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٣٠٠	
	قدم	٨١	٨٦	٩١	٢٥٨	
	أبنان	٦٩	٨١	٨٨	٢٣٨	
المجموع		٦٩٠	٧٦٢	٨١٣	٢٢٦٥	٣٦,٢٪
المجموع العام		١٩٦٤	٢١٠٠	٢١٩٩	٦٢٦٣	١٠٠٪

عندهم، ومن ثم لم يبقَ أمامهم سوى إغناء تلك البنية بتجسيدهم لمختلف الأعضاء التي تتشكّل منها.

ـ **الاستنتاج الثالث**: ويرتبط بالرتبة التي احتلتها كل بنية من البنيات الجزئية المكوِّنة لجسم المرأة، بحيث يُمكننا ـ من خلال قراءتنا للنتائج التي حصلت عليها تلك البنيات ـ أن نؤكد على أن الرأس قد احتل الرتبة الأولى، وأن الأطراف قد احتلت الرتبة الثانية، بينما احتل الجذع الرتبة الثالثة. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أننا لم نتوقف عند مقارنتنا بين البنيات السابقة الذكر عند حدود الاعتماد على النتائج التي حصلت عليها، بل إننا حاولنا أن نتحقّق من صحة الرتب التي احتلتها تلك البنيات من خلال حسابنا لمتوسطاتها، حيث حصل «الوجه» على متوسط قدره ٧٠,٨، والأطراف على متوسط يُناهز ٧٠,٧٨ بينما لم يتجاوز متوسط الجذع ٦٠,٨٣. وإننا نعتقد صراحة بأنها متوسطات تزكّي، من جهة، الترتيب الذي أوردناه سابقاً، وتعبّر من جهة أخرى عن تمكّن معظم أطفال هذه المرحلة من تجسيد مكوِّنات جسم المرأة. فإذا كانت البنية العامة قد اكتملت عندهم، والأعضاء المكوِّنة للبنيات الجزئية قد برزت بكثافة في رسومهم، فمعنى ذلك أن تعبيرهم عن صورة المرأة بواسطة الرسم قد عرف تقدماً مهماً لا يُمكن لأي كان إنكاره أو التقليل من شأنه.

ب ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الرأس:

ويُمكننا حصرها في الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويتمثّل في النتائج المرتفعة التي حظيت بها مختلف الأعضاء المكوِّنة للرأس. فباستثناء «الأسنان» و«الشفتين» و«الخد» و«الأشفار»، فإن كل الأعضاء الأخرى قد برزت بشكل مكثّف في رسوم أغلبية الأطفال. وبالرغم من أن بعض الأعضاء كـ«الرأس» و«الوجه» و«العين» و«الشعر» قد حصلت على نتائج متقاربة لدى مختلف الأعمار، فإن ذلك لا يعني غياب الأرضية التكوينية، بحيث إنه بمجرد قراءتنا لنتائج «الرأس» نحسّ بوجود تلك الأرضية. إذ يكفينا أن ترتفع نتائج «الرأس» من ٩٣٧ لدى أطفال سنّ الثانية عشرة، إلى ٩٦٠ لدى أطفال سنّ الثالثة عشرة، إلى ١٠٠٦ لدى أطفال سنّ الرابعة عشرة، لنقول بأن الزيادة في السنّ تؤدي إلى الزيادة في القدرة على التجسيد.

ـ **الاستنتاج الثاني**: ويرتبط بالرتبة التي احتلها كل عضو من أعضاء الرأس، وهي رتب يمكننا التعرّف عليها من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٠ على الصفحة التالية.

من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٥٠، يمكننا القول بأن «الرأس» و«الوجه» قد حصلا على نتائج جدّ مرتفعة. ونركّز هنا على «الوجه» و«الرأس» لكونهما يُمثّلان الإطارين اللذين يحتضنان كل الأعضاء الأخرى. ولا شك أن النتائج التي حصلا عليها تشير بكل وضوح إلى أن «الرأس» و«الوجه»، كبنيتين جزئيتين، قد اكتملا لدى كل أطفال هذه المرحلة. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل هناك أعضاء أخرى كـ«الجبهة» و«العينين» و«الشعر» و«الفم» و«الأنف» و«الأذنين» و«الحاجبين» و«الذقن»، قد حصلت على نتائج مرتفعة جداً، مما يفصح أيضاً عن أن أطفال هذه المرحلة قد تمكنوا بأغلبيتهم من تجسيد الأعضاء المكوِّنة لـ«الرأس». ونعتقد أن فشل بعض الأطفال في رسم أجزاء جسمية كـ«الشفتين» و«الخدين» و«الأشفار»، يعود إلى

الجدول رقم ٥٠

ترتيب أجزاء بنية الرأس لدى أطفال المرحلة الثالثة

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	عين	جبهة	شعر	فم	أنف	ذقن	أذن	حاجب	أشفار	شفة	خد	أسنان.
١٢	١٠٠	١٠٠	٩٤	٩٤	٩٣	٩٢	٨٩	٨٦	٨٠	٦٩	١٧	١٣	٧	٣
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	جبهة	فم	أنف	عين	شعر	ذقن	أذن	حاجب	أشفار	شفة	خد	أسنان
١٣	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٩٨	٩٦	٩٥	٩٥	٩٣	٧٢	٦٧	١٩	١٢	١١	٢
الأجزاء / العمر	رأس	وجه	جبهة	عين	أنف	شعر	فم	ذقن	أذن	حاجب	أشفار	شفة	خد	أسنان
١٤	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٩٨	٩٨	٩٧	٩٧	٩٧	٨٥	٧٨	٢٦	١٦	١٤	٠

صعوبة تجسيد تلك الأجزاء بالاعتماد على الورقة والقلم. ذلك أن معظم الأطفال قد طلبوا منا الاستعانة بالملوّنات لإبراز مختلف الأعضاء التي يصعب تجسيدها بالاعتماد على قلم الحبر الجاف، إلا أننا رفضنا ذلك، باعتبار أن استعمالهم للملونات سيفرض علينا إثارة قضايا قد تتطلّب منا القيام ببحث مستقلٍ بذاته. ولذلك، فإننا نُرجع ضعف النتائج التي حصلت عليها بعض الأعضاء إلى صعوبة تجسيدها، أكثر مما نُرجعه إلى عدم قدرة الأطفال على استحضارها.

ج ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الجذع:

ويُمكننا حصرها في الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالنتائج المهمّة التي حصل عليها «البطن» و«الصدر» باعتبارهما ـ كما أكدنا في مواضع شتى ـ يُمثّلان البنية الجزئية التي تحتضن أجزاء الجذع كلها، بحيث يُمكن القول بأن معظم الأطفال قد تمكّنوا من تجسيد تلك البنية. إلا أنه في مقابل ذلك نجد أعضاء أخرى كـ«الثدي» و«السرة» و«العضو التناسلي» لم تبرز بشكل مكثّف في رسوم الأطفال. ذلك أن معظمهم لم يجسّد تلك الأعضاء بالرغم من معرفته لها واستحضاره لصورتها. ومن ثم، فإننا نعتقد بأن عاملي الحياء والحشمة قد لعبا دوراً حاسماً في غياب تلك الأعضاء في عددٍ لا يُستهان به من الرسوم. غير أنه بالرغم من الفرق الكبير بين النتائج التي حصل عليها «البطن» و«الصدر» وتلك التي حصلت عليها الأعضاء الجنسية، فإنه بإمكاننا القول إنه مع تقدم الأطفال في السن، يزيد تجسيدهم لمختلف أعضاء الجذع. ويُمكننا أن نلمس

تلك الزيادة بوضوح حينما نقارن بين النتائج العامة التي حصلت عليها مختلف أعمار هذه المرحلة في رسمها للجذع، حيث وصل مجموع الأعضاء التي تمكن أطفال سنّ الثانية عشرة من تجسيدها إلى ٣٣٧، ويبلغ مجموع تلك الأعضاء لدى أطفال سنّ الثالثة عشرة ٣٧٨، في حين وصل ذلك المجموع إلى حدود ٣٨٠ لدى أطفال سنّ الرابعة عشرة.

ـ **الاستنتاج الثاني:** ويتعلّق بالرتب التي احتلتها مختلف الأعضاء المكوّنة للجذع. وهي رتب يُمكن للقارىء أن يطّلع عليها من خلال قراءته لمضامين الجدول التالي:

الجدول رقم ٥١

ترتيب أجزاء بنية الجذع لدى أطفال المرحلة الثالثة

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	ثدي	أعضاء تناسلية	سرة
١٢	٩٣	٩٣	٧١	٣٢	٢٧	٢١
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	ثدي	أعضاء تناسلية	سرة
١٣	٩٧	٩٧	٨٩	٣٩	٢٨	٢٨
الأجزاء / العمر	صدر	بطن	عنق	سرة	ثدي	أعضاء تناسلية
١٤	٩٦	٩٦	٨٢	٣٦	٣٥	٣٥

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥١، يتبيّن لنا أنها تزكّي ما سبق وأن أكدناه في الاستنتاج الأول، حيث إن الأعضاء العامة ـ «الصدر» و«البطن» ـ قد احتلت الرتبتين الأوليين، بينما احتلت الأعضاء المعبّرة عن أنوثة المرأة ـ «الثدي» و«العضو التناسلي»... ـ الرتب الأخيرة (٤ و٥ و٦). ولا مجال هنا لتبرير ذلك ما دُمنا قد وعدنا القارىء بأننا سنقدّم في نهاية الكتاب تفسيراً عاماً لكل المسائل التي تركناها معلّقة في الفصلين السابقين.

د ـ الاستنتاجات المستخلصة من النتائج المرتبطة ببنية الأطراف:

ويُمكننا حصرها في الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول:** ويرتبط بالنتائج المرتفعة التي حصلت عليها مختلف الأعضاء المكوّنة للأطراف. فباستثناء «الأظافر» و«الركبة»، فإن الأعضاء الأخرى قد حظيت بنتائج تعبّر عن اكتمال بنية الأطراف لدى أطفال هذه المرحلة. ويُمكن القول إجمالاً ـ من خلال تأملنا للنتائج التي يقدمها الجدول رقم ٤٩ ـ بأن اكتمال تلك البنية يزداد سنةً بعد أخرى من عمر الطفل، إذ

إن الأجزاء المكوّنة للأطراف قد بلغ مجموع تجسيدها في رسوم أطفال سنّ الثانية عشرة ٦٩٠، وفي رسوم أطفال سنّ الثالثة عشرة ٧٦٢، وفي رسوم أطفال سنّ الرابعة عشرة ٨١٣.

ـ الاستنتاج الثاني: ويتعلّق بالمكانة التي حظي بها كل عضو من الأعضاء المكوّنة للأطراف لدى أطفال هذه المرحلة. تلك المكانة التي يمكننا التعرّف عليها باعتمادنا على مضامين الجدول التالي:

الجدول رقم ٥٢

ترتيب أجزاء بنية الأطراف لدى أطفال المرحلة الثالثة

الرتب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
الأجزاء / العمر	رجل	يد	قدم	ذراع	كتف	أبنان	أصابع	كف	ساق	ركبة	أظافر
١٢	١٠٠	٨٢	٨١	٨١	٨٠	٦٩	٦٦	٦١	٥٥	١٥	٠
الأجزاء / العمر	رجل	يد	كتف	ذراع	قدم	أبنان	أصابع	كف	ساق	ركبة	أظافر
١٣	١٠٠	٩٢	٩١	٨٧	٨٦	٨١	٧٩	٧٣	٥٦	١٤	٣
الأجزاء / العمر	رجل	يد	كتف	ذراع	قدم	أبنان	أصابع	كف	ساق	ركبة	أظافر
١٤	١٠٠	٩٤	٩٣	٩١	٩١	٨٨	٨٥	٨١	٦٤	٢١	٥

من خلال قراءتنا لمحتويات الجدول رقم ٥٢، يمكننا القول بأن «الرِجْل» و«اليد» قد احتلتا الرتبتين الأوليين، وهو ما نعتبره عادياً طالما أن هذين العضوين يُمثلان الإطارين اللذين يحتضنان كل الأجزاء الأخرى. ولا شك أن القارىء سيلاحظ أنه باستثناء «الركبة» و«الأظافر»، فإن الأعضاء الأخرى قد برزت بشكل مكثف في رسوم الأطفال، مما يُعبِّر عن تمكنهم من استحضار صورة بنية الأطراف وتجسيد معظم الأجزاء المكوِّنة لتلك البنية.

يتضح مما سبق أننا قد سجّلنا مجموعة من الاستنتاجات التي ما زالت في حاجة إلى المزيد من التفسير والمناقشة للكشف عن الخلفية المعرفية والعاطفية التي ترتكز عليها. وما دمنا قد وعدنا القارىء بتقديم ذلك التفسير وتلك المناقشة في نهاية الكتاب، فإننا نؤثر أن ننتقل الآن إلى عقد مقارنة بين نتائج الوصف اللفظي ونتائج الرسم لكي نتعرّف على نقاط التقائهما وانفصالهما، باعتبارها نقاطاً ستفيدنا في إيجاد تفسير مقنع للاختلاف أو التشابه الموجودين بين الكلام والرسم، أي بين الوسيلتين التعبيريتين الأكثر استعمالاً من جانب الأطفال.

٣ ـ مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم لدى أطفال المرحلة الثالثة

بعد أن تعرّفنا على النتائج المرتبطة بوصف أطفال هذه المرحلة لجسم المرأة، وعلى

النتائج المتعلّقة بتجسيدهم له، سننتقل إلى إجراء مقارنة بينهما على مستويين إثنين: المستوى الكمّي والمستوى التراتبي.

أ ـ مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم على المستوى الكمي:

انطلاقاً من المعطيات الكميّة التي تضمنها الجدولان رقم ٤٣ ورقم ٤٩، تمكّنا من حساب الفروق الموجودة بين وصف الأطفال لمكوّنات جسم المرأة ورسمهم لها. ولا مجال هنا للتأكيد على أننا قد اعتمدنا على الاختبار «التائي» لتحديد الدلالة الإحصائية لتلك الفروق ما دمنا قد تعرّضنا فيما سبق للأسباب التي دفعتنا إلى تطبيق ذلك الاختبار. ولكي يتمكّن القارىء من تكوين فكرة واضحة عن تلك الفروق آثرنا تقديمها له كاملة في الجدول التالي:

الجدول رقم ٥٣

مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم لدى أطفال المرحلة الثالثة

الأجزاء / الأعمار	التقنيات المستعملة	الرأس	الجذع	الأطراف	المجموع العام	المتوسطات	الانحراف المعياري	القيمة التائية (ت)	مستوى الدلالة
١٢	الوصف	٦٠٤	٢٣٢	٢٩٧	١١٣٣	٣٥,٤	٣١,٥٨	٣,٦٧	٩٩٪
	الرسم	٩٣٧	٣٣٧	٦٩٠	١٩٦٤	٦٥,٤	٣١,٧١		ثقة
١٣	الوصف	٦٩٣	٢٩٥	٣٧٠	١٣٥٨	٤٢,٤	٣٤,١	٢,٨٨	٩٩٪
	الرسم	٩٦٠	٣٧٨	٧٦٢	٢١٠٠	٦٧,٧	٣٤,٣٤		ثقة
١٤	الوصف	٧٢٥	٣٢٦	٣٨٩	١٤٤٠	٤٥,٠	٣٥,٢٩	٣,٢٧	٩٩٪
	الرسم	١٠٠٦	٣٨٠	٨١٣	١٢٩٩	٧٣,٣	٣١,٤٧		ثقة
مجموع الوصف		٢٠٢٢	٨٥٣	١٠٥٦	٣٩٣١	٤٠,٩	٣٣,٩٧	٥,٦٨	٩٩٪
مجموع الرسم		٢٩٠٣	١٠٩٥	٢٢٦٥	٦٢٦٣	٦٨,٨	٣٢,٦٩		ثقة

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٣ يمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويتمثل في كون القيم التائية (ت) التي حصلنا عليها تُعبّر بكل وضوح عن أن هناك فرقاً دالاً وجوهرياً بين تعداد أطفال هذه المرحلة لمكوّنات جسم المرأة ورسمهم لها، مما يؤكد على أن تجسيدهم للبنية الجسمية لصورة المرأة أكثر غنى وأوفر تنوعاً من وصفهم لها. ولا شك أن هذا الفرق يحتاج إلى تفسير عميق للكشف عن أسبابه المعرفية والعاطفية والاجتماعية. وهو تفسير لن نقدمه هنا بل في نهاية الكتاب.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بالمسار التكويني الذي يمكن للقارىء إدراك معالمه من خلال مقارنته بين المتوسطات التي حصل عليها الوصف اللفظي وتلك التي حصل عليها الرسم لدى مختلف الأعمار التي تشملها هذه المرحلة. حيث نلاحظ ـ من خلال قراءتنا لنتائج الوصف ـ أن تلك المتوسطات قد انتقلت من ٣٥,٤ إلى ٤٢,٤٣ لتصل إلى حدود ٤٥. أما بالنسبة للرسم، فإن متوسطاته قد تراوحت بين ٦٥,٤ و٧٣,٣ مروراً بـ٦٧,٧. فمن خلال تمعّننا في هذه المتوسطات، يمكننا تسجيل الملاحظتين التاليتين:

١ ـ تنحصر أولاهما في الفرق الواضح بين متوسطات الوصف اللفظي ومتوسطات الرسم.

٢ ـ أما ثانيتهما فتتمثل في خضوع تلك المتوسطات للقاعدة التكوينية التالية: كلما انتقل الأطفال من سن إلى أخرى، زاد وصفهم لأجزاء جسم المرأة ورسمهم لها. وتبعاً لهذه القاعدة، يمكننا القول بأن النتائج التي تضمّنها الجدول رقم ٥٣ تعبّر عن مسار تكويني واضح.

ب ـ مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم تبعاً لتراتبية أجزاء جسم المرأة:

لكي نتمكّن من عقد مقارنة بين نتائج الوصف ونتائج الرسم على مستوى التدرّج التراتبي الذي خضعت له مكوّنات جسم المرأة داخل كل واحد منهما، سننطلق من المعطيات الكمية التي يتضمنها الجدول رقم ٥٤ الذي تجدونه على الصفحة التالية.

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٤، يُمكننا تسجيل الاستنتاجات الثلاثة التالية:

ـ الاستنتاج الأول: وينحصر في تماثل الأسس المنطقية التي خضعت لها الوسيلتان التعبيريتان اللتان اعتمدنا عليهما للكشف عن صورة المرأة عند الأطفال. ونركّز هنا على الأسس المنطقية لكونها تمثّل الخلفية التي تحكمت في وصف أطفال هذه المرحلة وفي رسمهم لجسم المرأة. ولا نخفي في هذا المجال بأن قراءتنا للرتب التي احتلتها الأجزاء المكوّنة لذلك الجسم في الوصف اللفظي والرسم قد أدّت بنا إلى الاقتناع بأن الخلفية المنطقية التي تحكّمت في الوصف تتطابق وتلك التي تحكّمت في الرسم. حيث إنه من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٤، نستنتج بن معظم أطفال هذه المرحلة قد استحضروا صورة المرأة وبدأوا بوصف ورسم رأسها بما فيه الوجه، ثم أطرافها ومكوّنات وجهها قبل ذكر أو تجسيد مكوّنات جذعها. لذلك، فإنهم شرعوا بتحديد بنية الوجه ثم انتقلوا إلى تحديد بنية الأطراف ـ باعتبارها تحافظ على استقامة الجسم وتوازنه ـ قبل أن يحدّدوا بنية الجذع.

ـ الاستنتاج الثاني: من خلال تأملنا في مضامين الجدول رقم ٥٤، يُمكننا أن نذهب إلى القول بأن صورة المرأة قد اكتملت لدى أطفال هذه المرحلة. ونعتقد بأن حصول بعض الأجزاء على نتائج ضعيفة لا يرجع إلى عدم قدرتهم على استحضارها بقدر ما يرجع إلى الصعوبات التي واجهت الأطفال في التعبير عن تلك الأجزاء قولاً ورسماً. ويُمكن أن يتأكد القارىء من صحة اعتقادنا هذا حينما يقرأ بأن ١٤٦ طفلاً قد تمكّنوا من ذكر «العضو التناسلي»

مقارنة نتائج الوصف اللفظي بنتائج الرسم تبعا للرتبة التي احتلها كل جزء من أجزاء جسم المرأة

الرتب	أجزاء الجسم / وسيلة التعبير	الوصف اللفظي	أجزاء الجسم / وسيلة التعبير	الرسم	المجموع العام
١	رأس	٢٩١	رأس	٣٠٠	
٢	رجل	٢٩١	وجه	٣٠٠	
٣	يد	٢٩١	رجل	٣٠٠	
٤	فم	٢٧٧	جبهة	٢٩٤	
٥	عين	٢٧٢	عين	٢٨٧	
٦	أنف	٢٦٨	فم	٢٨٧	
٧	أذن	٢٦٢	صدر	٢٨٦	
٨	بطن	٢٥١	بطن	٢٨٦	
٩	شعر	٢٣٧	شعر	٢٨٥	
١٠	صدر	١٦٧	أنف	٢٨٣	
١١	أعضاء تناسلية	١٤٦	ذقن	٢٧٦	
١٢	أصابع	١٢٦	يد	٢٦٨	
١٣	شفة	١٢٣	كتف	٢٦٤	
١٤	عنق	١١٢	ذراع	٢٥٩	
١٥	ثدي	١١١	قدم	٢٥٨	
١٦	قدم	٨٢	عنق	٢٤٢	
١٧	وجه	٧١	أبنان	٢٣٨	
١٨	حاجب	٦٣	أذن	٢٣٧	
١٩	ساق	٥٧	أصابع	٢٣٠	
٢٠	أشفار	٥٦	كف	٢١٥	
٢١	ركبة	٥١	حاجب	٢١٤	
٢٢	كتف	٤٦	ساق	١٧٥	
٢٣	ذراع	٤١	ثدي	١٠٦	
٢٤	كف	٤١	أعضاء تناسلية	٩٠	
٢٥	ظهر	٣٩	سرة	٨٥	
٢٦	خد	٣٤	أشفار	٦٢	
٢٧	أظافر	٣١	ركبة	٥٠	
٢٨	سرة	٢٧	شفة	٤١	
٢٩	جبهة	١٧	خد	٣٢	
٣٠	ذقن	١٧	أظافر	٨	
٣١	أسنان	١٧	أسنان	٥	
٣٢	لسان	١٧	ظهر	٠	
المجموع		٣٩٣١		٦٢٦٣	١٠١٩٤
النسب		٣٨ر٦٪		٦١ر٤٪	١٠٠٪

للمرأة، بينما لم يتمكن سوى ٩٠ منهم فقط من تجسيد ذلك العضو. والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لأجزاء أخرى كـ«الشفتين» و«الظهر»... وغيرهما. وبالمثل، فإن أطفال هذه المرحلة قد توفّقوا في رسم أعضاء معيّنة أكثر من توفّقهم في وصفها لفظياً. ويُمكن للقارىء أن يتحقق من ذلك من خلال مقارنته بين النتائج التي حصل عليها كل من «القدم» و«الذراع» و«الأصابع» و«العنق» و«الساق» و«الكتف»... في كلٍ من الوصف اللفظي والرسم. ولا شك أن الفروق الكميّة التي عبّرت عنها النتائج التي قدمناها في الجدول رقم ٥٤ تحتاج إلى تفسير دقيق للكشف عن الميكانيزمات الذهنية التي جعلت رسم الطفل أغنى من وصفه. وتلك مهمة سنقوم بها في نهاية هذه الدراسة.

ـ الاستنتاج الثالث: ويرتبط بالسابق، بحيث إنه من خلال مقارنتنا بين نسبة الوصف (٣٨,٥٦٪) ونسبة الرسم (٦١,٤٤٪)، نلاحظ الفرق الكبير بين قدرة الطفل على تجسيد المكوّنات الجسمية لصورة المرأة وقدرته على وصفها وتعدادها.. ذلك الفرق الذي يفرض علينا طرح السؤال التالي: ما هي الأسباب السيكولوجية والاجتماعية الكامنة وراء قدرة الطفل على الرسم أكثر من قدرته على الوصف اللفظي؟ وهو سؤال مشروع سنؤجل الإجابة عليه حتى انتهائنا من عرض النتائج المرتبطة بهذه المرحلة. ولا شك أن عرضنا لتلك النتائج يستلزم منا تقديم نماذج حقيقية من رسوم الأطفال، هذه الأخيرة التي تعكس مدى قدرتهم على تجسيد جسم المرأة بشكل ينمّ عن اكتمال البنية العامة لصورة المرأة عندهم.

٤ ـ أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال الرسم

بعد أن طلبنا من أطفال هذه المرحلة رسم صورة المرأة باعتمادهم على ورقة وقلم، حصلنا على مادة غزيرة قُمنا بتصنيفها بهدف تحديد أهم أنواع صور المرأة التي جسّدتها رسومهم. وبالفعل، فإننا قد تمكّنا من حصر تلك الأنواع في ستة. ولكي يأخذ المهتمّ فكرة موجزة عن تراتبية تلك الأنواع وعن مكانتها وعن مدى بروزها في رسوم الأطفال، قمنا بتحديد وضبط عدد ظهور كل نوع منها لدى كل عمر من الأعمار التي تشملها هذه المرحلة، فحصلنا على نتائج لخّصناها في الجدول رقم ٥٥ على الصفحة التالية.

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٥، يمكننا تسجيل الأمرين التاليين:

١ ـ ينحصر أولهما في النسب المرتفعة التي حصلت عليها الصور الكاملة (٢٦٪)، وتلك التي جسدت الأعضاء التناسلية (٣٠٪)، وتلك التي تمكّنت من إبراز جمالية المرأة وأنوثتها (٢٨,٧٪). وهي نسب تدلّ على أن معظم أطفال هذه المرحلة (٨٣,٦٧٪)[1] قد توفّقوا في تجسيد أهم المكوّنات الجسمية التي تتشكّل منها صورة المرأة كـ«الرأس» و«الوجه»

---

(١) لقد حصلنا على نسبة ٨٣,٦٧٪ من جمعنا النتائج التي حصلت عليها كل من الصور الكاملة، وذات البُعد الجمالي، و٢٦٪ من الصور المجسِّدة للأعضاء الجنسية، و٣٪ من الصور ذات الأطراف المشوهة.

الجدول رقم ٥٥

أنواع البنيات الجسمية لصورة المرأة من خلال رسوم أطفال المرحلة الثالثة

أنواع الصور / الأعمار	الصور الناقصة	الصور بدون جذع	الصور ذات الأطراف المشوهة	الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية	الصور الكاملة	الصور ذات البُعد الجمالي	المجموع
١٢	١١	٦	٦	٢٥	٢٦	٢٦	١٠٠
١٣	٧	٣	٤	٣١	٢٥	٣٠	١٠٠
١٤	٤	٢	٣	٣٤	٢٧	٣٠	١٠٠
المجموع	٢٢	١١	١٣	٩٠	٧٨	٨٦	٣٠٠
النسب	٪٧,٣	٪٣,٧	٪٤,٣	٪٣٠,٠	٪٢٦,٠	٪٢٨,٧	٪١٠٠

و«الأنف» و«الفم» و«الرجل»... بينما فشل بعضهم (١٦,٣٣٪)[1] في تجسيد كل تلك المكوّنات، مما يدلّ على أن صورة المرأة قد اكتملت لدى أغلبية أطفال هذه المرحلة. وإننا نعتقد بأن إخفاق طفل هذه المرحلة في تجسيد عضوٍ ما لا يرجع إلى عدم قدرته على استحضاره، بل إلى الصعوبة التي اعترضته في تجسيد بعض الأعضاء كـ«الكف» و«الأصابع» و«الكتف» و«الساق» و«الركبة» و«الخد»، باعتبارها أعضاء يتطلب رسمها تقنيةً عالية ودقيقة قد يفشل حتى الراشد في تجسيدها بشكل واضح وكامل.

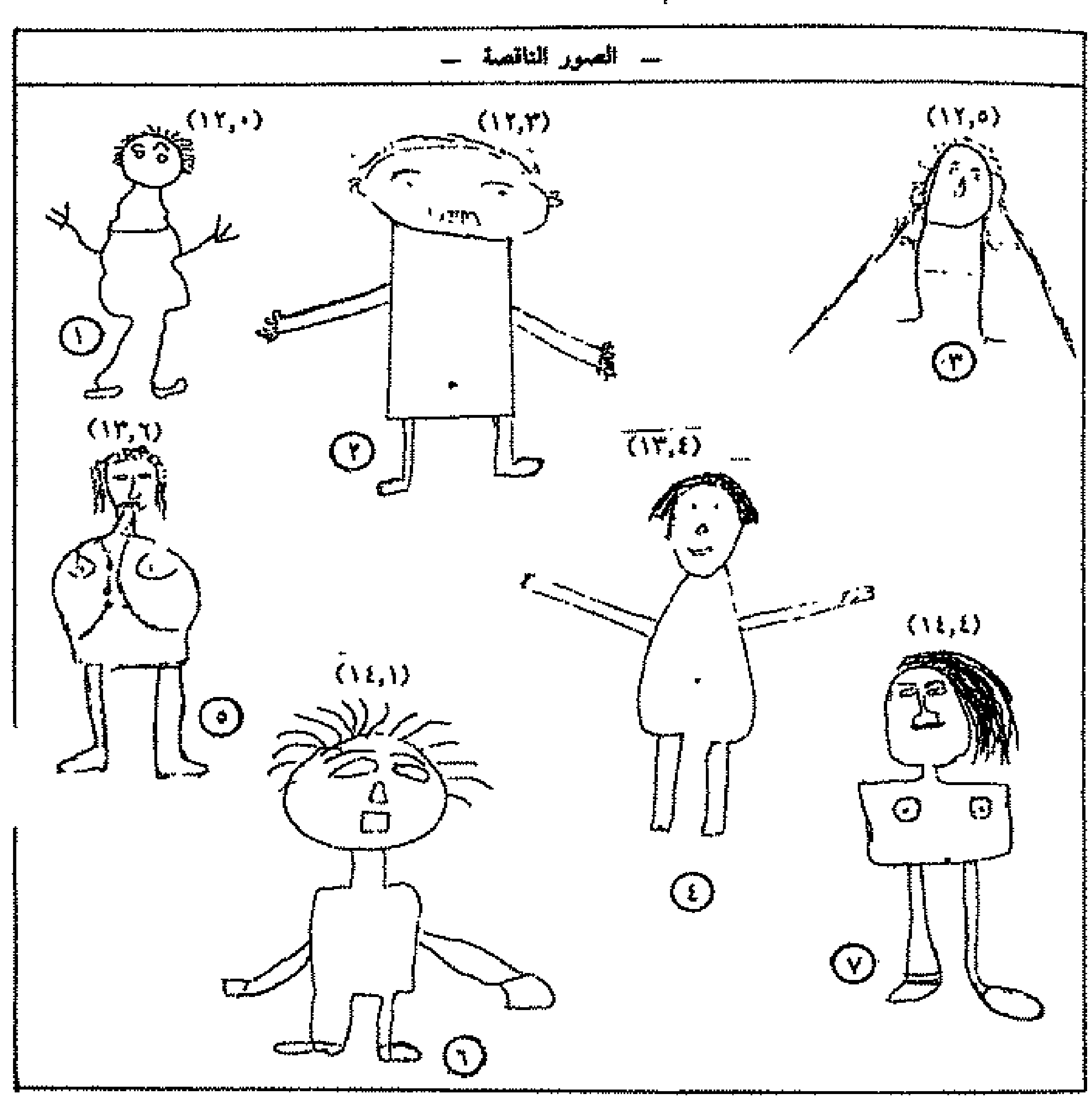
٢ ـ يتمثّل الأمر الثاني في القاعدة التالية: كلما انتقلنا من عمر زمني إلى آخر، زاد عدد الصور الكاملة وتقلّص عدد الصور الناقصة. إذ يكفينا أن نلاحظ أن الصور الناقصة قد انخفضت من ١١ إلى ٧ إلى ٤، وأن الصور بدون جذع قد تقلص عددها من ٦ إلى ٣ إلى ٢، وأن الصور ذات الأطراف المشوهة قد انخفض عددها من ٦ إلى ٤ إلى ٣، وأن الصور المبهمة قد اختفت نهائياً من رسوم أطفال هذه المرحلة... لنستنتج بأن صورة المرأة قد خضعت لمسار تكويني قادها من النقص إلى الاكتمال، ومن الإبهام إلى الوضوح. وسنقدم فيما يلي للقارىء نماذج محدودة من كل نوع من الأنواع التي أوردناها في الجدول رقم ٥٥.

---

(١) لقد حصلنا على نسبة الصور غير الكاملة من جمعنا نسب الصور الناقصة، والصور بدون جذع، و٣٣,١٪ من الصور ذات الأطراف المشوهة، و٤٪ من الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية.

١ ـ الصور الناقصة:

وهي التي لم يتمكّن طفل هذه المرحلة من تجسيد أحد مكوناتها أو بنية من بنياتها الجزئية. وبالرغم من قلّة هذا النوع من الصور، فإننا سنقدم للقارىء أدناه نماذج سبعة تمثّل عينة تعكس تقريباً ما تضمنته الرسوم الناقصة.



إن الرسوم السبعة على الصفحة السابقة لا تمثّل ـ كما أشرنا سالفاً ـ سوى نماذج لما يناهز ٤٩ رسماً ناقصاً[1]. . تلك الرسوم التي لم يتمكن بعضها (الرسمان ٥ و٧) من تجسيد بنية جزئية كـ«اليد»، ولم يتمكن بعضها الآخر من تجسيد مجموعة من الأعضاء كـ«الفم» (الرسمان ١ و٣)، أو «الأنف» (الرسمان ١ و٢)، أو «الأذنين» (الرسوم ١ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٦ـ ٧)، أو «الحاجبين» (الرسمان ٤ و٥)، أو «العنق» (الرسوم ٢ ـ ٣ ـ ٤)، أو «الأصابع» (الرسوم ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧)، أو «القدمين» (لرسم ٤). . . وغيرها من الأعضاء كـ«الكف» و«الكتف». . . ولقد حاولنا أن نصنّف تلك الرسوم تبعاً لعدد الأعضاء التي لم يتمكن أطفال هذه المرحلة من تجسيدها في الجدول التالي:

الجدول رقم ٥٦

تصنيف الصور الناقصة تبعاً لعدد الأعضاء التي لم يتمكن أطفال المرحلة الثالثة من تجسيدها

الأعضاء غير المجسّدة	بنية جزئية «يد»	أربعة أعضاء	ثلاثة أعضاء	عضوان	عضو واحد	المجموع
المجموع	١٠	٥	٧	١١	١٦	٤٩
النسب المئوية	٪٢٠,٤	٪١٠,٢	٪١٤,٣	٪٢٢,٤	٪٣٢,٧	٪١٠٠

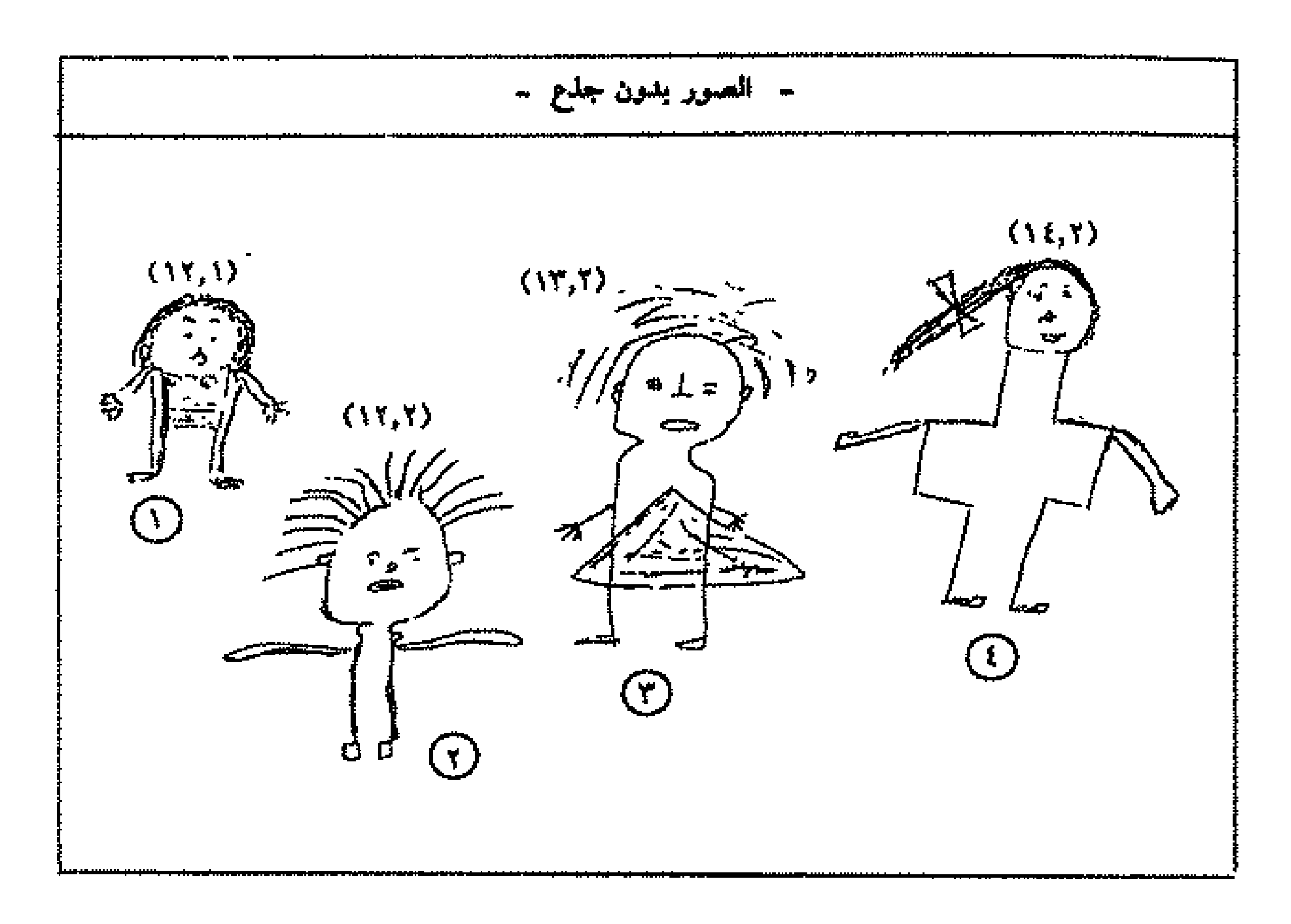
يتبيّن من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٥٦ من أرقام ونسب مئوية أن ما يفوق نصف الصور الناقصة (٥٥,٢٪) لم ينقصها سوى عضو واحد أو عضوين، مما يدلّ على أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من تجسيد معظم الأجزاء المكوّنة لجسم المرأة. وبالرغم من أننا على علم ببعض الأسباب السيكولوجية والاجتماعية التي كانت وراء ظهور مثل هذا النوع من الصور، فإننا نفضّل ألا نفصّل القول فيها حتى كتابنا المقبل الذي سنخصّصه لتبيان أثر العوامل

(١) قد يجد القارىء اختلافاً بين مجموع الصور الناقصة (٢٢) التي تضمنها الجدول رقم ٥٥ والمجموع (٤٩) الذي تضمنه الجدول رقم ٥٦ أعلاه. ونعتقد أنه بمجرد اطلاع القارىء على الهامشين اللذين ذيلنا بهما ص ١٤٧،وص ١٤٨ سيدرك بأن العدد الحقيقي للصور الناقصة هو ٤٩ بدل ٢٢. ويرجع سبب الفرق بين المجموعين إلى الطريقة التي اتبعناها في تصنيف رسم أطفال هذه المرحلة في مجموعات متجانسة، بحيث إننا كنا نضع الرسوم التي جسّدت الأعضاء الجنسية للمرأة ضمن مجموعتها الخاصة بالرغم من أن بعضها كان ناقصاً. والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة للصور ذات الأطراف المشوهة. وللمزيد من التوضيح نقول: إن ١٢ رسماً من مجموع ٩٠ رسماً التي تضمنتها المجموعة التي جسدت الأعضاء الجنسية للمرأة ناقصة، وأن ٤ رسوم من مجموع ١٣ التي جسدت الأطراف بشكل مشوه ناقصة أيضاً. ولذلك، فإذا قمنا بعملية جمع للرسوم الناقصة سنجدها مساوية لـ: ٢٢ + ١١ + ١٢ + ٤ = ٤٩.

الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في تكوّن صورة المرأة عند الطفل. ولذلك، فإننا نؤثر أن ننتقل الآن إلى تقديم بعض النماذج من النوع الثاني من الصور التي جسّدها أطفال هذه المرحلة، ونعني بها الصور بدون جذع.

٢ ـ الصور بدون جذع:

وهي الصور التي لم يظهر فيها الجذع قط، ولكي يتعرّف القارىء عليها نقدّم له النماذج أدناه.



- الصور بدون جذع -

من خلال تأملنا هذه الرسوم التي لم تجسّد الجذع، يُمكننا استنتاج الأمرين التاليين:

١ـ ينحصر أولاهما في أن الرسوم التي لم تجسّد الجذع قد حاولت تعويض ذلك النقص باعتمادها إما على تجسيد اللباس ـ باعتباره الغطاء الذي يخفي الجذع ـ (الرسم رقم ٣)، أو على خطوط مستقيمة تمتد من الركبة تقريباً إلى العنق (الرسم رقم ١). ونعتقد أن اللباس والخطوط يعبّران عن استحضار الطفل للجذع أو لبعض أجزائه (كالثدي بالنسبة للرسم رقم ١)، إلا أنه استحضار لم يُجسّد بطريقة تمكّن المشاهد من إدراك أن الطفل قد توفّق في

ترجمة ما استحضره في رسم دقيق وواضح يضم الجذع وأجزاءه. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أنه حتى الرسوم التي تنتمي إلى ما اصطلحنا على تسميته بـ«الصور بدون جذع» تقبل التصنيف والترتيب، إذ إنه ليس من المعقول أن نضع الرسم رقم ٢ والرسم رقم ١ في رتبة واحدة بالرغم من انتمائهما إلى مجموعة واحدة. ذلك أننا نعتبر الرسم الذي جسّد الجذع، باعتماده على الخطوط وإبراز الثديين، أكثر تقدماً من الناحية التكوينية من الرسم الذي لم يجسِّد تلك الأعضاء. وإذا ما حاولنا ترتيب الرسوم الأربعة هذه، فإننا سنمنح الرتبة الأولى للرسم رقم ٤ والرتبتين الثانية والثالثة للرسمين رقم ١ ورقم ٣. أما الرسم رقم ٢، فإننا سنمنحه الرتبة الرابعة. ولقد اعتبرنا الرسم رقم ٤ أكثر تطوّراً من الرسوم الأخرى لأن تجسيده للجذع لا ينقصه سوى الجمع بين الرجلين بخط مستقيم. ونعتقد إن إخفاق الطفل في رسم ذلك الخط لا يرجع إلى عدم قدرته على تجسيد الخط المستقيم، بل إلى عدم قدرته على تجسيد العضو التناسلي للمرأة، باعتبار أن المنطقة الموجودة بين الرجلين تمثّل المكان الواجب توظيفه لرسم ذلك العضو.

٢ ـ أما ثانيهما، فيتمثّل في أننا لم نحصل ولو على رسم واحد يجسد اليدين انطلاقاً من الرأس، فأغلبية الأطفال، وعددهم ٨، قد تمكّنوا من تجسيد اليدين انطلاقاً من الكتفين، مما يدلّ على أنهم قد تمكّنوا من استحضار صورة المرأة ومن تجسيد بنيتها العامة بشكل متناسق.

٣ ـ الصور ذات الأطراف المشوّهة:

وإلى جانب النوعين الآنفي الذكر، هناك صورٌ أخرى اصطلحنا على تسميتها بـ«الصور ذات الأطراف المشوّهة». وهي صور ـ وإنْ كان عددها لا يتجاوز ١٣ ـ تدلّ على أن بعض الأطفال لم يتمكّنوا، أثناء تجسيدهم للأطراف، من التمييز بين «الكف» و«الأصابع»، وبين «القدم» و«الأبنان». ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن هذا النوع من الصور نقدم له النماذج الخمسة التي ترونها على الصفحة التالية.

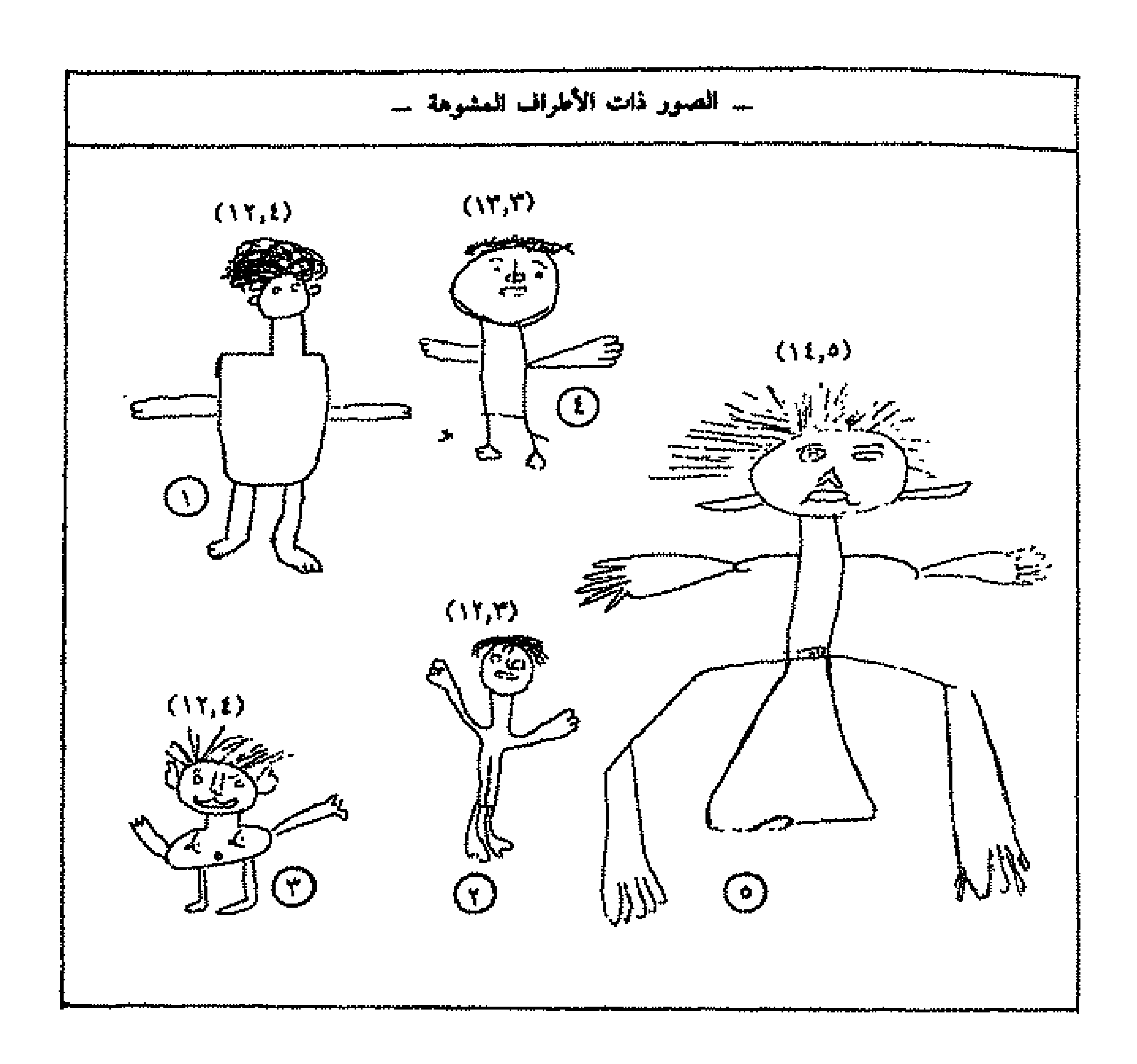
من خلال تأملنا في هذه النماذج، يُمكننا أن ندرك التشويهات التي لحقت بأطراف صورة المرأة. وهي تشويهات يُمكننا حصرها في أنواع ثلاثة:

* يتمثل أولها في عدم انسجام البنية العامة لجسم المرأة مع حجم الأطراف. فيكفي أن يتمعّن القارىء في الرسوم ذات الأرقام ٢ ـ ٣ ـ ٥ ليدرك التشويه الذي لحق بتلك الأطراف.

* وينحصر ثانيها في عدم قدرة مجموعة من رسوم أطفال هذه المرحلة على التمييز بين «الكف» و«الأصابع»، بحيث إنهم جسّدوا اليد على شكل أجنحة. وحسب القارىء أن يشاهد الرسوم ذات الأرقام ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ليدرك ملامح ذلك التجسيد ومميّزاته.

* أما النوع الثالث، فإنه يتمثّل في جمع بعض الأطفال بين «القدم» و«الأصابع» بشكل مشوّه، كما يتضح ذلك في الرسوم ذات الأرقام ٢ ـ ٤ ـ ٥.

وترتيباً على ذلك، يُمكننا القول بأن بعض أطفال هذه المرحلة لم يتمكنوا من تجسيد ما استحضروه بشكل دقيق وواضح، إلاّ أن هذا الحكم يحتاج إلى المزيد من التمحيص، بحيث

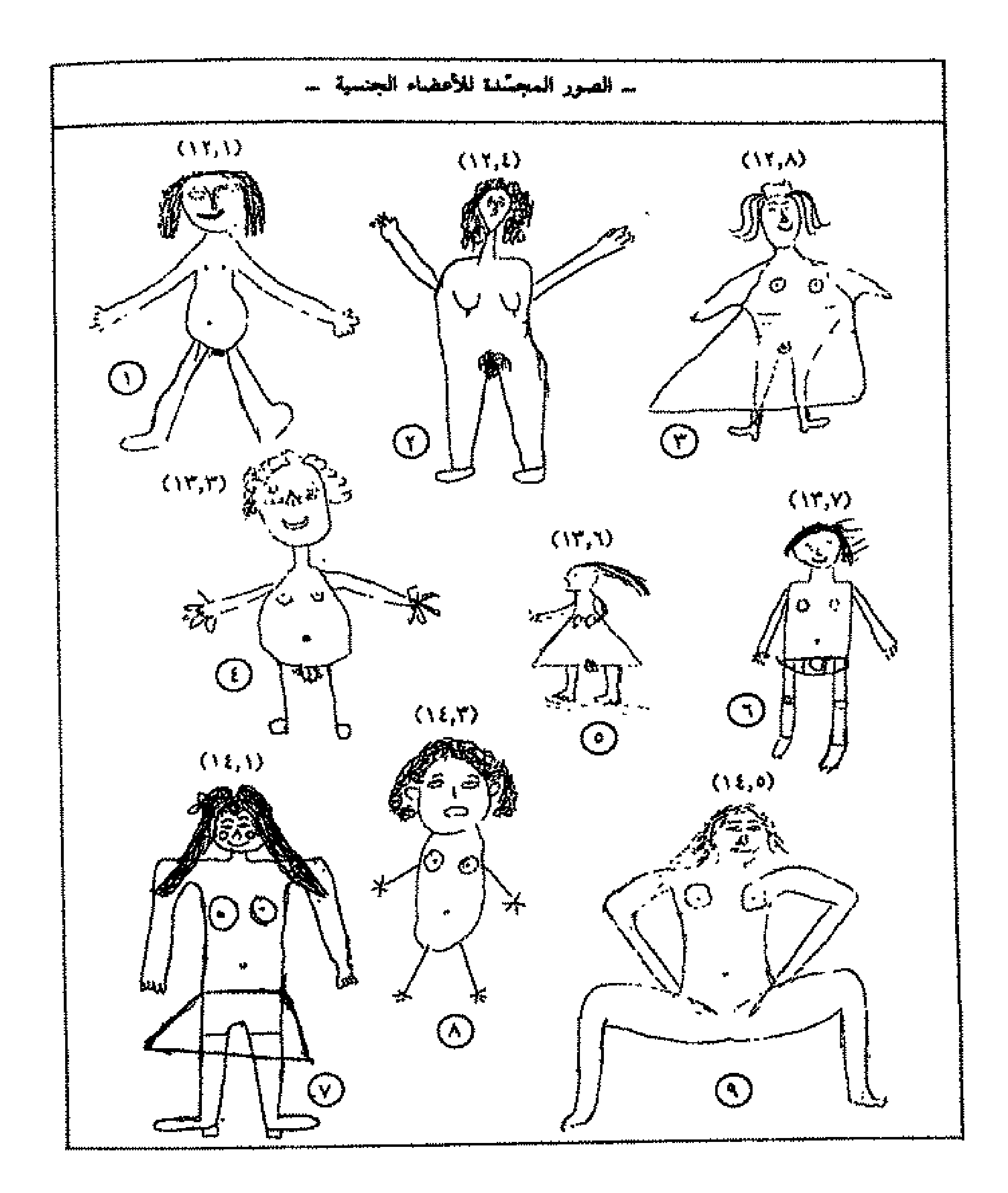


ـ الصور ذات الأطراف المشوهة ـ

إن النتائج التي حصلنا عليها تجزم بأن عدد الصور ذات الأطراف المشوهة تتناقص بتقدم الأطفال من سنة إلى أخرى. فيكفي أن نشير في هذا المضمار إلى أن ٣ أطفال فقط من ذوي سنّ الرابعة عشرة هم الذين رسموا صوراً ذات أطراف مشوهة ليتأكد القارىء من أن هذا النوع من الصور يتجه نحو الزوال والاختفاء.

٤ ـ الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية للمرأة:

قبل أن نسجّل بعض الاستنتاجات المرتبطة بالرسوم التي جسّدت الأعضاء الجنسية للمرأة، نقدم فيما يلي نماذج عنها:


ـ الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية ـ
(١٢,١)
(١٢,٤)
(١٢,٨)
١
٢
٣
(١٣,٣)
(١٣,٦)
(١٣,٧)
٤
٥
٦
(١٤,١)
(١٤,٣)
(١٤,٥)
٧
٨
٩

ويمكن تصنيف هذه الرسوم تبعاً للخاصيتين التاليتين:

١ ـ تتمثل أولاهما في تصنيفنا لتلك الرسوم تبعاً لنوع الأعضاء التي جسّدتها، حيث إننا حصلنا على سبع مجموعات رتبناها، وفق تدرجها التكويني، في الجدول التالي:

الجدول رقم ٥٧

الأعضاء الجنسية حسب ظهورها في رسوم أطفال المرحلة الثالثة

نوع الأعضاء	السرة فقط	الثدي فقط	الثدي والسرة	العضو التناسلي	السرة والعضو التناسلي	الثدي والعضو التناسلي	السرة والثدي والعضو التناسلي	المجموع
المجموع	١٩	٢٦	٢٦	١٩	١٧	٣١	٢٣	١٦١
النسب	٪١١,٨	٪١٦,١	٪١٦,١	٪١١,٨	٪١٠,٦	٪١٩,٣	٪١٤,٣	٪١٠٠

يتضح مما تضمنه الجدول رقم ٥٧ أن أطفال هذه المرحلة قد جسّدوا الأعضاء الجنسية للمرأة برسمهم إما لعضو واحد أو لعضوين أو لثلاثة. ولقد رتبنا تلك الأعضاء حسب أهميتها، بحيث إننا نعتبر تجسيد الطفل لـ«الثدي» و«العضو التناسلي» مثلاً أرقى تطوّراً من تجسيده لـ«العضو التناسلي» فقط أو لـ«الثدي» و«السرة» أو لـ«الثدي» فقط. فتبعاً لذلك الترتيب، يمكننا أن نستنتج بأن ٩٣ طفلاً من مجموع ١٦١ قد تمكنوا من تجسيد عضوين، و٦٤ منهم قد توقفوا في تجسيد عضو واحد، بينما تمكّن ٢٣ منهم من تجسيد كل الأعضاء الجنسية للمرأة. وانطلاقاً من هذه الأرقام، يتبيّن لنا أن تلك الأعضاء لم تحظَ بمكانة خاصة لدى أطفال هذه المرحلة، مما قد يدفع بنا إلى الاعتقاد بأن أولئك الأطفال لم يتمكنوا بعد من إدراك الفروق الجسمية التي تميز المرأة عن الرجل. وهو اعتقاد يحتاج ـ فيما نظن ـ إلى المزيد من التوضيح للكشف عن أسبابه المعرفية والعاطفية والاجتماعية. وتلك مهمة سنتصدى لها في ختام الكتاب.

٢ ـ أما الخاصية الثانية، فتتمثّل في تصنيفنا لرسوم الأطفال تبعاً لطبيعة «العضو التناسلي» الذي جسدوه لإبراز أنوثة المرأة وخصوصيتها الجنسية؛ ذلك التصنيف الذي تمكّنا من خلاله التمييز بين المجموعات الثلاث التي يقدمها الجدول التالي:

الجدول رقم ٥٨

أشكال تجسيد العضو التناسلي للمرأة لدى أطفال المرحلة الثالثة

أشكال العضو التناسلي	شكل مبهم	شكل ذكوري	شكل أنثوي	المجموع
المجموع	١٨	١٦	٥٦	٩٠
النسب	٪٢٠,٠	٪١٧,٨	٪٦٢,٢	٪١٠٠

يتبين من خلال ما تضمّنه الجدول رقم ٥٨ أن أطفال هذه المرحلة قد جسّدوا العضو التناسلي للمرأة باعتمادهم على الأشكال الثلاثة التالية:

١ ـ **الشكل المبهم**: ونقصد به الشكل الذي لا يمكننا من خلال مشاهدته تحديد العضو التناسلي الذي جسّده الطفل، ويُعتبر الرسم رقم ٦ نموذجاً لذلك النوع من التجسيد.

٢ ـ **الشكل الذكوري**: ونعني به تجسيد بعض الأطفال للعضو التناسلي للمرأة من خلال تجسيدهم للعضو الذكوري. ويمكن للقارىء أن يدرك ذلك بوضوح من خلال تأمله الرسمين رقم ٤ ورقم ٥.

ـ **الشكل الأنثوي**: ونعني به الشكل الذي يُمكننا بمجرد رؤيته الاعتراف بأن الطفل قد توفّق في تجسيد العضو التناسلي للمرأة.

ومن خلال النتائج التي حصلت عليها الأشكال الثلاثة المشار إليها أعلاه، يمكننا استنتاج ما يلي:

ـ **الاستنتاج الأول**: إن الشكل الذي برز في معظم رسوم أطفال هذه المرحلة هو الشكل الأنثوي، حيث إنه حصل على نسبة تناهز ٦٢,٢٪، مما يدلّ على أن أغلبية الأطفال قد تمكّنوا من ترجمة ما استحضروه ذهنياً في رسوم واضحة ومعبّرة.

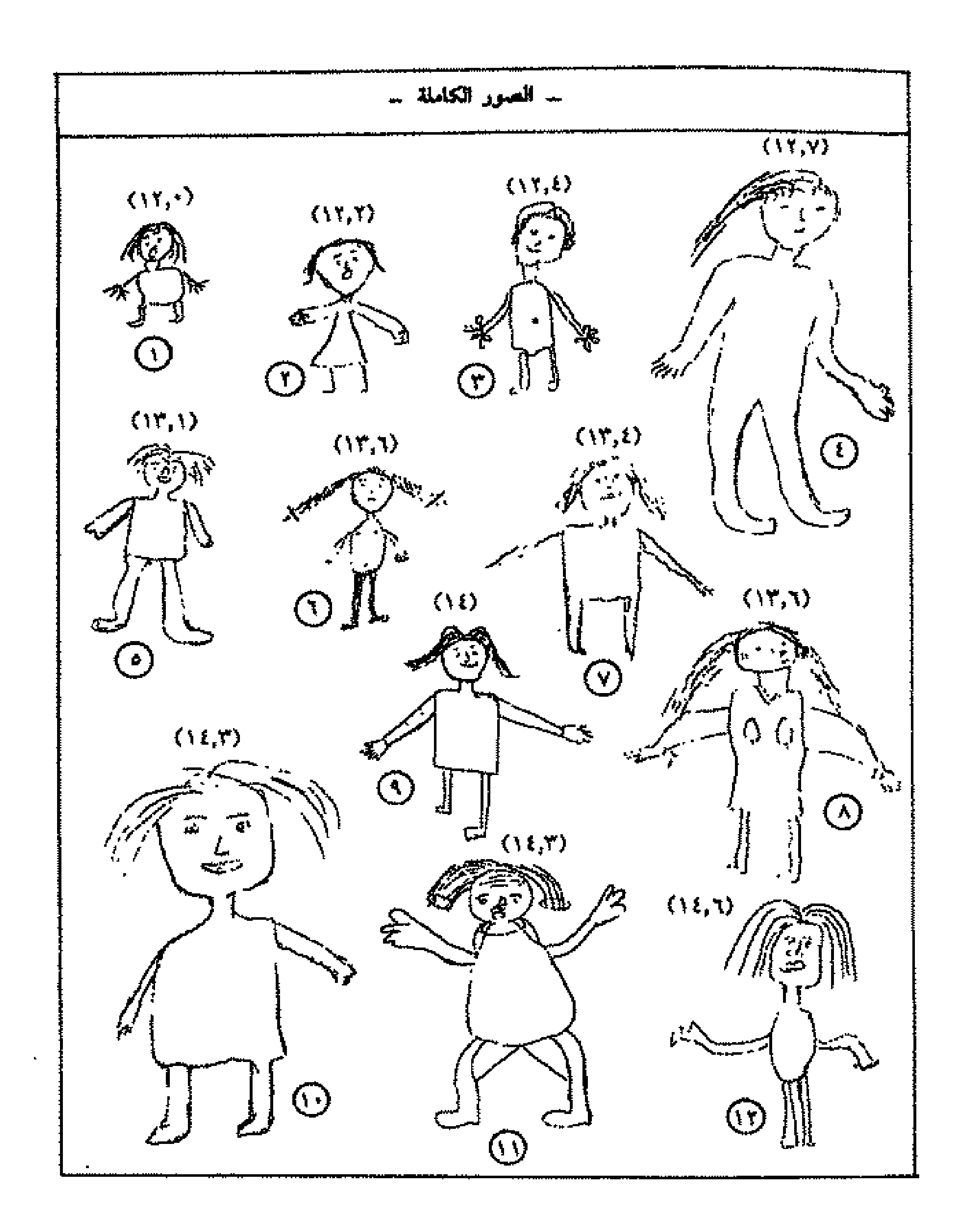
ـ **الاستنتاج الثاني**: من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٨، يُمكننا استنتاج أن الشكل المبهم أقل من الذكوري. فبالرغم من أن الفرق بينهما ضئيل جداً، فإننا نعتبره مهماً، لكون المرور من الشكل المبهم إلى الأنثوي يستلزم المرور بالشكل الذكوري، طالما أن إدراك الطفل للعضو التناسلي للجنس الآخر يتم عبر مقارنته لذلك العضو بعضوه هو، أي بالعضو الذكوري، تلك المقارنة التي تفضي به إلى التمييز بين الجنسين. وبالإضافة إلى ذلك، فطفلنا يتراوح تكوينياً بين مرحلتي البلوغ والمراهقة الأولى، أي أن تجاربه مع الجنس الآخر ما زالت محدودة. ولا شك أن قلّة الاطلاع والممارسة قد طرحت على الأطفال صعوبات كبيرة لتجسيد العضو التناسلي للمرأة. إذ إننا قد عثرنا على رسوم لم تتمكّن من تجسيد ذلك العضو بالرغم من جودتها وتناسق بنياتها الجزئية. فيكفي أن يتأمل القارىء الرسم رقم ٩ ليدرك عمق ودلالة ما نقول.

٥ ـ **الصور الكاملة**:

قبل أن نقدم أي استنتاج يتعلق بهذا النوع من الصور، نؤثر أن نبدأ بتقديم النماذج الإثني عشر منها التي ترونها على الصفحة التالية.

من خلال تمعننا في هذه النماذج عن الصور الكاملة، يمكننا تسجيل الملاحظتين التاليتين:

١ ـ الملاحظة الأولى هي أن ٢٦٪ من أطفال هذه المرحلة هم الذين تمكّنوا من تجسيد أهمّ المكوّنات الجسمية لصورة المرأة، وهي نسبة تمثّل ما يناهز ٧٨ طفلاً. ولا شك أن نسبة مهمة كهذه ـ وبخاصة إذا ما أضفنا إليها نسبة ٢٨,٦٪، أي ما يناهز ٨٦ طفلاً، ممن تمكّنوا


ـ الصور الكاملة ـ
(١٢,٠)
١
(١٢,٢)
٢
(١٢,٤)
٣
(١٢,٧)
٤
(١٣,١)
٥
(١٣,٦)
٦
(١٣,٤)
٧
(١٣,٦)
٨
(١٤)
٩
(١٤,٣)
١٠
(١٤,٣)
١١
(١٤,٦)
١٢

من إضفاء طابع الجمالية على مكونات جسم المرأة - تدلّ على أن أطفال هذه المرحلة قد نجحوا في استحضار أهمّ البنيات المكوِّنة لصورة المرأة وفي ترجمتها إلى رسوم كاملة. ونركّز هنا على عبارة «أهمّ البنيات» لكوننا لا نعتبر الرسم كاملاً إلا في الوقت الذي يجسّد تلك البنيات بالإضافة إلى الأجزاء التي تتكوّن منها. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أننا قد اعتبرنا بعض الرسوم كاملةً بالرغم من عدم تجسيدها، بشكل واضح، لبعض الأعضاء كـ«الأشفار» و«الخدين» و«الساقين» و«الركبتين»... إلخ، ذلك أن مفهوم الاكتمال في نظرنا يحمل دلالة نسبية ومحدودة.

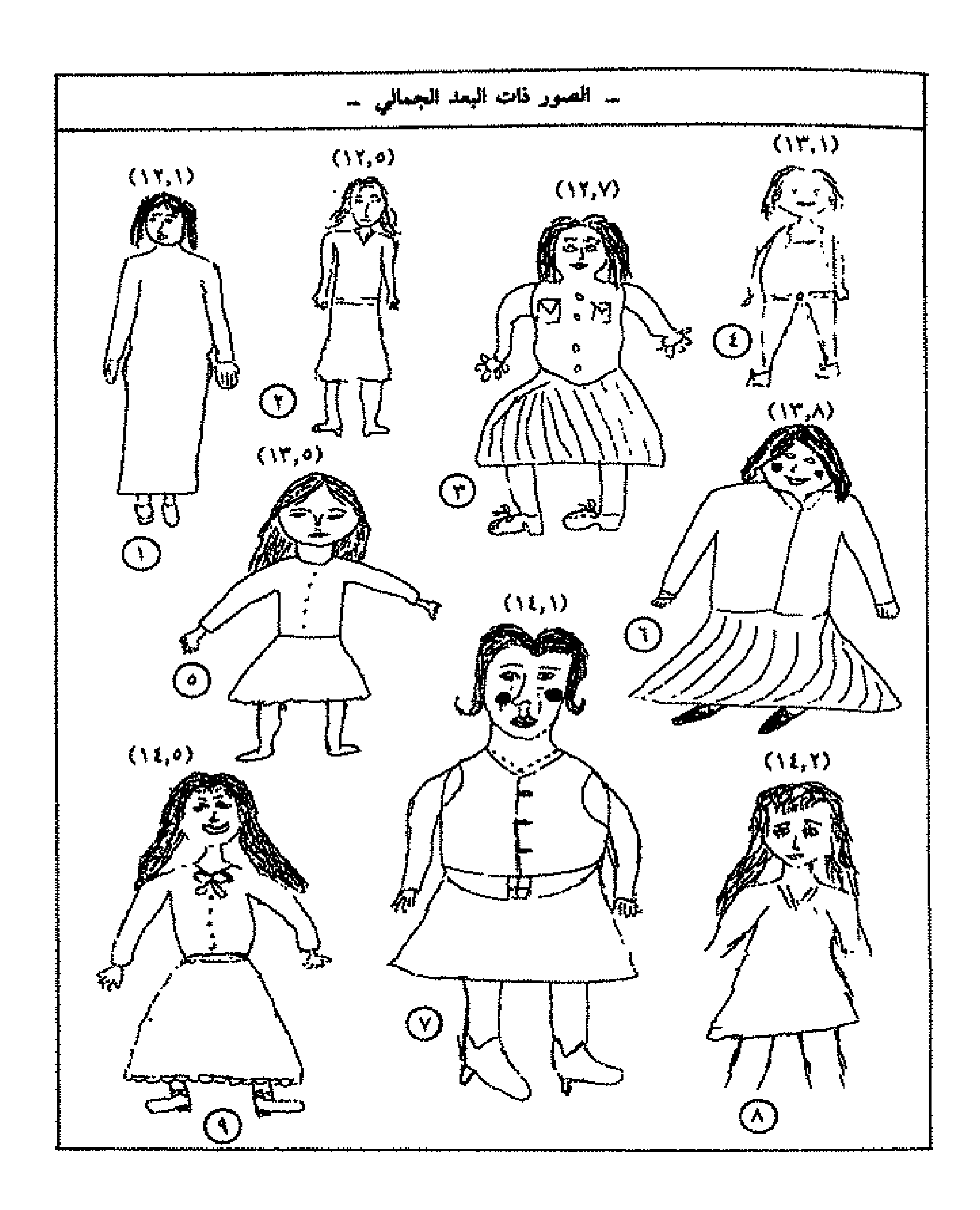
٢ - تنحصر الملاحظة الثانية في عدم التناسق الذي طبع معظم رسوم أطفال هذه المرحلة، حيث إنهم وجدوا صعوبة في خلق تلاؤم وانسجام بين مختلف الأعضاء المكوِّنة لجسم المرأة. فبعضهم ضخّم «الرأس» على حسابِ الأعضاءِ الأخرى (الرسمان رقم ٢ ورقم ١٠)، وبعضهم الآخر رسم «الرأس» مائلاً (الرسم رقم ٣)، وثمة فئة ثالثة منهم رسمت «اليدين» بشكل لا يتناسب والبنية العامة لصورة المرأة. فهناك من رسم يدين طويلتين (الرسمان رقم ٨ ورقم ١٢)، أو إحداهما طويلة والأخرى قصيرة (الرسوم ذات الأرقام ٤ - ١٠ - ١٢). كما أن هناك من بينهم من لم يخلق انسجاماً بين طول الرجلين (الرسمان رقم ٦ ورقم ٩). أما بالنسبة لـ«الشعر»، فإنه باستثناء الرسم رقم ١٠، فإن النماذج الأخرى كلها لم تجسّده بكيفية تنسجم والبنية الجسمية العامة لصورة المرأة. ولا نخفي في هذا المجال أننا نحبذ الوقوف عند هذا الحد من التحليل لأن ذكر كل الجزئيات قد يتطلّب منا الدخول في تفاصيل لن ننتهي من تعدادها.

٦ - الصور ذات البُعد الجمالي:

هذه الصور هي كالصور الكاملة، إنما الفرق الوحيد بينهما يكمن في الدقة والانسجام والتناسق التي تطبع الصور ذات البُعد الجمالي، بحيث إنه بمجرد رؤيتنا لها ندرك بأن الطفل قد رسم امرأة أو فتاة. ويُمكن للقارىء أن يطّلع على هذا النوع من الصور من خلال تأمله النماذج المعروضة على الصفحة التالية.

من خلال تصفّحنا لنماذج الصور ذات البُعد الجمالي، يمكننا أن نلاحظ التناسق الموجود بين مختلف المكوِّنات التي تشكّل البنية الجسمية لصورة المرأة. فباستثناء بعض الهفوات الطفيفة، فإن كل الرسوم قد تمكنت من إبراز أنوثة المرأة وجماليتها، بحيث إن معظم الأطفال قد نجحوا في تجسيد «الشعر» و«العينين» و«الفم» و«الأنف» و«الكتفين» وحتى «الخدين» و«الأشفار»... إلخ، مما ينمّ عن أنهم قد استحضروا صورة المرأة وجسّدوا مكوِّناتها الجسمية بشكل مقبول.

وقد يُلاحظ القارىء أن الرسوم التي قدمناها كنماذج للصور ذات البُعد الجمالي تتضمّن صور نساء يرتدين ملابس مختلفة، بينما كنا خلال تقديمنا للنماذج التي تنتمي إلى أنواع أخرى من الصور لا نميّز بين الرسوم التي جسّدت الملابس وتلك التي لم تجسّدها. ونعتقد أنها ملاحظة وجيهة، باعتبار أن الرسوم التي تدخل ضمن هذا النوع من الصور تجسّد نساء يرتدين ملابسهن، تلك الملابس التي تضفي عليهن صبغة الجمال والأنوثة. ولا نخفي هنا بأن رذنا


ـ الصور ذات البعد الجمالي ـ
(١٢,١)
١
(١٢,٥)
٢
(١٢,٧)
٣
(١٣,١)
٤
(١٣,٥)
٥
(١٣,٨)
٦
(١٤,١)
٧
(١٤,٢)
٨
(١٤,٥)
٩

على ملاحظة القارىء سيكون غير مقنع، باعتبار أنه ردّ لا يستند على أسس علمية دقيقة. ولذلك، فإن القارىء نفسه لا يزال ينتظر منا المزيد من التفسير لمعظم المعطيات الإحصائية والاستنتاجات التي أوردناها في ثنايا فصول هذا الكتاب. ولن يطول انتظاره كثيراً، لأن انتهاءنا من هذا الفصل سيتمّ بمجرد تقديمنا لأهمّ الاستنتاجات التي استخلصناها من قراءتنا للنتائج المرتبة بطبيعة المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة.

٥ ـ المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال المرحلة الثالثة

على غرار ما اتبعناه في الفصلين السابقين، فإننا نؤثر ـ بعد أن تعرّفنا على المكوّنات الجسمية لصورة المرأة من خلال تحليلنا لمادتَيْ الوصف اللفظي والرسم، وبعد أن قارنا بين نتائجهما، وبعد أن تعرّفنا عن مختلف البنيات الجسمية لصورة المرأة ـ أن نخصّص نقطة مستقلة بذاتها لعرض النتائج المرتبطة بالمؤشّرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة. وبما أننا قد أبرزنا في الفصلين السابقين الأسباب التي دفعتنا إلى استقراء خيال الطفل من أجل الكشف عن صورة المرأة التي لم يتمكن من وصفها أو رسمها، فإننا نفضّل أن ننتقل مباشرةً إلى تقديم النتائج التي حصلنا عليها باعتمادنا على الجدول العام رقم ٥٩، الذي تجدونه على الصفحة التالية.

يتبيّن من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٥٩ أننا قد طبّقنا الطريقة نفسها التي اتبعناها في الفصل السابق. ذلك أنه بعد أن حدّدنا كمّ المؤشّرات الجسمية المختلفة، خصّصنا أحد العمودين الأخيرين من الجدول لضبط المجموع الذي حصل عليه كل مؤشّر، وأفردنا الآخر لتحديد المؤشّرات التي احتلت الرتب الثلاث الأولى. ولقد اعتمدنا في ترتيب تلك المؤشّرات على المجاميع العامة، لأننا لم نجد تجانساً تاماً بين نوع وطبيعة المواصفات الجسمية التي فضّل أطفال كل عمر زمني تواجدها في المرأة.

فمن خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٥٩، نلاحظ أن هناك فروقاً في الاختيار بين مختلف أعمار هذه المرحلة. ففي الوقت الذي فضّل فيه أطفال سنّ الثانية عشرة وسنّ الثالثة عشرة الوجه المستدير، فضّل فيه أطفال سنّ الرابعة عشرة الوجه الطويل. وبالمثل، فإذا كان أطفال سنّ الثانية عشرة قد آثروا المرأة ذات اللون الأبيض، فإن أطفال سنّ الثالثة عشرة وسن الرابعة عشرة قد فضّلوا المرأة ذات اللون الأسمر. ونظراً إلى هذه الاختلافات رأينا أن نعتمد على المجموع العام الذي حصلت عليه المؤشّرات ذات الرتب الثلاث الأولى بدل أن نسقط في عرض صورٍ لا حصر لها.

الجدول رقم ٩٥

النتائج المرتبطة بالمؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثالثة

عناصر الاختيار / الأعمار		١٢	١٣	١٤	المجموع	الرتب
المجموع العام		٨٠٠	٨٠٠	٨٠٠	٢٤٠٠	
البشرة	أسود	٣	٢	١	٦	٣
	أسمر	٤٤	٥٦	٦١	١٦١	١
	أبيض	٥٣	٤٢	٣٨	١٣٣	٢
البنية	نحيفة	٥	٢	٥	١٢	٣
	متوسطة	٨٣	٩٥	٨٩	٢٦٧	١
	بدينة	١٢	٣	٦	٢١	٢
القامة	قصيرة	٦	١	٤	١١	٣
	متوسطة	٨٢	٩٧	٨٨	٢٦٧	١
	طويلة	١٢	٢	٨	٢٢	٢
الأنف	صغير	٣٤	٢٢	٣٣	٩٥	٢
	متوسط	٦٦	٧١	٦٧	٢٠٤	١
	كبير	٠	١	٠	١	٣
الفم	صغير	٣٨	٤٢	٣٦	١١٦	٢
	متوسط	٦٢	٥٨	٦٣	١٨٣	١
	كبير	٠	٠	١	١	٣
العين	صغيرة بنية	٠	١	٣	٤	
	صغيرة زرقاء	٢	١	١	٤	
	صغيرة سوداء	٧	١	٠	٨	
	متوسطة بنية	١٤	٢١	١١	٤٦	٣
	متوسطة زرقاء	٢٠	٢١	٢٢	٦٣	٢
	متوسطة سوداء	٤٣	٤٠	٣٨	١٢١	١
	كبيرة بنية	٢	٠	٥	٧	
	كبيرة زرقاء	٧	١١	١٠	٢٨	
	كبيرة سوداء	٥	٤	١٠	١٩	
الشعر	قصير أشقر	١	٢	١	٤	
	قصير أسود	٨	١	٤	١٣	
	متوسط أشقر	٩	٢٦	١٤	٤٩	
	متوسط أسود	٢١	٢٥	١٨	٦٤	٢
	طويل أشقر	١٥	١٦	٣١	٦٢	٣
	طويل أسود	٤٦	٣٠	٣٢	١٠٨	١
الوجه	عريض	٩	٧	٢	١٨	٣
	طويل	٤٢	٣٨	٥٥	١٣٥	٢
	مستدير	٤٩	٥٥	٤٣	١٤٧	١

ولكي يأخذ القارىء فكرة واضحة عن أهمّ صور المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة، قمنا بتلخيص النتائج التي حصلنا عليها في الجدول التالي:

الجدول رقم ٦٠

ترتيبة اختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثالثة

الاختيار	الاختيار الأول		الاختيار الثاني		الاختيار الثالث	
مؤشرات الاختيار	لون	سمراء	لون	أبيض	لون	أسود
	هيئة	متوسطة	هيئة	غليظة	هيئة	رقيقة
	قامة	متوسطة	قامة	طويلة	قامة	قصيرة
	أنف	متوسط	أنف	صغير	أنف	كبير
	فم	متوسط	فم	صغير	فم	كبير
	عين	متوسطة سوداء	عين	متوسطة زرقاء	عين	متوسطة بنية
	شعر	طويل أسود	شعر	متوسط أسود	شعر	طويل أشقر
	وجه	مستدير	وجه	طويل	وجه	عريض

وبعد تحديدنا لأهمّ المؤشّرات الجسمية التي فضّل أطفال هذه المرحلة توفرها في المرأة، عرضناها على أستاذ متخصص في الرسم، فطلبنا منه تجسيدها في رسوم تعكس بشكل تقريبي الاختيارات الثلاثة التي أوردناها في الجدول رقم ٦٠. ولا تخفي في هذا المجال بأن المحاولة كانت طريفة، حيث حصلنا على الصور الثلاث التي ترونها على الصفحة التالية.

ومن خلال تأملنا في هذه الصور، يُمكننا تسجيل الاستنتاجين التاليين:

ـ **الاستنتاج الأول**: ويرتبط بطبيعة المؤشّرات الجسمية التي عكستها كل صورة من هذه الصور، حيث يُمكننا القول بأن المرأة السمراء ذات الهيئة والقامة والأنف والفم المتوسطة وذات الشعر الأسود الطويل والعينين المتوسطتين السوداوين قد احتلت الرتبة الأولى؛ أما نظيرتها البيضاء الممتلئة الجسم، الطويلة القامة، الصغيرة الأنف والفم، ذات العينين المتوسطتين الزرقاوين والشعر الأسود المتوسط والوجه الطويل، فقد احتلّت الرتبة الثانية؛ بينما احتلّت المرأة السوداء ذات الهيئة النحيفة والقامة القصيرة والأنف والفم الكبيرين والعينين المتوسطتين البنيتين والشعر الطويل الأشقر والوجه العريض الرتبة الثالثة. ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن تلك الصور الثلاث لا تعكس كل المؤشرات التي تم اختيارها من جانب كل عمر من أعمار هذه المرحلة؛ فهي تترجم اختيارات المرحلة الممتدة بين عمر ١٢ و١٤ سنة فقط، ومن ثم فإنها قابلة للتعديل أو للتغيير تبعاً لخصوصية نتائج كل عمر زمني معين، إن لم نقل تبعاً للمؤشرات الجسمية التي فضّل كل طفل توفرها في المرأة. ولا بد أن نشير هنا أيضاً إلى أن الصورة التي جسّدت المؤشرات الواردة في الاختيار الأول قد حظيت باهتمام

الاختيار الأول	الاختيار الثاني	الاختيار الثالث

أطفال هذه المرحلة أكثر من الصورتين الأخريين.

ولكي يتمكن القارىء من تكوين فكرة واضحة عن مدى ظهور كل صورة من الصور السابقة في كلام الأطفال أثناء اختيارهم للمؤشرات الجسمية التي يفضّلون توفرها في المرأة نقدّم إليه الجدول التالي:

الجدول رقم ٦١

النتائج المرتبطة باختيار المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثالثة

الاختيارات / النتائج	الاختيار الأول	الاختيار الثاني	الاختيار الثالث	الاختيار المختلط	المجموع
المجموع	١٠٣	٢١	١	١٧٥	٣٠٠
النسب	٪٣٤,٤	٪٧,٠	٪٠,٣	٪٥٨,٣	٪١٠٠

يتضح مما تضمنه الجدول رقم ٦١، أن ما اصطلحنا على تسميته بالمؤشرات المختلطة قد حصلت على نسبة عالية (٥٨,٣٪)، باعتبار أن ١٧٥ طفلاً قد اختاروا مؤشرات لم تجسّدها الصور الثلاث المعروضة سابقاً. ولا نخفي في هذا المجال أننا قد اعتبرنا تلك النسبة حد عادية، لكونها تدلّ على أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من التمييز بشكل دقيق وهادف بين المؤشرات الجسمية المقبولة وغير المقبولة جمالياً. فيكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن الصورة التي احتلت الرتبة الثالثة لم تحصل إلا على نسبة ٠,٣٪، ليُدرك القارىء أن المؤشرات التي تتشكّل منها تلك الصورة لم تبرز إلا في كلام طفل واحد. فبالرغم من أن ٦ أطفال قد فضّلوا المرأة ذات اللون الأسود، و١١ طفلاً فضّلوا ذات القامة القصيرة، و١٢ طفلاً آثروا ذات الهيئة النحيفة، فإن واحداً منهم فقط هو الذي اختار ذات الفم والأنف الكبيرين. ولذلك يُمكننا القول بأن الصورة التي احتلّت الرتبة الثالثة لم تبرز إلاّ في كلام طفل واحد، وأن الصورة التي احتلّت الرتبة الثانية لم تظهر إلاّ في كلام ٢١ طفلاً فقط، مما أدّى إلى ارتفاع نسبة «الاختيار المختلط»، أي الاختيار الذي لم تجسّده الصور الثلاث. ونعتقد أن سبب ذلك الارتفاع يكمن في تعدّد واختلاف الاختيارات التي عبّر عنها الأطفال أثناء تحديدهم لعضوَيْ «العينين» و«الشعر»، بحيث إن تلك الاختيارات قد وصلت إلى حدود ٩ لـ«العينين» و٦ لـ«الشعر»، مما أدى إلى توسيع مجال الاحتمال وإلى تعدد الصور وتباينها. غير أنه مع ذلك، يُمكننا القول إجمالاً بأن معظم الصور التي عبّر عنها أطفال هذه المرحلة تفصح عن تناسق جمالي مقبول.

ـ الاستنتاج الثاني: ويرتبط بمدى جمالية الصور التي عبّر عنها مختلف أطفال هذه المرحلة من خلال اختيارهم لمؤشّرات جسمية محددة. فمن خلال قراءتنا للنتائج التي عرضناها في الجدولين رقم ٥٩ ورقم ٦٠، ومن خلال تأملنا في تلك الصور الثلاث، توصلنا إلى الاقتناع بأن اختيار الأطفال للمؤشّرات الجسمية التي يفضّلون توفّرها في المرأة قد تم عبر استحضارهم لتلك المؤشّرات والتعبير عنها ضمن بنية عامة يطبعها النظام والانسجام. بحيث يُمكننا القول بأنهم قد تجاوزوا مرحلة الاعتماد على الأجزاء لتأسيس البنية الجسمية لصورة المرأة إلى مرحلة الارتكاز على البنية لتعداد الأجزاء المكوِّنة لها. فنحن أصبحنا أمام طفل لا يختار أجزاء المرأة بكيفية عشوائية، بل يختارها انطلاقاً من استحضاره لصورة محدّدة. ونعتقد أن تلك الصورة تشكل الأرضية المعرفية والعاطفية التي مكّنت أغلبية أطفال هذه المرحلة من إضفاء طابع الجمالية على صورة المرأة التي استحضروها وعبّروا عن مكوّناتها الجسمية بواسطة الكلام والرسم.

خاتمة

انطلاقاً من اطلاع القارىء على مضامين هذا الفصل، سيُلاحظ بأننا قد اتبعنا في كتابته الخطوات ذاتها التي اتبعناها في كتابة الفصلين السابقين. ولذلك، كان تقديمنا للنتائج وتعليقنا عليها مختصرين، بحيث إننا لم نتجاوز في كثير من الأحيان مجرد تسجيل بعض الاستنتاجات. ولا شك أنه بعد انتهاء القارىء ذاته من تصفّح ما سبق تأكيده، سيحسّ

بالمجهود الكبير الذي أداه الباحث في كتابته. ولا نشير هنا بكلمة «مجهود» إلى المجهود العلمي الذي نعتبره شرطاً أساسياً يجب توفره في كل دارس يرغب في إنجاز دراسة أكاديمية معينة، بل إن المجهود هنا يعني الإرهاق السيكولوجي الذي وصل في بعض الأحيان إلى حد الملل.

ذلك أن كتابة ثلاثة فصول متشابهة المحاور قد زرع أمامنا صعوبات في تنويع مفاهيمنا ولغتنا والتمييز بين مراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل، بحيث إننا كنا أثناء كتابتنا للفصل الثالث نستحضر ما أوردناه في الفصل الثاني وما سنورده في الفصل الرابع لكي لا نسقط في التكرار. ولا نخفي أنه كلما انتقلنا من فصل إلى آخر، كانت صعوبات كتابتنا لذلك الفصل تزداد. ونعتقد أنها صعوبات تعترض كل باحث دخل ميدان السيكولوجية التكوينية وكل قارىء يرغب في الاطلاع على مضامين تلك السيكولوجيا، بحيث يشترط في ذلك القارىء أن يكون صبوراً جلوداً.

ولذلك، فإننا نطلب من قارىء دراستنا هذه أن يتحلى بهاتين الصفتين، ما دامت طبيعة بحثنا تفرض علينا إعادة إنتاج معرفة ترتبط بالمحاور نفسها من خلال تقسيمنا لتكوّن صورة المرأة إلى مراحل ثلاث هي: «التبلور»، «التأسيس»، «الاكتمال». وهي محاور تطرقنا إليها بنوع من التفصيل في فصلنا الأخير هذا، بحيث إننا عرضنا نتائج ترتبط بالوصف والرسم، ثم انتقلنا إلى مقارنة تلك النتائج قبل أن نقدّم نماذج من رسوم الأطفال، وقبل أن نكشف عن أهم المؤشرات الجسمية التي يفضّل الأطفال توفّرها في المرأة.

ومن خلال ما قدمناه في هذا الفصل، يُمكننا الخروج بالخلاصات الخمس التالية:

١ ـ تنحصر الأولى في أن أطفال هذه المرحلة قد تمكّنوا من استحضار صورة المرأة والتعبير عن مكوّناتها وعن بنياتها الجزئية وبنيتها العامة من خلال استخدامهم للوصف اللفظي والرسم على السواء. وهو استخدام أفصح بكل وضوح عن أن الأطفال قد توفّقوا في خلق انسجام بين تلك المكوّنات والبنيات الجزئية من جهة، وبين هذه الأخيرة والبنية العامة من جهة أخرى، مما يدلّ على أن صورة المرأة ووسيلة التعبير عنها قد اكتملتا لديهم.

٢ ـ تتمثّل الخلاصة الثانية في الفروق الموجودة بين وصف الأطفال لصورة المرأة ورسمهم لها.. وهي فروق جوهرية بلغ مستوى دلالتها حدود ٩٩٪ ثقة، مما يدلّ على أن أطفال هذه المرحلة قد تمكنوا من تجسيد مكوّنات جسم المرأة أكثر من وصفهم لها لفظياً.

٣ ـ الخلاصة الثالثة تفيد أن معظم رسوم أطفال هذه المرحلة قد جسّدت صورة المرأة بشكل مقبول ومتناسق، بحيث إن عدد الصور الكاملة والصور ذات البُعد الجمالي قد فاق بكثير عدد الصور الناقصة، مما يدفعنا إلى القول بأن صورة المرأة قد اكتملت لدى معظم أطفال هذه المرحلة.. وهو اكتمال نعزوه إلى تمثّلهم لمختلف العلاقات المكانية كالتجاور والتمييز والترتيب والحجم والمحيط... وغيرها من العلاقات.

٤ ـ تتمثّل الخلاصة الرابعة في أن عدداً مقبولاً من الأطفال قد تمكّنوا من وصف وتجسيد الأعضاء الجنسية للمرأة، مما يعكس إدراكهم للفروق الجسمية التي تميّز بين الجنسين.

٥ ـ وتنحصر الخلاصة الخامسة في أن المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضّلة لدى أطفال هذه المرحلة قد خضعت لتنظيم وتنسيق عملا على منحها صيغة جمالية تختلف عن تلك التي عبّر عنها أطفال المرحلتين السابقتين. مما يؤكد على أن الأطفال قد تمكّنوا من استحضار البنية العامة لصورة المرأة قبل أن يشرعوا في تحديد المكوّنات الجسمية التي يرون وجودها ضرورياً لتتخذ تلك الصورة صفتي الجمال والأنوثة.

تلكم هي أهم الخلاصات التي سنحاول مناقشتها في خاتمة هذا الكتاب، وهي خلاصات ستتطلب منا استحضار كل ما توصلنا إليه في الفصلين السابقين من نتائج وخلاصات، لأن المقارنة بين نتائج المراحل الثلاث السالفة تفرض علينا الاعتماد على كل ما أوردناه في ثنايا هذه الدراسة. ونؤكد هنا على كلمة «كل»، باعتبارها تمثّل الركيزة التي ستفيدنا في الكشف عن الأرضية المعرفية والعاطفية التي تحكّمت في المسار التكويني الذي قطعته صورة المرأة بين عمر ٤ سنوات و١٤ سنة. ولا شك أن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو: ما التفسير الذي سنقدمه للاستنتاجات التي تضمنها عملنا هذا؟ سؤال سنحاول الإجابة عنه في الخاتمة العامة لهذا الكتاب.

خاتمة عامة

بعد أن خصّصنا الفصول الثلاثة السابقة لعرض أهم النتائج التي حصلنا عليها من خلال تحليلنا لمادتيْ الوصف اللفظي والرسم، سننتقل في هذه الخاتمة إلى تفسير ومناقشة تلك النتائج للخروج بتصوّر واضح للأرضية التكوينية التي فرضت علينا تحديد مراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل في: «التبلور» و«التأسيس» و«الاكتمال». ولا بد أن نشير منذ البداية إلى أن تأجيلنا لتفسير النتائج حتى خاتمة هذه الدراسة، راجع إلى السببين التاليين:

* يكمن السبب الأول في عدم تمكّننا من تقديم تفسير شامل لتكوّن صورة المرأة عند الطفل قبل عرضنا لكل النتائج التي حصلنا عليها، باعتبار أن موضوعنا يهتمّ أصلاً بمشكلة تكوينية تلعب فيها السنّ الدور الحاسم. ولذلك، فإن تقديم أي تفسير عام للنتائج قبل الانتهاء من عرضها يُعتبر تفسيراً سابقاً لأوانه.

* أما السبب الثاني، فإنه ينحصر في أن تفسيرنا للنتائج يفرض علينا استحضار التفسيرات التي قدمها مختلف العلماء السيكولوجيين لمراحل تطور الرسم عند الطفل. وهو استحضار سيمكّننا من الإشارة إلى المساهمات التي سبقتنا إلى هذا الموضوع من جهة، ومن عقد مقارنة بين نتائجنا والنتائج التي توصلت إليها تلك الدراسات من جهة أخرى. تلك المقارنة التي نصبو من ورائها إلى منح مكانة خاصة ومتميّزة لدراستنا هذه. حيث إن همّنا لا ينحصر في تقديم ما قيل في الموضوع فحسب، بل يتجاوز ذلك ليفصح عما نقوله نحن. ولا شك أنه قول سيخلّص قارئنا من الانتظار، لأننا وعدناه أكثر من مرة بأننا سنخصّص خاتمة هذه الدراسة لتفسير كل المشاكل التي تركناها ـ عن قصد ـ معلّقة في ثنايا الفصول الثلاثة السابقة.

وما دمنا قد حددنا محاور تلك الفصول في خمسة، فإننا سنتعرض لها كاملة مع تعديلنا لترتيبها واختزالنا لمحوريْ الوصف اللفظي والرسم في محور واحد باعتبارهما قد خضعا لمراحل تكوّن متطابقة، مع إدماجنا لمحور الفرق بين نتائج الوصف اللفظي والرسم في محور مراحل تطوّر الرسم عند الطفل. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا سننهي تفسيرنا للنتائج بإضافتنا لمحور نناقش فيه مدى صحة الفرضيات المرتبطة بالنتائج التي أوردناها في الفصول الثلاثة السابقة. وعليه، فإنه يمكننا تحديد محاور خاتمتنا هذه في النقاط الأربع التالية:

١) مراحل تطوّر الرسم عند الطفل.

٢) تفسير النتائج المرتبطة بمراحل تطور رسم صورة المرأة عند الطفل.

٣) تفسير مراحل تكوّن الجانب الجمالي عند الطفل.

٤) مناقشة الفرضيات المرتبطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة.

١ ـ مراحل تطوّر الرسم عند الطفل

لا شك أنه من خلال اطلاع القارىء على مضامين الفصول الثلاثة السابقة، سيلاحظ بأننا قد حدّدنا مراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل في ثلاث: مرحلة تبلور المكونات الجسمية لصورة المرأة عند الطفل، مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة عند الطفل، ثم مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة عنده.. وهي مراحل تختلف عن تلك التي حدّدها أشهر علماء النفس الذين اهتمّوا بدراسة مراحل تطوّر الرسم عند الطفل[1]، بحيث يمكن للقارىء أن يرجع إلى ما كتبه بورت Burt[2]، ولوكيه Luquet[3] ولوونفلد Lowenfeld[4]، ويدلوشر Widlöcher[5]، ولوركا Lurcat[6]، واوستريث Ostrrieth[7]، وريتشي Ricci، وبوهلر Bohler، وحتى بياجيه Piaget وتلامذته وغيرهم من العلماء ليدرك بأن المراحل التي توصلنا إليها تختلف بشكل أو بآخر عما توصل إليه السيكولوجيون الذين ذكرنا أسماءهم. ونعتقد أن سبب ذلك الاختلاف يكمن في الخلفية النظرية التي وجّهت تعامل كل عالِم من العلماء مع رسوم الأطفال سواء على مستوى تحليلها أو على مستوى تحديد تطورها في مراحل تشغل كل واحدة منها حيّزاً زمنياً محدداً.

ولكي نوجز القول، فقد آثرنا أن نقدّم للقارىء ـ في جدول واحد ـ المراحل التي توصّلنا إليها مقرونة بالمراحل التي استخلصها العلماء من خلال قراءاتهم وتحليلهم لرسوم الأطفال. ونعتقد أنه جدول سيمكّن القارىء أيضاً من إدراك الفروق أو التجانسات الموجودة بين مختلف المراحل التي أقرّتها المساهمات السيكولوجية [انظر الجدول رقم ٦٢ على الصفحة التالية].

---

(١) ولفائدة ذلك، يُحسن بالمهتمّ أن يتعرّف قبل ذلك على أهمّ المساهمات التي اعتنت بالرسم، وذلك من خلال رجوعه إلى المرجع التالي: STORA (R): «Etude historique sur le dessin comme moyen d'investigation psychologique», *Bulletin de psychologie*, 1963.

(٢) BURT (C): *Mental and Scholatic Test*, London, King and Son, 1921.

(٣) LUQUET (G. H): *Le dessin enfantin*, Nouvelle ed. presentée et commentée par J. Depouilly, Paris, Delachaux et Niestlé, 1972.

(٤) LOWENFELD (V): *Creative and Mental Growth*, New York, Macmillan, 1957.

(٥) WIDLÖCHER (D): *L'Interpretation des dessins d'enfants*, Bruxelles, Dessart, 1965.

(٦) LURCAT (L): «Evolution de graphisme entre quatre et cinq ans: les figurations», *Journal de Psychologie normale et patologique*, 1968.

LURCAT (L): «Evolution de l'activité graphique entre cinq et six ans: multiplication et diversification des realisations», *Journal de Psychologie normal et patrologique*, 1970.

(٧) OSTRRIETH (P. A): *Traité de psychologie de l'enfant - 6- les Modes d'éxpression*, Paris, P. U. F., 1976.

الجدول رقم ٦٢

مراحل تطور الرسم لدى الطفل من خلال أهم المساهمات السيكولوجية

المساهمات / الأعمار	BURT ١٩٢١	LUQUET ١٩٢٧	LOWENFELD ١٩٥٧	OSTRRIETH ١٩٧٦	مساهمتنا نحن
١		الخربشات			
٢		الواقعية العرضية			
٣	الخربشات	الواقعية الناقصة	الخربشات		
٤	مرحلة الرسم التخطيطي		مرحلة ما قبل التجسيد البياني	الخربشات	
٥					مرحلة تبلور المكونات الجسمية لصورة المرأة
٦		الواقعية الفكرية		التجسيد البياني	
٧					
٨	الواقعية		مرحلة التجسيد البياني		
٩					مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة لدى الطفل
١٠	الواقعية البصرية		الواقعية الناشئة	الواقعية الاصطلاحية	
١١		الواقعية البصرية			
١٢	مرحلة اختفاء التعبير بواسطة الرسم		شبه الواقعية		
١٣					مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة لدى الطفل
١٤			المراهقة: التمييز والنضوب	اختلاف التطور الفردي ونضوب الرسم	
ما فوق ١٤	الانبعاث الفني غير المعمم				

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٦٢ يُمكننا أن نستنتج بأن هناك فروقاً بين مختلف المراحل التي أكدتها المساهمات السابقة. وهي فروق أفرزتها أسبابٌ متعددة يُمكننا

حصرها في النقطتين التاليتين:

١ - ينحصر السبب الأول في أن طبيعة موضوعنا قد فرضت علينا الاهتمام بصورة المرأة دون سواها، بحيث إننا لم نهتم بدراسة رسم الطفل لأشياء أو كائنات أخرى. ولا شك أن اختيارنا للمرأة كان أمراً مقصوداً، باعتبار أنها تشكّل من جهة، الحقل الذي يلتقي فيه المعرفي بالعاطفي، وتمثّل من جهة أخرى، موضوعاً له دلالة خاصة بالنسبة للطفل. تلك الدلالة التي تميّزها عن الشكل الهندسي وعن الحيوان والأشياء الجامدة. ولهذا السبب، تختلف مساهمتنا هذه عن مجموعة من المساهمات التي اهتمتْ بدراسة تطور الرسم عند الطفل. فباستثناء تلك التي تطرقت لرصد مراحل تطوّر رسم الطفل للإنسان، فإن الدراسات الأخرى لا ترتبط مباشرة بموضوعنا.

٢ - أما السبب الثاني، فإنه يتمثّل في تباين الخلفيات النظرية التي وجّهت كل دراسة من الدراسات المذكورة، بحيث يُمكننا القول بأن كل عالِم قد درس الرسم وفسّره من خلال ارتكازه على أرضية معرفية محددة سلفاً، تلك الأرضية التي فرضت عليه تحديد مشكلته وضبط الإجراءات المنهجية التي اعتمدها لتقديم حلول علمية لتلك المشكلة. فبالرغم من تعدّد تلك الخلفيات، فإن معظم المساهمات قد اهتمت بدراسة الرسم كوسيلة تعبيرية تمكن الطفل من تجسيد الواقع. ومن ثم ظل هذا الأخير يمثّل المحك الذي يُوظّف للحكم على جودة ودقة رسوم الأطفال.

ولكي نبرز الفروق الموجودة بين الخلفيات النظرية التي ارتكزت عليها الدراسات السابقة وغيرها، فضلنا أن نعتمد على الخطاطتين التاليتين:

* الواقع (كائن، شيء، شكل) ← إدراك ← رسم.
* الواقع (كائن، شيء، شكل) ← إدراك ← صورة ← رسم.

من خلال تمعّننا في هاتين الخطاطتين، يُمكننا أن ندرك وبوضوح الفروق القائمة بين المساهمات السابقة، بحيث إن كل واحدة منها قد حاولت - باعتمادها على إحدى هاتين الخطاطتين - الإجابة على السؤال التالي: هل هناك تطابق بين رسوم الأطفال وإدراكهم للواقع؟ ففي الوقت الذي نجد فيه الدراسات السابقة على ظهور كتاب بياجيه وانهلدر تمثُّل المكان عند الطفل (الصادر سنة ١٩٤٧) قد اهتمّت بدراسة الرسم انطلاقاً من اعتمادها على عناصر الخطاطة الأولى، فإننا نجد معظم الدراسات التي ظهرت بعد الخمسينات من القرن الحالي قد تأثرت، بشكل أو بآخر، بما أوردناه في الخطاطة الثانية.

فإذا كانت الدراسات السابقة على بياجيه قد انحصر همّها في مقارنة الرسم بمدى نقل الطفل للواقع، فإن الدراسات التي ظهرت بعد نشره للكتاب المذكور، كانت على اقتناع بأن هناك بنية ذهنية وسيطية تتموضع بين الرسم والواقع المُدْرَك، ونعني بها الصورة. . هذه الأخيرة التي تتدخل في إعادة إنتاج كل ما هو قابل للتجسيد، وبخاصة حينما يتعلّق الأمر بتجسيد ما هو غائب عن الإدراك. وهذا بالضبط ما دفع بياجيه إلى تخصيص النقطة الأولى من الفصل الثاني من كتابه المذكور، لمناقشة طروحات لوكيه Luquet وللتأكيد على أن الرسم

يرتبط بتطوّر الصورة من جهة، وبتطوّر تمثّل الطفل للعلاقات المكانية التي تتحكّم في ترجمته لتلك الصورة إلى رسوم واضحة من جهة أخرى. حيث إننا نجده لا يتفق مع لوكي حينما عزا عدم قدرة الطفل على التركيب إلى محدودية انتباهه وعشوائية أفعاله، ذلك أن فشل الطفل في التركيب بين مختلف مكوّنات الرسم يرجع، حسب بياجيه، إلى «أدوات تمثّل المكان الواجب توفّره لإعادة تشكيل الترتيب (أي ترتيب أجزاء الوجه) تبعاً للاتجاه العمودي»[1]، الذي يتحكّم في بنية الرسم من أعلى إلى أسفل.

ولقد استمر بياجيه في التدليل والبرهنة على أن تطور الرسم عند الطفل يرتكز على مدى توظيفه للعلاقات المكانية المختلفة، الأمر الذي قاده إلى تأسيس شبه تقابل بين مراحل تطوّر الرسم التي توصل إليها لوكي ومراحل تمثّل الطفل للمكان[2]، مما أدى به إلى الاقتناع بأن «الرسم تَمَثّل، أي أنه يفترض تكوّن صورة جدّ متميّزة عن الإدراك ذاته. وليس هناك ما يثبت أن العلاقات المكانية التي تتكوّن منها الصورة على المستوى نفسه مع تلك التي يكشف عنها الإدراك المقابل لتلك الصورة»[3]. ومن ثم، فإن هذه الأخيرة تختلف عن الإدراك وإن كانت تستمد منه محتواها.

غير أنه بمجرد أن انتهى بياجيه من انتقاد تفسير لوكي لمراحل تطور الرسم عند الطفل، انتقل إلى مقاربة موضوع بعيد عن الرسم كما درسه لوكي، بحيث إننا كنا نرغب في أن يبرهن بياجيه على صحة آرائه من خلال اعتماده على تحليل مادة قريبة من تلك التي حلّلها لوكي، أي تحليل رسم الأطفال للرجل والحيوانات والبيت والأشياء.. إلخ. غير أن رغبتنا لم تتحقّق، لأن بياجيه، بمجرد انتهائه من إجراء موازنة بين تفسيره لمراحل تطوّر الرسم وتفسير لوكي لها، انتقل إلى الاهتمام برسم الأطفال لأشكال هندسية لا علاقة لها بالكائنات الحية. ومن ثم تحوّل الرسم إلى تجسيد الأشكال القابلة للتجريد (المستطيلات، الدوائر، المربعات، الخطوط المستقيمة والمائلة.. إلخ) أكثر من تجسيد أشياء أو كائنات ذات بعد إنساني. وهو تحوّل ـ وإن كان بياجيه قد انتبه إليه ودافع عنه[4] ـ يُمثّل النقطة التي نختلف فيها معه.

---

(١) PIAGET (J) & INHELDER (B): *La représentation de l'éspace chez l'enfant*, op. cit., p. 62.

(٢) يُمكننا تحديد ذلك التقابل في النقاط الثلاث التالية:

أ ـ عدم القدرة على التركيب يُقابلها تمثّل المكان الطوبولوجي.

ب ـ الواقعية الفكرية يُقابلها تمثّل المكان الطوبولوجي مع ظهور الإرهاصات الأولى لتمثّل المكان الإقليدي والإسقاطي. حيث يقول بياجيه: «... إن الواقعية الفكرية تشكّل نوعاً من التمثّل المكاني حيث العلاقات الإقليدية والإسقاطية ما زالت في بداية الظهور». *Ibid*., p. 66.

ج ـ الواقعية البصرية يقابلها تمثّل المكان الإقليدي والإسقاطي.

(٣) *Ibid*., p. 62.

(٤) يقول بياجيه مدافعاً عن رأيه: «على العموم، فإن تحليل رسوم الأشكال الهندسية قد أفضى بنا إلى تحديد تطوّر أكثر تنظيماً من ذلك الذي قدّمه الرسم التلقائي للرجل. فتطوّر الرسم الهندسي يتيح لنا معاينة حتى مشاكل تجريد الأشكال» *Ibid*., p. 66.

فبالرغم من اقتناعنا بوجود الصورة كبنية ذهنية تتدخل في رسوم الأطفال وكلامهم ولعبهم، فإننا مقتنعون أيضاً بأن رسم الأطفال للمرأة أو الرجل أو أي كائن حي كيفما كان نوعه يختلف عن رسمهم لشكل هندسي يكاد يكون فارغ المحتوى. ولذلك، فإن اتفاقنا مع بياجيه في كون ثنائية «صورة/ رسم» حقيقة سيكولوجية لا يُمكننا تجاوزها، لا ينفي بتاتاً اختلافنا معه في أن الرسم ليس مجرد علاقات مكانية[1] فحسب، بل بنية ذات محتوى لها علاقة صميمية برغبات الطفل ودوافعه ولاشعوره. ولذلك، فإننا نتفق مع أوستريث Ostrrieth حينما يؤكد على أن الرسم عبارة عن «. . . استحضار ذي استعمال خاص وذاتي للحقيقة. ولكنها حقيقة تدرك في آن واحد تبعاً لمنظور متعدّد المصادر: حسّي حركي، معرفي وعلى الخصوص عاطفي»[2]. ومن ثم وجب علينا الكشف عن تلك الحقيقة ذات المصادر المتعددة.

وما دمنا قد اتفقنا مع بعض ما أكده أوستريث وبياجيه، فإننا ضمنياً نختلف مع كل ما قدمه كل من بورت ولوكي وغوديَنَفْ Goodenough وغيرهم من العلماء الذين سنعرض أهم طروحاتهم في النقطة الثانية من هذه الخاتمة، كما أننا نختلف مع بعض التفسيرات التي قدمها كل من: بياجيه وأوستريث ولوكرا وريتشي وبوهلر وغريدلي Gridley ودووريتسكي Dworetski . . . لرسوم الأطفال. . ويمكننا أن نحدد نقاط اختلافنا مع العلماء المشار إليهم في القضيتين التاليتين:

ـ **القضية الأولى**: إن كل التفسيرات التي قدمتها المساهمات التي ارتكزت على ثنائيتَيْ: «واقع مدرك/ رسم» أو «صورة/رسم» قد سقطت في توظيف مفاهيم تعبّر بوضوح عن أن تلك المساهمات لم تتجاوز مستوى عقد مقارنة بين الواقع المدرك والرسم. وهذا بالضبط ما يفسّر استعمال العلماء الذين اهتموا بدراسة ثنائية «واقع مدرك/ رسم» لمفهوم الواقعية Realisme بكثافة وفي معانٍ مختلفة (الواقعية العرضية، الناقصة، الفكرية، البصرية. . .). ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أنه منذ أن ظهر مفهوم «الواقعية» في كتابات بورت ولوكي والمهتمين بدراسة مراحل تطور الرسم عند الطفل، وهم يستعملون المفاهيم نفسها تقريباً. فحتى أوستريث قد أطلق اسم «الواقعية الاصطلاحية» على المرحلة الممتدة بين عمر ٩ و١٣ سنة. ومن ثم أصبح الحكم على مدى جمالية ودقة الرسم يرتبط بمدى اقترابه من تجسيد الشيء أو الكائن المادي الموضوعي.

وبالرغم من أن بياجيه وتلامذته قد تمكّنوا من الكشف عن البُعد التمثّلي للرسم وعن

---

(١) حدّد بياجيه العلاقات المكانية في عدة قواعد يُمكننا حصرها في النقاط الثلاث التالية:

* تمثّل المكان الطوبولوجي ويخضع لعلاقات: التجاور، الفصل، الترتيب، المحيط، الاتصال أو الانفصال.
* تمثّل المكان الإقليدي ويخضع لعلاقات: القياس، التنظيم، النسب والحجم. . إلخ.
* تمثّل المكان الإسقاطي ويخضع للمنظور أو للزاوية التي يعتمد عليها الطفل لرسم الشكل كأمام، خلف، جانب، يمين، يسار. . إلخ.

(٢) OSTRRIETH (P. A): *Traité de psychologie de l'enfant*, op. cit., p. 21.

العلاقات المكانية التي تتحكم فيه، فإن القليل منهم هم الذين اهتمّوا بدراسة رسم الطفل للكائنات الحيّة. فإذا كانت الدراسات السابقة قد اهتمّت بمقاربة الرسم باعتمادها على ثنائيتَيْ: «واقع مدرك/رسم» و«صورة/رسم»، فما هي الأرضية التي اعتمد عليها عملنا الراهن لدراسة رسم الأطفال من عمر ٤ إلى ١٤ سنة؟

بالرغم من أننا قد خصّصنا كتاباً كاملاً[1] لتقديم الإطار النظري للبحث، فإننا سنذكّر القارىء بأن ثنائيتَيْ: «صورة/رسم» و«صور/كلام» اللتين ارتكزنا عليهما لدراسة تكوّن صورة المرأة عند الطفل إنما تقومان على ثنائية «بنية/محتوى». الأمر الذي فرض علينا ألا نمنح الواقع المدرك مكانةً بارزةً في المفاهيم التي وظّفناها في هذه الدراسة. باعتباره واقعاً تحوّل إلى مدلول، أي إلى صورة ذهنية، ومن ثم لم يعد مرئياً ولا مطابقاً لذاته. ذلك أن صورة المرأة ليست نسخة مطابقة للمرأة الموجودة أمامنا في الواقع. فهي مدلول تمّ تجريده من خلال تعامل الطفل مع الواقع.

وما دامت الصورة بنيةً تقبل التجسيد، فإنها تخضع في تكوّنها لشروط سيكولوجية حاولنا الكشف عن أهمها في الفصول الثلاثة السابقة؛ وما دامت تلك الصورة تفصح عن محتوى محدّد، فإننا سنفرد كتابنا المقبل لرصد معالم ذلك المحتوى. ولا نخفي هنا بأننا قد اعتمدنا على قواعد متعدّدة للكشف عن مدى انسجام بنية صورة المرأة والعناصر المكوّنة لها، حيث إننا وظّفنا مقاييس الكثافة والتراتبية والتجاور والتمييز والترتيب والحجم والمحيط. . إلخ، لتصنيف رسوم الأطفال وتحليلها. كما أننا لا نخفي بأن استقصاءنا لصورة المرأة لم يتجاوز الواقع بصفة نهائية، باعتبار أن قراءتنا لصورة المرأة قد خضعت للعلاقات والمقاييس السابقة.

ـ القضية الثانية: وتنحصر في اختلاف الأرضية السيكولوجية التي اعتمدت عليها الدراسات السابقة لتفسير الفروق الموجودة بين مراحل تطوّر الرسم عند الطفل. ذلك أنه من خلال اطلاعنا على مضامين تلك الدراسات، توصّلنا إلى إدراك أن تفسيرها للرسم لم يخرج عن أحد الأبعاد التالية: الفعل، المعرفة والعاطفة. بحيث إن هناك من العلماء من فسّر تطوّر الرسم بانتقال الطفل من الفعل العشوائي إلى الفعل المنظّم، ومن الانتباه المحدود إلى الانتباه الأكثر ديمومة، ومن تمثّل للمكان تبعاً للعلاقات الطوبولوجية إلى تمثّله لذلك المكان تبعاً للعلاقات الإقليدية والإسقاطية. وهناك مَن فسّر ذلك التطوّر باعتماده على مسألة التكثيف والاختزال والطاقة وغيرها من المسائل التي سنتعرض لها فيما بعد، بحيث إننا لم نعثر ـ فيما اطلعنا عليه ـ على دراسة واحدة تمكّنت من مقارنة رسوم الأطفال تبعاً لثنائية «عاطفي/معرفي». ولذلك، فإننا نعتبر عملنا هذا ـ بالرغم من هفواته ـ مساهمة في تقديم تفسير مركّب وشامل لرسوم الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤ و١٤ سنة.

وقبل أن نعرض ذلك التفسير ارتأينا أن نقدم للقارىء ـ من خلال الجدول رقم ٦٣ ـ النتائج التي حصلنا عليها باعتمادنا على المراحل العامة بدل اعتمادنا على الأعمار التي تضمّنتها كل مرحلة.

---

(١) الإشارة هنا إلى كتابنا: علم نفس الصورة: مدخل نظري إلى تكوّن صورة المرأة لدى الطفل، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧.

الجدول رقم ٦٣

نتائج الوصف اللفظي والرسم المرتبطة بمراحل تكون البنية الجسمية لصورة المرأة عند الأطفال

أجزاء الجسم / المراحل	الوصف اللفظي																																
	الرأس															الجذع							الأطراف										
	رأس	شعر	وجه	جبهة	حاجب	عين	أشفار	خد	أنف	فم	شفة	لسان	أسنان	ذقن	أذن	عنق	صدر	ثدي	بطن	ظهر	سرة	أعضاء تناسلية	كتف	ذراع	يد	كف	أصابع	أظافر	ساق	ركبة	رجل	قدم	أليات
الأولى	٨٨	٤٤,٣	٤٦	٠	١,٣	٥٩	٠	٠	٥٧,٦	٥٠	٠	١,٣	٠	٠	٤٤,٦	٣,٣	١	٣	١٩	٣,٦	٠	١	١,٣	-	٦٥,٣	٠	٥,٣	٠	٠,٣	٢,٣	٦٧,٦	٠	٠
الثانية	٧٨,٤	٥٣	٢٠,٢	٠	٩,٤	٧١,٤	٥,٦	٢,٤	٧٢,٨	٦٢	١,٤	٤,٨	٢,٤	٠	٦٧,٢	٤٤,٤	١١,٦	٦١,٦	٣٦	٧,٤	١,٨	١٨,٨	٥	١,٦	٨٠,٤	٠,٤	٩,٨	٠,٨	٢,٤	٣,٢	٨٣,٦	١,٤	٠
الثالثة	٩٧	٧٩	٣٣,٦	٥,٦	٢١	٩٠,٦	١٨,٦	١١,٣	٨٩,٣	٩٢,٣	٤١	٥,٦	٥,٦	٥,٦	٨٧,٣	٣٧,٣	٥٥,٦	٣٧	٨٣,٦	١٣	٩	٤٨,٦	١٥,٣	١٣,٦	٩٦,٦	١٣,٦	٤٢	١٠,٣	١٩	١٧	٩٧	٣٧,٣	٠
	الرسم																																
الأولى	٩٤,٦	٥٠,٦	٩٨	٤٩,٦	٣٣	٨٦,٦	٨,٣	٠	٤٨	٦٨	٠,٦	٠	٢,٣	٤٥,٣	٢١	٤٤	٤٨	٧,٦	٤٧,٦	٠	١٥,٣	٥	٢٩,٦	٣٨,٦	٨٩	٢٧,٦	٥٣,٦	٠	١٨,٣	٨,٣	٨٦,٣	٤٤	٢٤,٣
الثانية	١٠٠	٧٥,٨	١٠٠	٧٣	٤٥,٤	٩٧,٤	١٤,٣	٠,٦	٦٩,٨	٨٢,٦	٤,٣	٠	٦,٤	٧٣	٣٨	٦٤	٧٩,٣	١٨,٤	٧٨,٦	٠,٣	٢٠,٤	١٥	٢٤	٦٣,٣	٩٣	٤٩,٣	٦٤	١,٦	٣٣	٩,٨	٩٧,٣	٦٨,٦	٤١,٣
الثالثة	١٠٠	٩٥	١٠٠	٩٨	٧٤,٣	٩٥,٦	٢٠,٦	١٠,٦	٩٤,٣	٩٥,٦	١٣,٦	٠	١,٦	٩٢	٧٩	٨٠,٦	٩٥,٣	٣٥,٥	٩٥,٣	٠	٢٨,٣	٣٠	٨٨	٨٦,٣	٨٩,٣	٧١,٦	٧٦,٦	٢,٦	٥٨,٣	١٦,٦	١٠٠	٨٦	٧٩,٣

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٦٣، يُمكننا أن نلاحظ الفروق الموجودة بين مختلف مراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل. وهي فروق حاولنا التحقّق من صحتها ودلالتها من خلال تطبيقنا للاختبار «التائي»، ذلك الاختبار الذي مكّننا من الحصول على النتائج التالية:

الجدول رقم ٦٤

مقارنة بين نتائج المراحل الثلاث على مستوى الوصف اللفظي والرسم

الوصف اللفظي

المراحل / المراحل	الأولى	الثانية	الثالثة
الأولى	/	٠,٤٠ غ. دالة	٢,٠١ ٪٩٨ ثقة
الثانية	٣,٠٢ ٪٩٩ ثقة	/	٣ ٪٩٩ ثقة
الثالثة	٥,٧٩ ٪٩٩ثقة	٣,٦٨ ٪٩٩ ثقة	/

الرسم

إن النتائج التي قدّمها لنا الجدول رقم ٦٤ تفصح عن أن هناك فروقاً جوهرية بين مختلف المراحل سواء تعلّق الأمر بالرسم أم بالوصف اللفظي. فباستثناء قيمة «ت» (٠,٤٠) التي تقارن بين متوسطي المرحلة الأولى والثانية، فإن كل قيم «ت» الأخرى قد وصلت دلالتها إلى حدود ٪٩٨ و٪٩٩ ثقة. غير أنه بالرغم من القيم الثانية هذه، فإن تداخل المراحل أمر مُسلّم به، ولذلك فإننا سنتجاوز طرحه هنا. ومن ثم، فإننا لا نخفي بأن تقسيمنا لتكوّن صورة المرأة إلى مراحل ثلاث لم ينبثق عن النتائج التي تضمنها الجدول أعلاه بقدر ما انبثق عن تصنيفنا لرسوم الأطفال وقراءتنا لها، تلك القراءة التي سنخصّص النقطة التالية لعرض خطوطها العامة.

٢ ـ تفسير النتائج المرتبطة بمراحل تطور رسم صورة المرأة عند الطفل

لا شك أن تفسيرنا للنتائج المرتبطة بمراحل تطوّر رسم صورة المرأة عند الأطفال سيوضّح المراحل العامة التي قدّمناها في النقطة السابقة. فبالرغم من أن ذلك المسار يتراوح بين الصور المبهمة والصور ذات البُعد الجمالي، مروراً بالصور الناقصة والصور بدون جذع والصور ذات الأطراف المشوهة والصور المجسدة للأعضاء الجنسية والصور الكاملة، فإن النتائج التي حصلت عليها تلك الصور تختلف من مرحلة إلى أخرى، مما يدلّ على أن بروزها بشكل مكثف في مرحلة ما لا يعني بالضرورة أنها ستحافظ على الكثافة نفسها في مراحل أخرى. ولكي يدرك القارىء مدى ارتباط ظهور أنواع الصور السابقة بالمراحل الثلاث التي عرضناها في النقطة السالفة، نقدم له الجدول التالي.

الجدول رقم ٦٥

علاقة تطوّر الرسم بمراحل تكوّن صورة المرأة عند الطفل

أنواع الصور / المراحل	المبهمة	الناقصة	بدون جذع	مشوّهة الأطراف	ذات البُعد الجنسي	الكاملة	ذات البُعد الجمالي
الأولى	٤٦	١١١	١٠٠	٠	٠	٤٣	٠
الثانية	١٠	٩٩	٦٩	٦٨	٧٥	١١١	٦٨
الثالثة	٠	٢٢	١١	١٣	٩٠	٧٨	٨٦
المجموع	٥٦	٢٣٢	١٨٠	٨١	١٦٥	٢٣٢	١٥٤

من خلال ما تضمنه الجدول رقم ٦٥ من نتائج، يُمكننا أن نختزل أنواع الصور السابقة الذكر إلى ثلاثة أصناف فقط هي: المبهمة، الناقصة (وتضم الناقصة وبدون جذع وجزءاً من مشوّهة الأطراف وجزءاً من ذات البُعد الجنسي)، ثم الكاملة (وتضمّ الصور الكاملة وذات البُعد الجمالي وجزءاً من الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية وجزءاً من مشوّهة الأطراف). ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عن هذه الأصناف نقدّمها له في الجدول التالي:

الجدول رقم ٦٦

النتائج المرتبطة بالصور: المبهمة والناقصة والكاملة

الصور / المراحل	المبهمة	الناقصة	الكاملة	المجموع
الأولى	٤٦/(٪١٥,٤)	٢١١/(٪٧٠,٣)	٤٣/(٪١٤,٣)	٣٠٠/(٪١٠٠)
الثانية	١٠/(٪٢)	٢٧٦/(٪٥٥,٢)	١٢٤/(٪٤٢,٨)	٥٠٠/(٪١٠٠)
الثالثة	٠	٤٩/(٪١٦,٣)	٢٥١/(٪٨٣,٧)	٣٠٠/(٪١٠٠)

من خلال قراءتنا لمضامين الجدول رقم ٦٦ يُمكننا القول بأن هناك اختلافاً بين النسب التي حصلت عليها كل صورة من الصور السابقة الذكر، وهو اختلاف يُمكننا صياغته في القاعدة التكوينية التالية: كلما تقدّم الطفل في العمر، يتضاءل ظهور الصور المبهمة والناقصة لديه ليزداد بروز الصور الكاملة. ولا شك أن تلك الزيادة وذلك النقصان يختلفان من مرحلة إلى أخرى بحيث يمكننا أن نؤكد في هذا المجال على أن الصور المبهمة والناقصة قد ظهرت بشكل كبير في رسوم أطفال المرحلة الاولى، بينما تضاءل ظهور تلك الصور في رسوم أطفال

المرحلة الثانية، وبخاصة لدى أطفال المرحلة الثالثة. وفي مقابل انخفاض نسبة بروز الصور المبهمة والناقصة ازداد ظهور الصور الكاملة لدى أطفال المرحلتين السابقتين. وتبعاً لهذه القاعدة، يمكننا أن نؤكد أيضاً على أن رسوم الأطفال قد انتقلت، بفعل تقدمهم في العمر، من الإبهام إلى الوضوح ومن النقصان إلى الاكتمال، ومن عدم التناسق إلى التناسق.

إلا أنه بالرغم من أن القاعدة السابقة الذكر تكتسي قيمة علمية، فإنها لا تضيف أي جديد إلى المعرفة، باعتبار أنها قاعدة ظهرت في كل المساهمات السابقة التي اهتمّت بدراسة تطوّر الرسم لدى الطفل. فالجديد الذي سنبحث عنه لا يكمن في مدى تجانس أو اختلاف نتائجنا مع النتائج التي أكدتها مختلف المساهمات السيكولوجية، بل في مدى اقتناعنا بالتفسيرات المتعددة التي قدمها مختلف العلماء لمراحل تطوّر الرسم لدى الطفل. إذ إنه بمجرد أن يطلع القارىء على ما كتبه كل من ريتشي ولوكي ودووريتسكي وغريفلي واوستريت. . والللائحة طويلة، سيُلاحظ الاختلافات الموجودة بين التفسير الذي يُقدّمه كل واحد منهم لعملية الرسم من جهة، ولتطوّره من جهة أخرى. وبما أننا لم نهتمّ بدراسة رسوم الأطفال قبل سنّ الرابعة، فإننا لن نتطرق إلى مرحلة «الخربشات» ولا إلى ما يسمى بـ«الواقعية العرضية» و«الواقعية الناقصة»، بل إننا سنكتفي بتركيز اهتمامنا على الصور «المبهمة» والصور «الناقصة» لكي نتعرّض في الأخير للصور «الكاملة».

يُمكننا أن نؤكد منذ البداية على أن الرسوم التي عكست صوراً مبهمة لم تحظَ بتحليل دقيق مثل تلك التي جسّدت الصور بدون جذع. بحيث إن التفسير الذي مُنح لتلك الصور بسيط وعام. فهناك من أرجع فشل الطفل في تجسيد صور واضحة إلى عدم قدرته على التركيب بين أجزاء الرسم، وإلى محدودية إدراكه وعشوائية أفعاله؛ وهناك من أرجع ذلك الفشل إلى خضوع رسم الطفل للاتجاه الأفقي أكثر من الاتجاه العمودي، مما دفع به إلى إنتاج رسوم تتكوّن من عناصر لا تجمعها أي علاقة[1]؛ وهناك من اعتبر ذلك الفشل امتداداً طبيعياً للخربشات، إلى غير ذلك من التفسيرات التي تضمنتها مختلف المساهمات السيكولوجية التي اهتمت بموضوع الرسم. إلا أنه بالرغم من أهمية تلك التفسيرات، فإننا لا نتفق مع معظمها، باعتبار أن سبب فشل الأطفال في تجسيد صورة المرأة بشكل واضح لا يكمن في عدم قدرتهم على التركيب أو على ترتيب أجزاء رسمهم بشكل صحيح، كما أنه لا يكمن في عدم اكتسابهم لمهارة حركية تمكّنهم من تجسيد مختلف الأعضاء بشكل دقيق، بل إن ذلك الفشل يرجع أساساً إلى صعوبة الموضوع الواجب تجسيده من جهة، وإلى العلاقات المكانية التي يخضع لها ذلك التجسيد من جهة أخرى. وحينما نقول العلاقات المكانية، فإننا نشير بالضبط إلى علاقة بنية الرسم بالعناصر المكوّنة له.

وانطلاقاً من النتائج التي حصلنا عليها، يُمكننا القول بأن ٤٦ طفلاً من أطفال المرحلة

---

(١) يقول أوستريت: «عادة ما لا تتميز «الرسوم البيانية» عن «الخربشات» إلا بفضل الشروح اللفظية التي يقدمها الطفل»؛ *Traité de psychologie de l'enfant*, op. cit., p. 35.

الأولى لم يتمكّنوا من تطبيق علاقات التجاور والفصل والترتيب والمحيط والحجم... بشكل مقبول، بحيث إن بعضهم قد رسم «الشعر» بجانب «العينين»، و«اليدين» بجانب «الرأس»[1]. كما أن هناك من اختزل الأجزاء في «الرأس»، مما يدلّ على أنهم لم يتمكّنوا من التمييز بين مختلف الأعضاء المكوّنة لصورة المرأة، ومن ترتيبها بشكل منظّم ودقيق، بحيث إن معظم أطفال المرحلة الأولى لم يحترموا علاقات: فوق/ تحت، أمام/ خلف، أفقي/ عمودي.

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أنه بالرغم من اتفاقنا مع دووريتسكي في قولها بمبدأ «الاقتصاد في الوسائل»[2]، وبالرغم من اتفاقنا أيضاً مع لوكي حينما صرّح بأن «الطفل لا يرسم ما يراه في الأشياء، بل ما يعرفه عنها»[3]، فإننا على اقتناع تامّ بأن اقتصاد الطفل في الوسائل وفشله في تجسيد كل ما يعرفه راجع إلى عدم اكتمال بنية صورة الشيء أو الإنسان عنده، مما يفرض عليه تجسيد جسم المرأة ووصفه من خلال اعتماده على أعضاء محدودة. إذ إن رسمه لـ«السرّة» مثلاً يوهمه بأنه قد جسّد الجذع كله. فغياب البنية هو الذي منح ـ فيما نعتقد ـ مكانة بارزة للأجزاء في رسوم الأطفال، وهي أجزاء لا تنصهر داخل إطار عام يجمع بينها، مما يضفي عليها عدم الانسجام والتناسق.

أما إذا انتقلنا إلى الصور الناقصة، فإننا نجد معظم المساهمات قد اهتمّت بدراسة الرسوم التي لم تجسّد «الجذع» أكثر من اهتمامها بتلك التي لم تجسّد «الفم» أو «الأنف» أو غيرهما من الأعضاء. ويتضح ذلك الاهتمام في منح العلماء مكانة خاصة لتلك الرسوم، حيث اعتبروها مرحلة ضرورية لانتقال رسوم الطفل من الإبهام إلى الاكتمال. وبما أن الرسوم التي لم تجسّد الجذع قد ربطت بين الرأس والأطراف فقط، فإن بعض العلماء، ومن بينهم ريتشي وروما Rouma[4]، قد ذهبوا إلى التأكيد على أن سبب ذلك الربط راجع إلى المكانة التي يمنحها الطفل للوجه والأطراف، وإلى الوظيفة التي يؤديها كل عضو من تلك الأعضاء. كما أن هناك بعض العلماء، ومن بينهم لوكي ممن فسّروا عدم قدرة الطفل على تجسيد الجذع إلى فشله في إدراك الأعضاء الداخلية. وإلى جانب ذلك، هناك من العلماء (دووريتسكي مثلاً) من أرجع ذلك الفشل إلى صعوبة تجسيد الجذع من جهة، وإلى عدم اهتمام الطفل[5] به من جهة أخرى. كما أن هناك من العلماء (غريدلي مثلاً)، من أكد بأن رسم الرجل بدون جذع منبثق عن الصورة الأكثر بساطة له. إلا أنه بالرغم من أهمية التفسيرات السابقة، فإننا نُرجع فشل الطفل في تجسيد الجذع إلى أسباب ثلاثة:

---

(١) لقد قدّمنا في الصفحة ٦٧ رسمين يحملان رقميْ ٣ و٤ يختزلان أجزاء الجسم في الرأس.

(٢) MEILI- DWORETSKI (G): *L'Image de l'homme*, op. cit., p. 142.

(٣) LUQUET (G): *Le dessin enfantin*, op. cit., p. 154.

(٤) يمكن الرجوع إلى كتابه التالي للتعرف على طروحاته: ROUMA (G): *Le langage graphique de l'enfant*, Bruxelles, 1912.

(٥) تقول دووريتسكي في كتابها المذكور سابقاً: «إن الجذع يلعب منذ العمر الأول دوراً ثانوياً». *L'Image de l'homme*, op. cit., p. 157.

١ ـ يكمن أولها في عدم قدرة أطفال المرحلة الأولى والثانية[1] على تمثّل كل أجزاء جسم المرأة معرفياً، ونعني هنا بـ«عدم القدرة» فشلهم في ترجمة صورة المرأة في رسوم كاملة. فبالرغم من أن رسم الطفل للمرأة بدون جذع يُعتبر تحوّلاً من الاتجاه الأفقي إلى العمودي، بحيث يتمكن الطفل من ترتيب أجزاء جسم المرأة ترتيباً عمودياً بدل الترتيب الأفقي، فإن ذلك التحوّل لا يمس الجذع باعتباره قد غاب من رسوم ما يفوق ١٠٠ طفل من المرحلة الأولى، و٦٩ طفلاً من المرحلة الثانية. ونعتقد أن غياب الجذع يرجع إلى صعوبة ترتيب أجزائه من جهة، والتمييز بينها من جهة أخرى.

٢ ـ أما السبب الثاني، فإنه يرجع إلى المكانة التي منحها الطفل لـ«الوجه» و«الرجلين» و«اليدين»، بحيث إنه عن طريق تلك الأعضاء يميّز بين أناه والآخرين، ويتحرك في المكان، ويشبع رغباته البيولوجية والسيكولوجية. ولذلك، فإننا لن نجازف في القول إذا أكدنا بأن تجسيد الطفل لعضو دون آخر يرجع أساساً إلى العلاقة العاطفية التي تجمعه به. وهذا بالضبط ما دفعنا في الفصول السابقة إلى ترتيب تلك الأعضاء تبعاً لظهورها في رسوم الأطفال ووصفهم اللفظي.

٣ ـ أما السبب الثالث والأخير، فإنه اجتماعي ثقافي، ذلك أن الجذع كما نعلم يحتضن ما هو جنسي، أي ما هو محرّم. واقتناعنا بتدخل الجانب الاجتماعي راجع إلى أن القاعدة التي دافع عنها كل علماء النفس السابقين، والتي مفادها أن الطفل يعرف أكثر مما يرسمه لم تزكّها النتائج التي حصلنا عليها، بحيث إننا وجدنا أن الطفل يرسم أكثر مما يعرفه. ونعتقد أن سبب ذلك كامن في تقنية الحوار الذي أجريناه مع الطفل، إذ إن هذا الأخير كان يستقبل أسئلتنا بنوع من الحشمة والتحرّج، بحيث إننا نادراً ما كنا نسمع من الأطفال عبارة «لا أعرف». فمعظمهم كان يرد على أسئلتنا بالضحك أو الابتسامة المقرونة بتحريك الرأس وتجنب التحديق في وجه الفاحص. ولذلك، فإننا مقتنعون بأن الأطفال يعرفون مكوّنات الجذع ولكنهم يتهربون من وصفها لفظياً. ونعتقد أن ارتفاع نتائج تجسيد تلك المكوّنات بالمقارنة مع نتائج وصفها يرجع إلى أن علاقة «طفل/فاحص» تختلف عن علاقة «طفل/ورقة وقلم». فإذا كانت العلاقة الأولى تفرض على الطفل الدخول في حوار مباشر مع الراشد، أي بمجسّد القيم والتقاليد، فإن العلاقة الثانية تسمح للطفل بالانفراد بالورقة. فبالرغم من أن تجسيد مكوّنات صورة المرأة بالاعتماد على الورقة والقلم أصعب بالمقارنة مع وصفها لفظياً، فإن ذلك التجسيد يُريح الطفل نفسياً ويخلّصه من التكلّف والاصطناع. والحقيقة أننا قد أحسسنا بالصعوبات التي اعترضت الطفل في الإفصاح عمّا يعرفه من خلال إجابته عن السؤال التالي: «ما هي الأعضاء الجسمية التي تميّز المرأة عن الرجل؟» هذا السؤال الذي حاولنا من خلاله تحطيم الحواجز السيكولوجية والاجتماعية التي حالت دون وصف الطفل لكل أجزاء جسم المرأة أو رسمه لها.

---

(١) لقد ركّزنا على أطفال المرحلتين الأولى والثانية، لأن رسومهم تتضمن عدداً لا يُستهان به من الرسوم بدون جذع.

أما بالنسبة للصور الكاملة، فإنها تدلّ على أن الأطفال - وبخاصة الذين ينتمون إلى المرحلتين الثانية والثالثة - قد تمكّنوا من تمثّل علاقات التجاور والفصل والترتيب وغيرها من العلاقات التي أفادتهم في خلق انسجام بين البنية والأجزاء، مما أضفى على رسومهم نوعاً من الدقة والجمالية. ونعتقد أنه من الخطأ أن نتعرّض للصور الكاملة دون أن نشير إلى الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية، باعتبارها صوراً تفصح عن نوع من النضج العاطفي والمعرفي عند الطفل. ذلك أن تجسيده للأعضاء الجنسية يعبّر، من جهة، عن قدرته على التمييز بين المرأة والرجل، ويفصح، من جهة أخرى، عن أنه قد استحضر الجذع فجسّد أصعب وأدق مكوّناته. ولا نخفي في هذا المجال أن النتائج التي حصلت عليها الصور المجسّدة للأعضاء الجنسية لدى أطفال المرحلة الثانية (١٥٪)، والمرحلة الثالثة (٣٠٪)، كانت معبّرة وغنية بالدلالات، بحيث إننا توصلنا إلى تأكيد نتيجة مفادها أن تجسيد الأطفال للعضو التناسلي يمرّ بلحظات ثلاث: التجسيد المبهم، فالذكوري ثم الأنثوي. وهي لحظات تعبّر بكل وضوح عن أن رسم الأطفال للعضو التناسلي للمرأة يمر عبر رسمهم لعضوهم التناسلي. وهذا بالضبط ما دفعنا إلى الاتفاق مع بعض العلماء أمثال سترن Stern ودوورويتسكي وشايلدر Schilder[1] وغيرهم من السيكولوجيين الذين يرون أن الرسم وسيلة تعبيرية تتضمن إسقاطات مختلفة. ذلك أن الطفل من خلال تجسيده لجسم الآخر إنما يجسّد جسمه هو، مما يدفعه إلى السقوط في تشويهات متعددة، تلك التشويهات التي برزت بشكل واضح لدى عدد كبير من الأطفال الذين حاولوا تجسيد العضو التناسلي للمرأة. ولا نخفي هنا أيضاً أنه كان من الممكن أن نحصل على نتائج مرتفعة، ذلك أنه بالرغم من أن معظم الأطفال لم يصفوا ويرسموا الأعضاء الجنسية للمرأة، فإن إجاباتهم عن السؤال: «ما هي الأعضاء الجسمية التي تميّز المرأة عن الرجل؟» قد أفصحت عن أنهم يعرفون أعضاءً لم يتمكنوا من رسمها. وهذا بالضبط ما يزكّي تدخّل الجانب الاجتماعي والقيمي في الحدّ من تجسيد الأطفال للأعضاء الجنسية للمرأة.

انطلاقاً مما سبق يُمكننا القول إجمالاً بأن تفسيرنا للنتائج التي حصلنا عليها قد ارتكز على أرضية مركّبة تجمع بين ثلاثة جوانب: المعرفي والعاطفي والاجتماعي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اعتمادنا على تلك الجوانب لم يخضع للتكلّف والعشوائية، إذ إننا لم نعمل على إقحام هذه الجوانب في تفسيرنا لكل ما توصلنا إليه من نتائج، بل إننا كنا نحاول أن نستفيد من تلك الجوانب تبعاً لخصوصية كل مرحلة. . تلك الخصوصية التي سبق لنا أن حددناها في الفصل الأخير من كتابنا تكوّن صورة المرأة لدى الطفل.

ولكي يأخذ القارىء فكرة موجزة عنها، ها نحن نقدمها إليه ملخّصة في الجدول رقم ٦٧.

انطلاقاً مما تضمّنه الجدول رقم ٦٧ يُمكننا القول بأن الجانبين العاطفي والمعرفي يخضعان لثنائية «التوتر/ استرخاء»، وهي ثنائية نعتقد أنها تلعب دوراً مهمّاً في وصف الطفل

---

(١) يمكن للمهتمّ أن يطلع على طروحات شايلدر برجوعه إلى كتابه: *L'Image du corps*, Traduit de l'Anglais par F. Gantheret et P. Truffert, Paris, Ed. Gallimard, 1968.

الجدول رقم ٦٧

ثنائيات «توتر/استرخاء»

حسب المراحل العمرية

المراحل العمرية	المرحلة الأولى (٤ ـ ٦)	المرحلة الثانية (٧ ـ ١١)	المرحلة الثالثة (١٢ ـ ١٤)
العاطفة	توتر	استرخاء	توتر
الذكاء	استرخاء	توتر	استرخاء

* الأرقام في الجدول تشير إلى سن الطفل

لمكوّنات صورة المرأة أو رسمه لها. ولا يمكننا إدراك ذلك الدور إلا إذا نحن ربطنا بين ثنائية «توتر/استرخاء» وثنائية «بنية/أجزاء». فإذا كانت المرحلة العمرية الاولى (٤ ـ ٦ سنوات) تعرف توتراً عاطفياً، بحكم اجتياز الطفل للمرحلة «الأوديبية»، فإن ذلك التوتر يؤدي به إلى منح الأولوية للجزء على البنية.. وهي أولوية عاطفية ارتكزنا عليها لتفسير أسبقية «الفم» و«العين»... على «الرأس» و«البطن». ولا شك أن سيطرة العاطفة على كلام الطفل ورسمه قد فقدت قوتها خلال المرحلة العمرية الثانية(٧ ـ ١١ سنة)، باعتبارها مرحلة خضعت بالخصوص للتوتر المعرفي. فطفلنا قد دخل مرحلة العمليات المحسوسة التي يتمّ خلالها تمثّل وضبط علاقات الترتيب والتجاور والتمييز... وغيرها من العلاقات التي مكّنته من ترجمة صورة المرأة إلى كلام ورسوم واضحة. ونعتقد أن قدرة طفل المرحلة الثانية على منح الأولوية للبنية على الأجزاء إنما يُعزى إلى تطور ميكانيزماته الذهنية وإلى تصحيح أخطاء المرحلة الحدسية أكثر مما هو راجع إلى ميكانيزمات عاطفية، باعتبار أن طفلنا يوجد في مرحلة كمون جنسي طويل. إلا أن ذلك التطوّر المعرفي سرعان ما يتخذ شكلاً آخر في المرحلة العمرية الثالثة (١٢ ـ ١٤ سنة)، باعتبار أن العاطفة التي كانت في استرخاء خلال المرحلة الثانية قد استيقظت بقوة خلال المرحلة الثالثة. ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى أن اكتمال بنية صورة المرأة خلال هذه المرحلة لا يعني أبداً أن الطفل قد تمكّن من ترجمة تلك الصورة في رسوم مطابقة لها، بل إن تلك الرسوم قد خضعت للعلاقة الدقيقة التي تجمع بين البنية والأجزاء. ذلك أنه إذا كان من المسلّم به تكوينياً أن رسوم أطفال هذه المرحلة قد جسّدت بنيات واضحة، فإن ذلك لا يعني عدم اهتمامهم بالأجزاء، بحيث يُمكننا القول إن أطفال هذه المرحلة بدل أن يرتبطوا بـ«الفم» و«الثدي» و«البطن» وغيرها من الأعضاء ارتباطاً عاطفياً خاضعاً لقواعد المرحلة الأوديبية، فإنهم يرتبطون بتلك الأعضاء ارتباطاً عاطفياً خاضعاً لقواعد المرحلة التنسالية. ومن ثم، فإن «الفم» الذي كان يُعتبر مجرد قناة للإشباع البيولوجي أصبح مصدر إشباع جنسي، والأمر نفسه يُمكن تعميمه على «الثدي» و«الشفتين» و«الخدين» و«الساقين»... وغيرها من الأعضاء. وإننا لا نستبعد في هذا المجال أن نجاح الأطفال في إضفاء صبغة الجمالية والتناسق على رسمهم للمرأة راجع بالأساس إلى الدلالة التي منحوها لمختلف

الأعضاء المكوّنة لصورة المرأة عندهم.

فواضح إذن أن ثنائية: «بنية/أجزاء» لا يُمكن فهمها إلا إذا نحن جمعنا بينها وبين ثنائية: «عاطفة/ذكاء». ذلك الجمع الذي نأمل أن يدركه القارىء لِيُساعدنا على إيجاد تفسير مقنع لكل القضايا التي بقيت معلّقة أو التي اقتصرنا على الإشارة إليها فقط. ذلك أن الإقبال على تقديم تفسير مفصل ودقيق لكل النتائج التي حصلنا عليها قد يتطلّب منا كتابة ما يفوق حجم فصل من الفصول السابقة. ولذلك اكتفينا بتقديم الخطوط العامة للأرضية التفسيرية التي اعتمدناها لقراءة محتويات هذه الدراسة.

٣ ـ تفسير مراحل تكوّن الجانب الجمالي عند الطفل

إننا لا نرغب في هذا الجانب تكرار ما سبق وأن أكدناه في النقطة السالفة، بل إننا نريد فقط أن نمهد لطرح سؤالين دقيقين حول المسار التطوري الذي خضعت له المؤشرات الجسمية لصورة المرأة المفضلة لدى الطفل.

وقبل أن نطرح أي سؤال آثرنا أن نقدم للقارىء صور المرأة المفضلة لدى أطفال المراحل العمرية الثلاث.

صور المرأة المفضلة لدى أطفال المراحل الثلاث: التبلور، التأسيس، الاكتمال

المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الأولى	المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثانية	المرأة المفضلة لدى أطفال المرحلة الثالثة

من خلال هذه الصور الثلاث يُمكننا أن نؤكد على أن كل الأطفال قد فضّلوا المرأة ذات الوجه المستدير والشعر الأسود الطويل، بينما اختلفوا في اختيار المؤشرات الجسمية الأخرى. . ذلك الاختلاف الذي يُمكننا حصره في القاعدة التكوينية التالية: كلما تقدم الأطفال في السن، انتقلوا من تفضيل العينين الصغيرتين السوداوين إلى تفضيل العينين السوداوين المتوسطتين، ومن اختيار المرأة ذات الفم والأنف الصغيرين إلى اختيار ذات الفم والأنف المتوسطين، ومن تفضيل المرأة ذات القامة الطويلة والهيئة البدينة إلى تفضيل ذات القامة والهيئة المتوسطتين، ومن اختيار المرأة ذات اللون الأبيض إلى اختيار ذات اللون الأسمر. فهذه التحوّلات التكوينية هي التي دفعتنا إلى طرح السؤالين التاليين: إلى أي حد يمكننا القول بأن هنا تطابقاً بين مراحل ظهور الصور الثلاث المعروضة أعلاه ومراحل تطوّر صورة المرأة عند الإنسان العربي عبر تاريخه الطويل؟ أي صورة من هذه الصور ستتطابق وتلك التي جسّدها النص الديني والمأثور الشعبي؟ سؤالان سنفرد كتاباً مستقلاً للإجابة عنهما.

٤ ـ مناقشة الفرضيات المرتبطة بالبنية الجسمية لصورة المرأة

لا شك أنه بعد تفسيرنا لأهمّ النتائج التي حصلنا عليها، يحق لنا أن ننتقل في هذه النقطة إلى ربط النتائج بالفرضيات التي سبق وأن طرحناها في الفصل الأول من هذا الكتاب[1]. وهو ربط سيفرض علينا استحضار تلك الفرضيات من جهة والنتائج من جهة أخرى بهدف التحقق من صحة تلك الفرضيات أو خطئها. ولكي يعرّف القارىء على مدى تحقق تلك الفرضيات، سنقدمها له واحدة واحدة.

١ ـ لقد افترضنا في أولاها أن صورة المرأة عند الطفل ستخضع في تكوّنها لمراحل محدّدة تساير نموه الفكري عامة وبنياته الذهنية خاصة. ولا شك أن النتائج التي حصلنا عليها تؤكد فعلاً أن تكوّن تلك الصورة يمرّ بثلاث مراحل كبرى هي: «مرحلة تبلور المكوّنات الجسمية لصورة المرأة»، و«مرحلة تأسيس البنية العامة لصورة المرأة»، ثم أخيراً «مرحلة اكتمال البنية العامة لصورة المرأة». وبما أننا قد أفردنا النقطتين السابقتين من هذه الخاتمة لتفسير ظهور تلك المراحل، فإننا سنكتفي بالتأكيد في هذا الصدد على أن فرضيتنا قد تحقّقت.

٢ ـ أما الفرضية الثانية، فإننا قد توقعنا فيها بأن تقدّم الطفل في السنّ وانتقاله من مرحلة عمرية إلى أخرى سيصاحبه غنى وكثافة في ظهور مكوّنات صورة المرأة في قوله ورسمه، مما سيؤدي بتلك الصورة إلى الانتقال من البسيط إلى المعقد، ومن النقصان إلى الاكتمال، ومن الغموض والإبهام إلى الوضوح. ولا شك أن النتائج التي حصلنا عليها، سواء في الوصف اللفظي أو الرسم، تزكّي صحة فرضيتنا هذه. ويمكننا إدراك ذلك بوضوح من خلال قراءتنا

---

(١) للاطلاع على تلك الفرضيات، يُمكن الرجوع إلى الفصل الأول، ص ١٢ ـ ١٤.

لمضامين الجدول التالي:

الجدول رقم ٦٨

مقارنة نتائج الوصف بنتائج الرسم لدى أطفال المراحل الثلاث

المراحل العمرية / وسيلة التعبير	المرحلة الأولى	المرحلة الثانية	المرحلة الثالثة
الوصف اللفظي	١٦٣١ / م: ٥٤٣,٦	٣٧٢١ / م: ٧٤٤,٢	٣٩٣١ / م: ١٣١٠
الرسم	٣٨٨٥ / م: ١١٩٥	٨١٩٥ / م: ١٦٣٩	٦٢٦٣ / م: ٢٠٨٧,٦

(*) م: المتوسط.

فواضح مما تضمّنه الجدول رقم ٦٨ أن متوسطات الوصف اللفظي قد انتقلت من ٥٤٣,٦ إلى ٧٤٤,٢ إلى ١٣١٠، وأن متوسطات الرسم قد انتقلت من ١١٩٥ إلى ١٦٣٩ إلى ٢٠٨٧,٦. ولا بد من الإشارة إلى أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل إن النتائج التي حصل عليها الرأس والجذع والأطراف في المراحل الثلاث تجزم بما لا يدع مجالاً للشك بأنه كلما تقدّم الطفل في السنّ، زاد وصفه ورسمه لمكوّنات جسم المرأة.

٣ ـ توقعنا في الفرضية الثالثة خضوع تكوّن صورة المرأة عند الطفل لتمثّله للعلاقات المكانية التالية: التجاور، الفصل، الترتيب، المحيط، الحجم، التناسق. . تلك العلاقات التي تفيده في خلق انسجام بين بنية صورة المرأة والأجزاء المكوِّنة لها. وهو توقّع أكدت النتائج التي حصلنا عليها صحته، باعتبار أنه كلما احترم الطفل تلك العلاقات، انتقل رسمه من الإبهام والنقصان إلى الوضوح والاكتمال.

٤ ـ أما الفرضية الرابعة، فإننا قد توقعنا فيها أنه كلما تقدّم الطفل في السن، انتقل رسمه من تجسيد أجزاء جسم المرأة بشكل غير منسجم ومتناسق إلى تجسيد تلك الأجزاء داخل بنية تتصف بالانسجام والجمالية. ونعتقد أن اطلاع القارىء على النتائج التي عرضناها في الفصول الثاني والثالث والرابع، سيؤدي به إلى الاقتناع بأن رسم الطفل ووصفه لمكوّنات جسم المرأة قد انتقل من ارتباطه بالأجزاء إلى ارتباطه بالبنية، حيث إنه ـ بفعل تقدّمه في السن ـ تمكّن من تجسيد البنيات الجزئية (الرأس، الجذع، الأطراف) أكثر من تجسيده للأجزاء المكوِّنة لها. ومن ثم يُمكننا القول بأن فرضيتنا هذه قد تحققت أيضاً.

٥ ـ أما بالنسبة للفرضية الخامسة، فإننا قد توقعنا فيها ظهور فروق دالة وجوهرية بين

وصف الأطفال لمكوّنات جسم المرأة ورسمهم لها. وهو توقع تأكّدنا من صحته من خلال تطبيقنا للاختبار «الثاني»، حيث يُمكننا القول بأنه باستثناء قيمة (ت) لدى أطفال سنّ الرابعة، فإن قيم (ت) لدى كل الأعمار الأخرى دالّة وجوهرية. ويُمكن للقارىء أن يرجع إلى الجداول ذات الأرقام: ١٦ ـ ٣١ ـ ٥٣ ليتأكد من صحة فرضيتنا هذه.

أما بالنسبة للفرضية السادسة والأخيرة، فإننا قد توقعنا فيها نجاح الأطفال في تجسيد الأعضاء التي تربطهم بها علاقة عاطفية أكثر من تجسيدهم للأعضاء التي لا تربطهم بها تلك العلاقة. وهي فرضية تأكدنا أيضاً من صحتها. ذلك أن النتائج التي حصل عليها «الفم» و«الثدي» و«اليد» و«البطن» و«الرجل» و«الوجه» تزكّي صحة توقعنا هذا. إلا أنه مع ذلك لا بد أن نذكر هنا بأن الدلالة التي منحها أطفال المرحلة الأولى للأعضاء السالفة تختلف عن تلك التي منحها إياها أطفال المرحلة الثالثة. ونعتقد أنه من الإطناب تفسير ذلك ما دمنا قد خصّصنا النقطة الثانية من هذه الخاتمة العامة لإبراز أسباب اختلاف الدلالة التي منحها أطفال كل مرحلة لمختلف أعضاء جسم المرأة.

تلكم هي أهمّ الفرضيات التي ترتبط بمراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل. ونركّز هنا على عبارة «البنية الجسمية» لكوننا قد أفردنا هذا الكتاب كله للكشف عن معالم البنية الشكلية لصورة المرأة.. تلك البنية التي انتقلت من مرحلة التجميع بين الأجزاء بشكل غير منسجم، إلى مرحلة تأسيس البنية العامة التي تجمع بين تلك الأجزاء، ثم إلى مرحلة اكتمال مكوّنات تلك البنية.. وهو اكتمال أضفى على تلك المكوّنات نوعاً من الجمالية والتناسق.

فإذا كان هذا هو المسار التكويني الذي خضع له شكل صورة المرأة، فما هو مسار تكوّن محتواها؟ سؤال سنخصص الكتاب المقبل بكامله للإجابة عنه.

المراجع

أ ـ المراجع الأجنبية :

1- ABRAHAM (A): *Les Identifications de l'Enfant à travers son dessin*, Toulouse, Privat, 1976.

2- AUBIN (H): *Le dessin de l'Enfant inadapté*, Toulouse, Privat, 1970.

3- BOUTONNIER (J): *Les dessins d'Enfants*, Paris, Edition Scarabeé, 1953.

4- CLAPAREDE: «Note sur la localisation du Moi», *Archive psychologique*, XIX, 1924.

5- DEBIENNE (M. C.): *Le dessin chez l'Enfant*, Paris, P. U. F, 1968.

6- ENGELHART (D): *Dessin et personnalité chez l'Enfant*, Paris, Edition du C. N. R. S., N° 52, 1980.

7-GRATIOT- ALPHANDERY & ZAZZO (R): *Traité, de psychologie de l'Enfant- 6. Les modes d'expression- le dessin chez l'enfant par Ostrieth*, P. U. F., 1ère Edition, 1976.

8- LEWENFELD (V): *Creative and Mental Growth*, New York, Macmilan, 1957.

9- LUQUET (G H): *Le dessin enfantin*, Nouvelle édition presentée et commentée par J. Depouilly Paris, Delachaux et Niestlé, 1972.

10- LURCAT (L): «Evolution du graphisme entre quater et cinq ans: les figurations», *Journal de psychologie normale et patologique*, 1968.

11- LURCAT (L) «Evolution de l'activité graphique entre et six ans: multiplication et diversification des réalisations», *Journal de psychologie normale et patologique*, 1970.

12- MEILI- DWORETSKI (C): *L'image de l'homme chez l'enfant- sa representation et sa réalisation chez le jeune enfant*, Traduction de H. Santucci Paris, Delachaux et Niestlé, 1971.

13- OSTRRIETH (P. A): «La psychologie devant l'Expression graphique de l'Enfant, *Vers L'education*, Novembre 1971.

14- OSTRRIETH (P.A): «Le dessin devant le diagnostic de la personnalité en psychologie clinique», *Bulletin Asso. Int. de psychologie appliquée*, 1973.

15- PIAGET (J) & INHELDER (B): *La Representation de l'Espace chez l'Enfant*, Paris, P. U. F., 3em édition, 1977.

16- ROUMA (G): *Le langage graphique de l'Enfant*, Bruxelles, 1912.

17- SCHILDER (P): *L'image du corps*, Traduit de l'Anglais par F. Gantharet & P. Truffert, Paris, Gallimard, 1968.

18- SIJELMASSI (M): *Enfants du Maghreb entre hier et aujourd'hui*, Soden. (S. D).

19- STERN (A): *Du dessin spontané aux techniques*, Paris, Delachaux et Niestlé, 1964.

20- STORA (R): «Etude historique sur le dessin comme moyen d'investigation psychologique», *Bulletin de psychologie*, 1963.

21- VOIZOT (B): *Le developpement de l'Intelligence chez l'Enfant*, Paris, A. Colin, 1973.

22- VOIZOT (B): «*Une étude du dessin de l'Enfant sur le thème: dessine un maître ou une maîtresse dans la classe*, (Thèse de médecine) Paris, 1976.

23- WIDLÖCHER (D): *L'interprétation des dessins d'enfants*, Bruxelles, A Dessart, 1965.

24- ZAZZO (R): *Traité de psychologie de l'Enfant - T.6 Les modes d'Expression*, P. U. F., 1ère. Edition, 1976.

25- ZAZZO (R.): «Les gestes graphiques et la structuration de l'espace». *Enfance*, 1950, Reproduit dans: *conduite et conscience*, Paris, Delachaux et Niestlé, 1962.

ب . المراجع العربية :

١ ـ جابر عبد الحميد جابر وأحمد خيري كاظم: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.

٢ ـ ديوبولد فان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة مجموعة من الأساتذة، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٧٧.

٣ ـ سلوى الخماش: المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف، بيروت، دار الحقيقة، ١٩٧٩.

٤ ـ عبد العزيز فهمي هيكل وفاروق عبد العظيم أحمد: الإحصاء، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠.

٥ ـ لويس كامل مليكة: دراسة الشخصية عن طريق الرسم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٨.

٦ ـ موراي شبيجل: الإحصاء، ترجمة: الدكتور شعبان عبد الحميد شعبان، دار ماكجروهيل للنشر، ١٩٨٧.

فهرس جداول الكتاب

المحتويات

مطبعة دار الكتب ـ شارع عدنان الحكيم ـ أوتيل الماريوت ـ بناية البلرناتيز ـ ٨٥٣٧٥٣/٠١

١٠٠٠/٩٨/١٢٦٥

الطفل وجسم المرأة

□ بعد أن قدّمنا للقارئ العربي كتابَيْ: **صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني** و **المدخل النظري لتكوّن صورة المرأة لدى الطفل**، سنقدم له في هذا الكتاب إجابة عن السؤال التالي: ما هي مراحل تكوّن البنية الجسمية لصورة المرأة عند الطفل؟

□ إننا نعني بالبنية الجسمية الشكل الخارجي لصورة المرأة.. هذا الشكل الذي سنحاول معرفة مدى وصف الطفل للأجزاء المكوّنة له ومدى رسمه لها، أي مدى استحضاره لصورة المرأة وتمثّله لبنيتها العامة ولأعضائها المختلفة. ولا شك أن ذلك التمثّل يتوقف أساساً على مدى قدرة الطفل على قراءة شكل صورة المرأة معرفياً، أي على مدى تجريده لصورتها...

□ إن الطفل لا يتعامل مع المرأة كبنية جسمية فحسب، بل إنه يمنحها عبر علاقة (ذات - موضوع) دلالات شتى، إذ إنه لا يعتبر «اليد» مجرد عضو يتكوّن من «كف» و «أصابع»... بل يعتبره العضو المسؤول عن الفعل، كما أن «الثدي» ليس مجرد انتفاخ في الصدر، بل إنه مصدر التغذية والإشباع الجنسي؛ وبالمثل فـ «الفم» ليس مجرد عضو يوظّف للأكل والكلام... بل إنه مصدر من مصادر الإشباع الجنسي، والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة لباقي الأعضاء التي يتكون منها جسم المرأة. ولذلك أضحى من اللازم ألا نهتم بشكل صورتها فحسب، بل بمحتواها أيضاً. هذا الأخير الذي يرتكز على الجانب الوجداني أكثر من الجانب المعرفي.

٢٩١

دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت